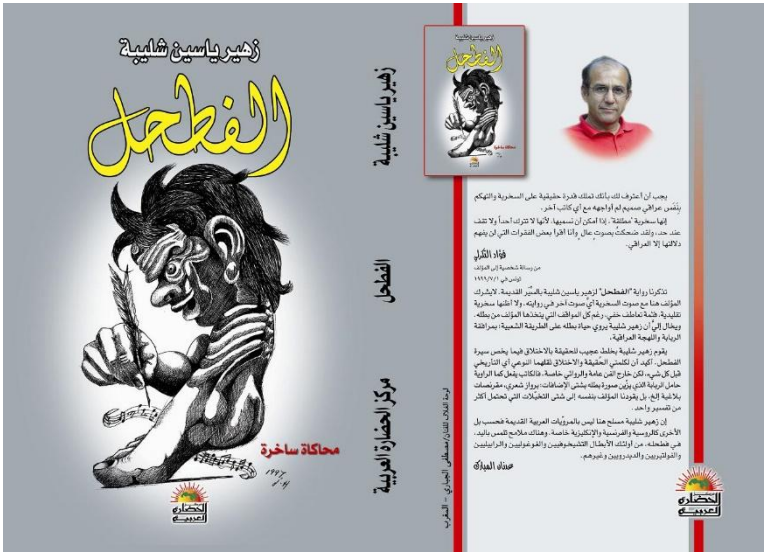

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي المغربي مصطفى جباري! المحمدية، المغرب!
شكر خاص وتحية له بمناسبة ذكرى إصدار محاكاة "الفطحل" على موقع القصة العراقية قبل ثلاثة عقود تقريباً.

حقوق النشر للمؤلِّف

لا يُسمح بإعادة الإصدار التصويري أو الإليكتروني أو أي شكل من الاستنساخ والنشر والاقتباسات الطويلة والتوزيع بدون أخذ الموافقة الخطية من المؤلف الدكتور زهير ياسين الشليبه بموجب اتفاقات Copy-Dan دان كوبي السارية.

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy-Dan aftaler.

The Genius

Den Geni

Sharq Gharb forlaget, Danmark

شرق غرب للنشر

الطبعة الأولى 2009

1. udgave

Danmark 2009

Copyright: Zouhair Shlaiba

Omslag: Mustafa Jabbari

ISBN 978-87-985964-7-9

زهير ياسين شليبه

الفطحل

محاكاة ساخرة
ونصوص سردية مفتوحة

حقوق النشر للمؤلِّف

مركز الحضارة العربية

الكتاب:

الـفـطـحـل

الكاتب: زهـيـر يــاسـيـن شـلـيـبـه

(العواق – الدنمَرك)

الناشر: مـــــركـــــز

الغلاف

لوحة الغلاف:الفنان المغوبي: مصطفى جباري

تصميم وجوافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى:

وحدة الكمبيوتر بالموكز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: 2008/22691

الترقيم الدولي: **ISBN**: 977-291-945-1

الدنموك: **ISBN:** 978-87-985964-7-9

شليبة،زهير ياسين.

الفطحل: محاكاة ساخوة ونصـوص سـودية مفتوحة/زهير ياســين. – ط1. القاهوة: موكز الحضــارة العوبية للإعلام والنشــر والدواسات، 2008.

240ص؛ 20سم.

تدمك: 1-945-291-977

1- الأحاجى والفكاهات العوبية.

أ- العنوان 817

الإهداء

إلى زوجتي فريدة

إلى أبطال قصصي الذين أُحبهم كثيراً!
معكم أسخرُ لا منكم.

إلى أبطال قصصي الذين يعرفون أنفسهم أكثر من غيرهم، أقولُ لهم قولَ الشاعر:

إذا الشعر لم يطربك عند سماعه
فليس خليقًا أن يُقالَ له شعرُ

وأنشدَ بعضُهم في تقسيم الشعراء:

الشعراء فاعلمنَّ- أربعة
فشاعرٌ يجري ولا يُجرى معه
وشاعرٌ يُنشدُ وسط المعمعة
وشاعرٌ من حقّه أن تسمعه
وشاعرٌ من حقّه أن تصفعه

يجب أن أعترف لك بأنك تملك قدرة حقيقية على السخرية والتهكّم بِنَفَس عراقي صميم لم أواجهه مع أي كاتب آخر.

إنها سخرية "مطلقة"، إذا أمكن أن نسميها، لأنها لا تترك أحداً ولا تقف عند حد، ولقد ضحكتُ بصوتٍ عالٍ وأنا أقرأ بعض الفقرات التي لن يفهم دلالتها إلا العراقي.

الروائي العراقي الكبير

فؤاد التكرلي

من رسالة شخصية إلى المؤلف بتاريخ

1999/07/01

تونس

الـمحتويات

مقدمة الأستاذ عدنان المبارك 9

مقدمة الطبعة الثانية 13

قصيدة إهداء 15

القصص

الاستباحة 17

الكلب والسيدة القتيلة 36

كتاب الفطحل، محاكاة ساخرة

تُوزِن تاك 47

تَقلّبات الفطحل 56

النفاق 126

الشِجار 137

الأمسية الشعرية 146

عودة الفطحل إلى ربوع الوطن الشامخ 152

الفطحل في مغامرة بصراوية 203

ديوان الفطحل 213

قالوا عن الفطحل 249

شــكر خاص للفنان المغربي مصــطفى جبار على لوحته المكرّسة لمحاكاة الفطحل

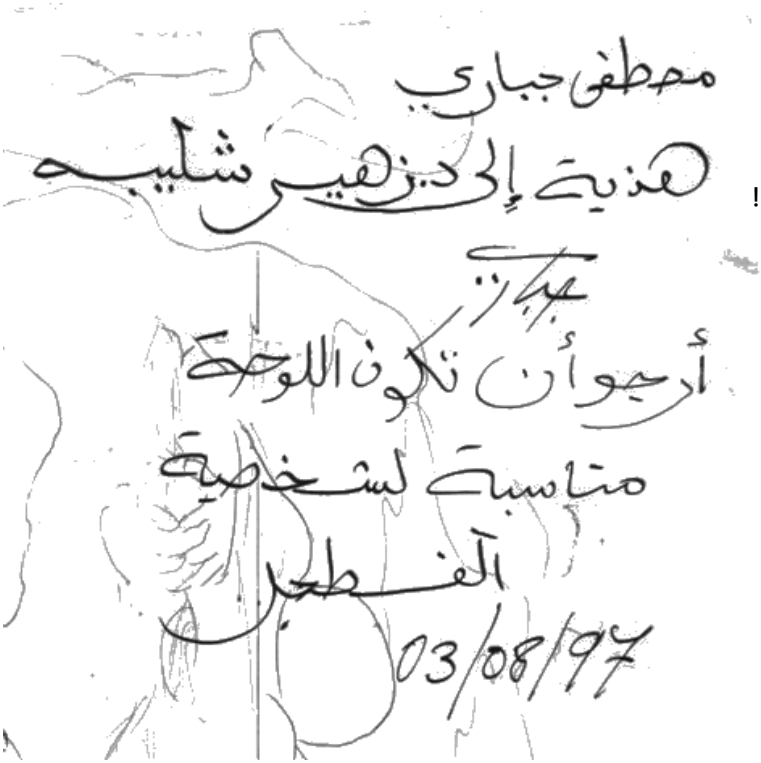

قراءة في رواية زهير ياسين شليبة "الفطحل"

رصد ساخر لنموذج بشري دائم

عدنان المبارك

تذكرنا رواية "الفطحل" لزهير ياسين شليبة بالسِيَر القديمة. لا يشرك المؤلف هنا مع صوت السخرية أيَّ صوت آخر في روايته. ولا أظنها سخرية تقليدية، فثمة تعاطف خفي، رغم كل المواقف التي يتخذها المؤلف من بطله. ويخال إليَّ أن زهير شليبة يروي حياة بطله على الطريقة الشعبية: بمرافقة الربابة واللهجة العراقية.

قَسّمَ الراوي مرويته إلى فصول لا تجمعها أيٌّ من أدوات الرواية التقليدية لكن ظاهرياً فحسب. فثمة خيط متين، رغم دقته، يمسك بكل ما حدث لهذا البطل. ولا أظن أنه، أي الكاتب، قد عنوَن عن طريق المصادفة، فصولَ الرواية وأعطاها مثل هذا التسلسل الذي يذكرنا بأبرز الأعمال الأدبية المكرسة لمثل هذا النموذج البشري. فالفصول اعتمدت، بشكلٍ بيّن، على تقنية الفلاش باك.

يقوم زهير شليبة بخلطٍ عجيب للحقيقة بالاختلاق فيما يخص سيرة الفطحل. أكيد أن لكلمتي الحقيقة والاختلاق ثقلهما النوعي أي التأريخي قبل كل شيء، لكن خارج الفن عامة والروائي خاصة. فالكاتب يفعل كما الراوية حامل الربابة الذي يزّين صورة بطله بشتى الإضافات: برواز شعري، مقرنصات بلاغية إلخ، بل يقودنا المؤلف بنفسه إلى شتى التخيّلات التي تحتمل أكثر من تفسير واحد.

إن زهير شليبة مسلح هنا ليس بالمروّيات العربية القديمة فحسب بل الأخرى كالروسية والفرنسية والإنكليزية خاصة. وهناك ملامح تلمس باليد، في فطحله، من أولئك الأبطال التشيخوفيين والغوغوليين والرابيليين والفولتيريين والديدرويين وغيرهم. ولا أجدني مبالغاً إذا

قلت بأني عثرت على لمحة هنا وهناك فـــــي الفطحل مســتعارة من رجال الجوف لإليوت. وعليَّ أن أســتدرك هنا: نحن لا نعثر، بالطبع، لدى فطحل زهير شـليبة على ذات النسـغ الفلسـفـــــي الإليوتي. ف "فطحله" مثال تقليدي لشتى الأنوات التي يعرفها كل مجتمع يعاني من صــعود وهبوط مفاجئين، أي محرومين من الإيقاع والوتيرة، فـــــي بارومتر الحضارة المادية.

وقبل كل شـــيء يكون الفطحل عينة مخيفة لنبتة خرجت من أرض يصـعب تحديد موقعها، فهي فـــي تنقل شـبه أبدي بين قحولةٍ ومشـروع نماءٍ. وفـــي الحقيقة لا يمثل بطل زهير شـليبة أيَّ فئة اجتماعية محددة. فالمؤلف تعمد تعليقه فـي فراغات عدة وليس فـي فراغ واحد.

أعودُ إلى رجال إليوت الذي جعل منهم نموذجاً شمولياً لإنسـان هذا العصــر الذي روّضــت مشــاعره وتلافيف مخه أقانيم هذه الحضـــارة المادية. فإليوت الذي صـــار كاثوليكيّاً وتقبّلَ الكثيرَ من دوغماها، وجد أن القدح المعلى فـــي حضارتنا ل"الفطاحلة" الذين هم ليسوا بحاجة إلى إيمان وأيّ كان. وكما قلت فـــ"الفطحل" يحشـر نفسـه وبحركات بالغة الطبيعية بين رجال إليوت خاصةً أنه مثلهم لا يعرف الابتسام:

نحن الرجال الجوف
نحن الرجال المحشوين
يتّكئ أحدنا على الآخر
الرؤوس حُشيت بالقش، واحسرتاه!
أصواتنا التي جُفّت
حين نهمس لبعضنا بعضاً،
هادئة و بلا معنى
كالريح على غصنٍ يابِس
أو قائمة جرذي على هشيم زجاج

فـي قبونا الجاف. (الأبيات من ترجمتي).

بالطبع لا يمكن إطالة "فطحل" زهير شـــليبة ولا تضـــخيمه كي يصـــبح رمزاً يتخطى حدودَ محليته، أي على العكس من رجال إليوت (الشـــاملين). وقد تبدو المقارنة بين الفطحل ورجال إليوت قســـرية أو مفتعلةً لكن حجتي هنا تشابك جذور كل الظواهر فـــي عصرنا بشكلٍ خاص (ربما كان الكاتب قد قرأ إليوت) ومن ثم عثر رجاله الجوف على حيّزٍ ما فـــي لا وعيه). ومرة قرأتُ كتاباً عن إليوت بَحَثَ مؤلفه عن منحدر عنوان قصـــيدة إليوت الشـــهيرة هذه. وظاهريّاً يبدو هذا موضـــوعاً آخر لكن ليس تماماً. فلقد جرى البحث عن أصـــل "الرجال الجوف" وتبين أن من المحتمل أن يكون للعنوان ثلاثة أصـــول: مقال وليم موريس W. Morris بالعنوان نفسه، وقصيدة لرودیارد کیبلینغ R. Kipling بعنوان The Broken Men

أو من "يوليوس قيصر" لشكسبير الذي استخدم النعت نفسه فـــي مسرحيته هذه. وفـــي الحقيقة توائم الأوصـاف الشكسبيرية الأخرى الإليوتية. فشكسبير يقول:

الرجال الجوف

هم مثل الخيل الناري فـي الظاهر:

مظهر رائع

يعلن عن النار.

لكن أعطها مهمازاً،

سترى كيف

يسقط هذا الحيوان

مثل حصانٍ عجوز. (هذه ترجمتي أيضاً).

لا أظن أن تأثيرات مباشرة فـي تكوين شخصية الفطحل جاءت من الأدب الروســـي لكن من الصـــعـب أن نطرد هنـا بعض الروائح

التشيخوفية والغوغولية خاصةً. المهم أنها لم تترك بصماتها اللحوحة على أصالة "الفطحل". لكن هل بقي هناك كلام عن التأثيرات؟

أكيد أنها مسالة مفتوحة. إذ لا شيء أصيل تماماً في الأدب والخلق الفني عامةً بل في كل خلق.

في الختام لا بد من التنبيه إلى نفور زهير شليبة من الأقنعة ونرفزته مما نسميه في العراق ب"الكلام المصفّط". وواضح أنه لا يلجأ هنا إلى أيّ قانون للسرد الأدبي سواءً أكان تقليديّاً أو"محدّثاً".

كما بوسعي القول إن "فطحله" قد مدَّ جذوره في أكثر من تربة. ولو كنت ناقداً متفرغاً أو أفخر بمؤهلات نقدية ما، لأخذتُ بالبحث الأكاديمي عن جميع أزمنة وأمكنة هذه الجذور. لكني مجرد قارئ تمتع كثيراً بقراءة "الفطحل" الذي ذكرني بعبقرية الأدب الروسي أيضاً.

لقد قام زهير ياسين شليبة في "الفطحل" بتدوير عدد من عللنا العراقية، (وفي الواقع هي ليست عراقية فقط) ورشَّ خليطاً مدهشاً من توابله عليها!

لقد جاءت "الفطحل"محاولة جريئة لتعرية أكثر من بعد نفسي بل هي، بالأحرى، تعرية لذوي البعد الواحد. وأكرر مرة أخرى تهنئتي للصديق المؤلف على هذا العمل المتميز في حصيلتنا الأدبية.

نيكيوبينغ

15 تشرين الثاني 2005

المقدمة

لا أميل إلى كتابة مقدمات النتاجات الإبداعية ولا قراءتها، فأنا لا أبالي لمثل هذه الأمور ولا أضع أهدافاً أمام القارئ بل أتركه حرّاً في التفكير، مبدعاً في القراءة، متفاعلاً معها ومع سخرية هذه المحاكاة من خلال اللعب بالكلمات وما بين السطور. ولكني مع ذلك أشعر بضرورة توضيح بعض الجوانب الفنية بالذات لكتاب الفطحل.

هذه النصوص هجين من المحاكاة والسرد فهي ليست قصصاً ولا روايةً تقليدية فلا يوجد هنا التزام حَرفي بالأبعاد الثلاثة، بل حكايات اجتماعية ساخرة.

تقترب هذه المحاكاة "بارودي Parody" من بعض أنواع الكتابات الاجتماعية الانتقادية الفاضحة والصحفية الساخرة مثل "فِليتون" مع شيء من الاختلاف. إنها بلا شك عمل سردي طويل بمواصفات غير تقليدية.

وأنا عموماً لا يهمني التصنيف الأكاديمي لهذا الكتاب محاكاة أم رواية أم مجموعة قصص بقدر ما يشغلني رأي القارئ.

صورتُ المجتمعَ العراقي وظواهره الاجتماعية السلبية من خلال أبطال القصص وشخصية الفطحل السطحية المسالمة والآخرين الذين لا هَمَّ لهم غير تهميشه والسخرية منه.

هذا هو موضوع هذه القصص.

محاكاة الفطحل ليست وثائقية مكرّسة لشخص معين حقيقي كما هو المفروض في هذا النوع الأدبي، إذ إن معظم ما فيها من نسج الخيال ومن تجربتي الشخصية والواقع ومما سمعتُ وقرأتُ والتقيتُ وأُلهمتُ. أما قصائد الفطحل فما هي إلا محاكاة ساخرة لبعض ما يُنشر في الصحافة العربية.

هذه المحاكاة الساخرة مكرسة لشخصية نموذج لأولئك الذين يرسمون لأنفسهم أدواراً دونكيشوتية كبيرة فيبدون بهلوانيين، وللطريقة القاسية، العراقية بامتياز في التعامل معه بحيث صارت و بمرور الزمن تتردد بين أوساط المثقفين مصطلحات مثل: بهلوان، طرطور، عبقري، فطحل، طفيلي، مهووس، وإلخ عن أولئك الذين يحبّون الظهور والوصول بأي ثمن وبدون جهود ومعاناة ومثابرة حقيقية.

لا بد من الإشارة إلى أنَّ أغلب أبطال هذه المحاكاة والقصص الأخرى من العراقيين والعرب المقيمين في الخارج ولهذا فإنهم لا يتحدثون بلهجة عراقية خالصة بل خليطة إلى حدٍ ما.

كذلك فإني تقصدت أن أمسكَ العصا من وسطها من خلال تقريب المحكيّة العراقية إلى اللغة العربية المكتوبة كي تكون مفهومة لكل قراء العربية، فاستخدمت يحكي بدلاً من يحجي وقال بدلاً من كَال وهيك أو هيكي بدلاً من هيج أو هيجي ولعدم توفر حرف الجيم الفارسي المستخدم في اللهجة العراقية أصلاً في مفاتيح حروف الكومبيوتر.

أسجّلُ هنا اعتذاري لمحبي اللهجة العراقية.

سبق لي وأن نشرت هذا الكتاب بشكلٍ محدود وعلى مواقع الإنترنت وهأنذا أعيد نشره.

زهير ياسين شليبة

2008 الدَنمَرك

إلـى الشاعر كلاوس ريفبيه

الأول: لم يغيره شئٌ
لم يغير شيئاً
لا مبدأه، لا صاحبه
لا مأكله
لا مشربه
لا مكتبه لا مآدبه
لا إبريقه ولا ريقه

الثاني: غيّر اسمه وبقي جلده

الثالث: غيّرَ اسمه ودهن جلده
ونسي مأكله
لم يداهنْ غيرَ نفسه
بقي أميناً على بريقه

الرابع: غيّرَ اسمه، دهن جلده
ونسي مأكله
وبريقَه
وريقَه
وداهن غيره
وغيّر سيره
ومآدبه

الخامس: غير اسمه، نزع جلده
ونسي مأكله ومأنسه
السادس: تجاوز نفسه
عرف قدره
حاوَرَ غَيرَه
هو الأول والأخير.

1991

الاستباحة

وجدَ نفســه فجأةً يكتبُ. راحَ يكتبُ ويكتبُ هلوســاتٍ شــعريةً. قال لنفسه: "هذا الهذيان يمكن أن يكون بدايةً جميلةً لقصة مليئة بالتداعيات. بداية "جهنمية"! ومع ذلك، ضَــجرَ منها. مزقها كلّها. "كل البدايات"؟ هذه حقًّا عبارة لطيفة. وقال لنفســه لو كنتُ شــاعراً حداثويّاً "فحلاً" من الجهابذة لألقيتُ ما تبقى من هلوساتي الممزقة شعراً:

مزقتُ
كلَّ البداياتِ
إلا بدايتي
إنها أنتِ
يا سيدة العصور
والقصور
والبحور
والدهور.
وراح يدوّنُ البداية.

كان قلقًا فــــي تلك اللّيلة. سمعَ كمّاً هائلاً من الأخبار الزفت كما يقولون، كلّ المحطات ووكالات الأنباء صــــارت تتناقل اســـم بلاده الصغيرة بالسوء. قال لنفسه "الله أكبر، ما بقي بالعالم غير العراق؟".

أراد أن يزيحَ هموم الأخبار من رأســـه. قرر أن يقطع التفكير بها. أغمض عينيه وأدارَ رأسه إلى حيث الجدار والظلام عساه يهرب من الواقع. وكان يشــعر أنه ســيبقى طوال عمره قلقاً. كانت ليلة مليئةً

بالمتاعب والإرهاصـــات. "الإرهاصـــات" هذه طلّعتْ روحه هي والمتشدقون بها، ولكن ماذا عساه أن يفعل بها وبهم؟

مرّت فـــي خياله صورة تلك الفتاة العراقية الشابة، التي عبثت فيها الأيادي القاسية وكانت تضربُها ضرباً مبرحاً أمام عينيه ولم يَقوَ على أيّ فعل. وشعر بالغصّة وهو يراها تُضرب أمام ناظريه دون أن يحرك ساكناً، دون أن يرفع يديه مدافعاً عنها، بقي مكتوف اليدين، كان مكبلاً بالأصفاد لا يقوى على الحراك. تذكّرَ تلك البنت العراقية قابعة تحت الغول، أغمض عينيه متوسلاً الرقاد مودعاً إياها. لم يعد يذكر اسمها لكنه كلما كان يهرب من الهموم اليومية وسِرّ التكوين العراقي يواجه همّها وقلقه العميق عليها. إنها صورة الذل، والهوان، والعدوانية، والاستباحة.

ما هي إلا لحظات حتى ظَهرتْ أمامه صورةُ شابّةٍ أخرى، من هي؟ ليس المهم من هي وما اسمها؟ المهم فـــي الأمر أنها امرأة مقبلة على الحياة، دخلت عليه من الذكريات وحصادها بالصدفة. ذكرى هذه البنت الحلوة لها شـــكلٍ ثانٍ. وراح يدندنُ "شـــكل ثان حبك أنت!". كانت الفتاة طالبة جامعية نرويجية تلبَسُ الأزرقَ الفاتح والأرجواني، تتمايل، توزعُ الابتسامات، سَحَرَتها عينا هذا الشـــاب القادم من بلاد النهرين، حطّتْ على أهدابهما الطويلة كعصفور صغير بلّلَه المطر.

مرت عليه مشـاهد تلك اللّيلة التي قضـاها معها فـــي قطار لينينغراد كالبرق.

كان يســميها ليلة القطار. هذه فتاة كانت تلهو، تلعب مســتأنســة بحياتها وتلك البنت العراقية الحنطاوية مســتباحة، تئن تحت جســد الغول الجاثم على صدرها، أي شعب هذا يتلذذ فـــي ممارسة القبح والدمار؟! أيعقلُ أن تكون هذه الكائنات فـــي هذا التكوين الناري كلها مصابة بهوس القهر والطغيان؟

كان أحد معارفه يحدّثه عن رجلٍ، عاش حياةً مأساويةً. كان محدثه يحكي له هامساً، متلفتاً يساراً ويميناً بين الفينة والأخرى خوفاً من أن يتنصت إليه أحدٌ ما كأنه يتصور أن للحيطان آذاناً وكان يقولُ شاعراً بتأنيب الضمير:

- "أستغفرُ الله، أستغفرُ الله، الله لا يجعلها غيبة، إن بعض الظن إثم"، يعني باختصار كان هذا الرجل، الذي أحكي لك عنه الآن يلتقي زوجةَ صديقه ليلاً. كان صديق العائلة هذا يعيش في بيتٍ واحدٍ معهم. وكان يسكن في الغرفة الصغيرة المظلمة بينما كانت العائلة تسكنُ في الغرفة المجاورة.

كانت الزوجة العاشقة تتسلل إلى عشيقها من فراشها ماشيةً على أطراف أصابعها، بالضبط مثل بطلة "الأحمر والأسود" ونساء القصص الرومانسية.

- لا، بَسْ عاد هذا خيال زوجها وشكوكه لا أكثر ولا أقل. الرجل كان صديق العائلة وهو مناضل سياسي محترف رجل وطني وقومي ومختفٍ عندهم، هذا رفيقه ومو من النوع اللّي يمكن أن يخونه، وزوجته معروفة بطيبتها وإخلاصها، يكفي عاد الطعن والشك.

هكذا اعترضَ على كلامه بطريقة لا تخلو من السذاجة. ردَّ عليه محدّثه وعيناه تبحلقان فيه مؤكداً:

- أي كلام هذا؟ شكوك؟ أقول لك مَسَكَها مَسكَ اليد.

ثم أردفَ متراجعاً وهو ينفخ دخان سيجارته:

- **لا، هو في** الحقيقة لم يكشفها بالفعل، أقصد لم يمسكها متلبّسةً بالجريمة كما يقول أهل القانون. اسمعْ القصة باختصار شديد وأرجوك لا تقاطعني:

في إحدى اللّيالي كان الزوج نائماً، قامت زوجته من فراشها، فتحت الباب، فَزَّ من نومه كما لو أنه وُخِزَ بإبرةٍ، صرخ بها:

- وين رايحه؟

- أروح أسأل جارتنا عن حبوب صداع، ما أقدر أنام،...صداع..

أجابته فـــي لهجة يبدو عليها التعب. عادت بعد لحظات، قالت له إنها لَمْ تَجِدْ الحبوبَ. نامت الزوجة وبقي الزوج يعاني من الأرق وبَلوى القلق.

فـــي اليوم التالي حَدَّثَ الزوجُ المصدومُ صديقاً آخرَ له عن الأمر، قالَ له صـــديقُه "العبقري": كان المفروض أن تتظاهر بالنوم حتى تكتشف سرَّها بنفسك وتقطع الشك باليقين.

حَبلُ الكذبِ قصـــيرٌ، لَمْ تَدُمْ اللعبةُ طويلاً حتى اكتشـــفها زوجُها، حسـب أقاويل الناس. صُـدم بَعلُها بهذه "الخيانة الزوجية" المزعومة واحتار للأمر هل يقتلها ويغسل عاره أم يكتفي بطلاقها.

نصحه صديقٌ آخرٌ له بأن يتريث، لم يسمع كلامه طبعاً وصار يردد قائلاً لنفســه "أي تريث هذا؟ هذه الأمور لا تحتاج إلى انتظار وفلســفة وتفكير، أي كلام ســخيف هذا؟ بالعكس لازم أتخذ القرار وآني راســي حار ودمّي فاير، "أُطرُقْ الحديدَ وهو ســاخن!"، لازم أصدّق مشاعري وأحاسيسي وأثق بها، وأبت بالموضوع، حتى لو كنت متهوراً".

طَلّقَ هذا الرجل العصبي شريكةَ حياتِه على الفور! لم يقتلها ولم يغسل عارَه كما جرت العادة، بل تركها فـــي الحضيض وسط الشائعات والسمعة السيئة أو في أسفل السافلين كما يقال!

ودارت الأيام دورتَها، ثم قيل إنها قُتلتْ في ليلة زفافها إلى عريسها الثاني، كان المشهد مروعاً، دَوّتْ صرخَتُها عالياً بأذنه، استيقظَ من نومه العميق، وَجَدَ نَفسَه وحيداً فـــي الظلمة الحالكة ما عدا تلك النائمة إلى جنبه.

إذن كان كلُّ ذلك حلماً أو بالأحرى كابوساً.

زوجته ترقد إلى جنبه! فرح للأمر، فهي ســليمة لم تُمس بأذى، إنها جنبه. تذكّرَ أغنية "تعالي جنبي، تعالي جنبي!". ابتسم.

تَمتَمَ بين نفسه "راح تبقى طول عمرك سخيفاً. استمر، احكِ قصتَك، التي بدأتها عن "الخائنة"، القتيلة في عرسها الثاني".

كانت زوجته تغط في نومٍ عميقٍ عندما فَزّ مِنَ الرقاد وكان الغطاء منحسراً قليلاً عنها، أراد أن يأتي بجهاز التسجيل ليسجل شخيرَها لكنه عدل عن فكرته وتراجعَ مركزاً كلّ اهتمامه على مشاهد قصة قتل العروسة.

فكر بأن تسجيل الشخير لن يجدي نفعاً ولن يقلل منه ولن يحيدها عن التراجع قيد أنملة أو التنازل والرفض، وستبقى تنكر أنها تشخر. فكّرَ بالموضوع وهو لا يزال ممدداً في فراشه.

وعاد إلى ديدنه، أراد أن يتذكر العروس المقتولة، كيف حدثت الجريمة؟ تراءت في مخيلته صورة السكين، ذات النصل العميق، يَلمع، يُغرس ثم يُستل، فتتساقط القطرات الحمراء. قال لنفسه متسائلاً "أهو العراق هذا الدم المراق؟".

وقف محتاراً أمام تشابك الأفكار وتقاطع الصور. نسي ما أراد أن يقول، ضاع في دهاليز الذكريات ومشاهد الأحلام. تناول قلمه ودفتره وبدأ الكتابة. كتب حتى اشتبكت الأحداث واختلطت عليه الأمور. شعر بالتعب، والصعوبة، والتأزم والإحباط. ورغبة الحركة، نهض من فراشه.

قال لنفسه: "أريدُ أن أسترجع كلَّ شيء في الرؤيا، لازم أعرف الحقيقة، كل الصور بلا استثناء، أريد أن أستمتع باستعادتها. راح أحاول أن أحكي المقاطع وأنا أمشي. أعتقد أن هذا أفضل لي وأسهل حتى أتابع سَيْرَ الأحداث". ثم تمتم هامساً "لازم أحل لغز التكوين العراقي، هذه حفلتي اليوم. هذه هي طقوسي الاحتفالية العراقية. هذا هو السر العراقي".

بقي لوهلة واقفاً وسط الغرفة. سمع صوتاً آخر يهمس في أذنيه: "طيب، طيب توكّل على الله، ولكن بالله عليك لا تخلط علينا الأمور

والأوراق والقصص والمشاهد، الله يخليك لا "تكسِّر" رؤوسنا، نحن لا نركز".

أخذ يروح ويجيء في الغرفة محدّثاً نفسه بصوتٍ يكاد يُسمع:

"لأبدأ يا سيدي الحكي بوصف الصراخ، لا، لا، ما أتذكر ما أتذكر، ليش؟ ليش؟ ليش ما أذكر الصور الجهنمية والصراخ الغريب وبالمناسبة أنا لا أذكر لغةَ هذه المرأة العروس. هذا أمر عجيب، لم أعد أتذكر بأية لغة كانت القتيلة تحكي. ولكن هذا غير مهم عندي الآن. المهم هي إنسانة عراقية قبل كل شيء. هل هناك في هذا العالم الشقي أكثر أهمية من المخلوقة العراقية وصوتها الرهيف الحزين؟".

وكانت هناك سلة جميلة وقديمة تشبه تلك التي كانت جدتي تستخدمها للتسوق، كنت أقول لها مازحاً: سلّتك العراقية عمرها آلاف السنين، تبتسم، أقولُ لها موضحًا:

- بيبي هذي السلّه الّلي على رأسك عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

لم تفهم جدتي كلامي ولا مغزاه لكنها تبتسم ضاغطة على لثتين فارغتين من الأسنان زامّة شفتيها اللتين صارتا سوداوين بعد أن بلغت من العمر عتيّاً. كانت السلّة مليئةً بالفواكه، كانت هناك رمانة كبيرة ناضجة، متضرجة بالحمرة، "مُفَدَّعَة" كما كانت جدتي لأمي تقول، أي مفتوحة، كأن الرمانة تناديك: تعال وكُلني، فأنا لك والخضروات تفوح منها رائحة عبقة، وهل هناك أروع من رائحة الجرجير والكزبر أو القسبر كما يسميه أهل شمال أفريقيا.

كلما أرى الخضروات الطازجة أتذكر شمال أفريقيا فأستميحك العذر من هذه الانتقالات أو التداعيات، وإلخ من المصطلحات اللوجستية و"الجيوفيزيائيه".

تضحك من "الجيوفيزيائيه"؟ الظاهر هذا المصطلح ما دخل بمزاجك؟ طبعاً لا، فأين الجيوبوليتيك أوالجيوفيزيائية من الجرجير،

وهل هناك أروع من قولهم عنه وأجمله: "لو عرفتْ المرأة ما فـــــي الجرجير لزرعته تحت السـرير"، قال ذلك لنفسـه مبتسـماً لكنه أردف متمتماً بحزنٍ "لكن هذا سـرير شـمال أفريقي موعراقي تعشـعش تحته هموم الدنيا كلها وقهرها".

على أية حال لا أريد أن أدخلَ فـــي تفصيلات الأحزان العراقية وشمال أفريقيا ولاجنوبها ولا نِلسِن مانديلا. لكني بدأت أتذكر الحلمَ، أها، دعني أتذكر اللقطات:

كانت السـلةُ مليئةً بباقات الفجل الأبيض، ها، ليس الأمر كذلك، لم يكن الفجل أبيض، بل كان فـــي النظرة الأولى يبدو أحمرَ قانياً ثم تغيّر لونه، إلى الأبيض، "الأحمر والاّ الأبيض وإلاّ اللّيموني؟".

أما القطرات فكنتُ أُلاحظها بعيني "أين من عينيّ هاتيك اللّيالي يا عروس البحر يا حلم الخيالِ" كبقعٍ واضـحةٍ على الفجل الأبيض، ولم أذكر أني لاحظتُ أي بقعٍ حمراء على الفجل الأحمر!!

- وهل يعقل أن يرى الانسـان بقعاً حمراءَ على اللون الأحمر؟ أنت فعلاً عقلك خفيف، ترلّلي! طباگاة! كما يقولون بالعراقية.

- طبعاً عقلي ترللي، لو كنتُ عاقلاً كان ما قعدت وإياك وقدّرتك واحترمتك وحكيت لك هذه المشاهد الرهيبة لأنك مو بهذا المستوى السـردي! لا تقطع حبل أفكاري، مشـكلتك أنك غير معتاد على هذا النوع من الحكي. أنت مسـتواك ضـعيف وتريد أشـياء واضـحة وبَسيطة وتقليدية وروتينية وساذجة.

أنا قلت لك من البداية إني أتلذذ وأسـتمتع باسـترجاع اللقطات والأحداث والانتقالات ولا أريد أن أقدمها لك دفعة واحدة، وأتمنى أن تشاركني استمتاعي وفرحي، بل احتفالي بهذه الاكتشافات والإمساك بخيوط الأحداث، أريدك أن تتفاعل معي وتلقف أفكاري وهي طايرة، بل تقرأ الممحى مثل ما يقولون، يجب أن تكون فطناً و"هابْ ريح" على قولة العراقيين، واستمع لبقية القصة بتأنٍّ وتركيز.

كانت السلة موضوعة على بلاط موزائيك أبيض يبدو وكأنه مرصّع ببقعٍ سوداء متفرقة، كوّنت القطرات الحمراء شكلاً فنياً.

وأذكرُ أيضاً أنَّ بنتاً شابةً شهيةً، طيبةً، تشبه الرمانة في السلة قد طلّتْ على الدار وغطّى محياها الجو كله. كانت وجنتاها تشبه الرمانة، ورديةً محمّرة، محياها متشح بخجلٍ أرجواني، كانت ناعمةَ الملمس "هزّي يا نواعم شعرك الحرير"، خفيفة الظل، نحيفة الجسم، رشيقته، ناحلة الوجه، مفتوحة الشهية. يا سيدي، تدخلُ البنتُ البيتَ... هي بعينها تدخل البيت...تفتح الباب بنفسها، نعم تفتح باب الحديقة بنفسها.

تسير البنت الجميلة على رصيف الحديقة الجانبية حافيةً متمايلةً، "كأن مشيتَها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل"، تنوّرة ملونة بالأحمر والأرجواني والأصفر والأخضر والأسود، مزركشة، صيفية، كلوش فوق الركبة قليلاً.

كانت تمشي حافية القدمين على الأرض الإسمنتية وكان الرصيف مبللاً قليلاً في بعض الأماكن، طبعات الأصابع وآثار القدمين على الأرض الإسمنتية يزيد اللوحة جمالاً.

توقفتْ البنت الحلوة قليلاً عند شتلات ورد الجوري، اقتطفتْ وردةً حمراء، شمّتها قليلاً. فتحتْ الباب الآخر مناديةً بصوتٍ فيه بحة مسرحية:

- أهل البيت! أهل البيت!

آه انقطعَ الشريط، لم أعد أتذكر، لكن أعتقد من الأفضل أن أترك الكلام وألجأ إلى الكتابة فيما بعد حالما يأتيني المزاج وتنطلق بي أجنحته إلى الفضاء الواسع. دعني آخذ استراحةً قصيرةً. أجل سأترك الحكي هذه المرة. لا بد لي من استراحة قصيرة.

بعد دقائق بدأ الكتابة، عسى ولعلّه ينهيها ويخلصنا وينقذ نفسه من هذه الورطة التي أوقعها والآخرين فيها، قال له مستمِعُهُ:

- بَسْ، رجاءً لا تحط بهارات كثيرة، يعني باختصار لا تكذب، ولا

يغرّك قولهم "أكذبُهُ أصدقُهُ"!

- لا، أبداً، وأرجوك لا تقاطعني كثير وتزيد آلامي، وإرهاصـــاتي ولو أنا أعرفك ما تحب كلمة "إرهاصات".

والآن اسمعْ بقية القصة:

المهم يا سيدي هو: أذكر أني رأيتُ سلحفاةً ولم أعد أتذكر القطرات ولكن لا علاقة لهذه بتلك الحيوانة التي كنت أربّيها وأهتم بها فـي بيتي. ماتت الزاحفة وصـاحب البيت الذي تقيم فيه وما فـــــي اليد ولا حتى الرِجْل حيلة.

كان الرسام الشاب نحيفَ الجسم، أطول قليلاً منها، خفيف الشعر، كث الشاربين، صغير الوجه، تبدو عليه المعاناة والوجد والوَلَه والقلق على المصـير العراقي، أصـفر"مصـفرچ"، يرتدي فانيلة صـفراء وبجامة زرقاء سادة "بلا سُكّر"، كانت عيناه تقولان لها: تعالي عيني هنا، تعالي دادا هنا، هذا إشـــلون خير إجانه! يا هلا ومرحبا بالغِيّاب طـابت والله جيّتكم، "مَرحَـبْ يـا هَلَـه بـالغِيّـاب طـالـت والله غيبتكم!" باختصار يعني: ترحيب حار!

- وين سعاد؟

وأردفت قبل أن تسمع الجواب مبتسمةً متسائلةً بتودد ممسكة وردة الجوري بيديها وفـي عينيها فضول؟

- كنت ترسم؟

- إي، مثل ما تشـوفين دا أرسـم، سـعاد راحت هي وأمي للسـوق مرة ثانية. أمي نســـت تشـــتري لها قطعة قماش للبدلة...دا أرســـم أو بالأحرى أجري أو أسوّي تخطيطات.

لمعت عيناها بفضـول عندما سمعت عن القماش والبدلة. زَمَّ شفتيه محركاً يديه بإشارات يصعب تفسيرها وكأنه يقولُ لها: لا أدري كيف يجب أن أتصرف معك؟ ماذا أفعل لكَ وبِكَ؟

قبل أن تخرجَ الجارةُ الشـابةُ الجميلة من البيت اتجهت إلى الزاوية حيث سلة الخضروات، نَظرتْ إليها، رفعت رأسها عالياً، تطلعتْ إلى اللوحة المعلقة على الحائط، نعم، كانت هناك لوحة بونارامية قوية معبّرة، فيها أجساد بشرية نحيفة ترتدي ملابِسَ ممزقةً ووجوه ناحلة ناتئة العظام بينهم فتاة في مقتبل العمر، لم يعد هناك شيء من ملابسِها المتهرئة يستر جسدَها، كانت نظراتُ الشرطة مصوبة نحو صدرها العاري، تتعرض للضرب بسياط خيّالة يقفون حول هذه الكومة البشرية العراقية، ثم أدارت البنتُ الشابةُ الجميلةُ وجهَها إليه، التقت نظراتهما. شعر بدفئها، تشجع قليلاً متسائلاً بتوسل:

- تحبين أرسمك إلى أن ترجع سعاد من السوق؟ ما عندِكْ مانِع أعملْ لكِ تخطيطات بينما تجئ سعاد، وأمي، ها، شنو رأيك؟

قال عبارتَه الأخيرة في حركة فنية راقصة، ابتسمتْ الحلوة، اقتربَ منها قليلاً، كثيراً، كثيراً، انقطعَ كل شئ، أجّلَ كل شيء، الصِلات، العلاقات، لم يَعدْ يذكر غير جذور الفجل الأبيض الذي تحول إلى أحمر واختفت القطرات.

تَركَ القلمَ والورقةَ. دوّنَ كل ما خزنته ذاكرته، كلّ ما يعتقد أن ما فيها من هراء يصلح للتدوين! "عبقري، فطحل زمانك!"، قال لنفسه: "أنت طول عمرك تدوّنُ وتدوّنُ ولكن ما مِن فائدة تُرجى منك. سبع صنايع والبخت ضائع!" ثم اردفَ مبرراً مواسياً لحاله، مؤازراً لنفسه: "شنو أسوّي؟ لا أمي فنانة مشهورة ولا هي فرنسية ولا أبي إنجليزي أو من هذه الأصول الغربية، ولا عمّي سمسار محطات تِلِفزيونية فضائية ولا صحفي ولا مخرج سينمائي أو تِلِفزيوني ولا خالي يمسح أكتاف! هؤلاء كلهم مطاردون "معثّرون" كما يقول أخواننا الشوام، يعني بالأصل وكما أعتقد معثرون، يعني يعثرون في كل خطوة يقدمون عليها، هاربون، قابعون، خائفون، لائذون!! هذا الموجود. إذا كان يعجبك فأهلاً وسهلاً وإذا ما يعجبك فالباب توسع جمل!"

شَـعَرَ بشـيء من الانزعاج والإحباط لكن ليس الكآبة ولا اليأس، رجع إلى فراشـه، أراد أن ينام. كانت زوجته لا تزال تغط فـي نومٍ عميق، مستمرة فـي شخيرها، أطفأ النور الخافت، حاول أن ينامَ، دون جدوى!

ثم جرّبَ مرة أخرى أن يسـتسـلم إلى الرقاد على أنغام الشـخير. أغمضَ عينيه. ضايقته كثرة الصور والأفكار فـي رأسه.

تَعبَ منها، وَدَّ لو يتخلصَ منها. وضـعَ قطعةَ قماشٍ سـوداء على عينيه، علَّه يتخلص من الأرق والقلق واللقطات والفلاش باك لكن بلا فائدة. صـورٌ أخرى كثيرة انهمرت عليه مثل زخات المطر الغزير وحوارات وهلوسات. قال لنفسـه "لو كنتُ شـاعراً عبقريّاً، فحلاً لقلتها شعراً متأثراً بما يُنشر فـي هذه الأيام".

فـي الّليل، حين ينامُ البشر
والطيور والشجر
تستيقظُ الهموم
ويطغى الضجر
تَبثُّ عليك السموم
ويُخيّمُ الوجوم
وسطَ واحةِ العمر

حَدَّثَ نفسَه قائلا: "دَعْكَ من الهَلْوَساتِ الآن وعُدْ إلى دَيْدَنكَ الأول، عُد إلى رُشدك وأكمِلْ قصَّتَك أو احتفاليتَك كما يحلو لك القول".

تذكّرَ خيوطَ القصـة. عاد إلى نفسـه مرةً أخرى، علّه يتذكر شيئاً من الكابوس، رفعَ جَسـدَه متكئاً على الوسـادة والحائط باقياً فـي فراشـه الدافـئ، بدأ يكتب من جديد بقلم ذي لون آخر.

ألقى نظرةً على أوراقه ونصـوصـه، راقت له فوضـى الكتابة بخط اليـد وكثرة الملحوظـات والهوامش والإضـافـات بمختلف الألوان،

الأحمر والأزرق والأخضـــر، وانزعج قليلاً من فكرة زوال كلِّ هذا التنوع الموزائيكي و"الاحتفال اللوني" فـي النص الكومبيوتري.

- نعم، تذكرتُ، كانت البنتُ تبكي، دخلتْ البنتُ بيتَها باكيةً.

- يـا أخي لا تُهَبّطْ قلوبنـا، من هي الّلي تبكي هذه؟ وثم مـاذا؟ "طُظ أو طز فيها هي وأميركا، والشعب العربي عرف طريقه"!

- اصـغ لي أيها الغبي المتعجل، ولا تتسـرع يا أهوج، دعني أكتب لك ما قد تعتبره ثرثرةً، وإن كنتَ تعدّ كلامي مجرد هراء فما عليك إلا الاسـتماع بتركيز وقراءة الممحي وما بين السـطور، فأنا أعني ما أقول ومـا أكتـب. ألم تقلْ لي أكثر من مرة إنك تقرأ الممحي؟ يَلّـه راويني شطارتك! عليك أن تتيقن بأن ما تقرأه وتسمعه فعلاً ثرثرة أم لا. عندها يمكن لك أن تقرر التواصـــل معي أو الكف عن ذلك. والآن الله يخليك أُتركني لحالي أعبّر عمّا فـــي دواخلي من هموم، صدقني أنت لم تفهم بعد حجم الكارثة والمستنقع الذي نخوض فيه، فاتركني الله يخليك أصوّر المأساة:

- يبدو أن أمها ســـألتها عن ســـبب بكائها، ولم تُجبْ البنت. لاحظَ أنه يضعُ النقاطَ والحركات ِعلى الحروف لكي يفهمه بعض الأغنياء، العفو أقصد الأغبياء. خطأ مطبعي كومبيوتري ليس إلا.

- يبدو عليك انزعجت من كلمة الأغبياء. وبالمناســبة كلا الأخوين ضــرّاط. معليش لا تزعل ولا تأخذ على نفســك فأنت لا غني ولا غبي. لازم عليك أن تحكّم عقلك. وهل من المعقول أن تُفصحَ البنت بصراحة عن سبب بكائها وخاصةً عندما يكون ذلك فـي الحلم؟

- أجبتني ببلاهتك المعهودة:

- الله أعلم ماذا حدث لها، كل شـئ معقول فـــي هذه الدنيا. فعلاً، "كل شـيء معقول" كما يقول المغني الكويتي البلوشـي. صـعدتْ البنتُ إلى غرفتها فـــي الطابق العلوي. أرسلتْ الأمُّ ابنتَها الكبرى لتفهم وضعَ أختِها الصغيرة، سألت الكبرى أختَها النائحةَ:

- شنو صار بيكِ يا بنت؟

لم تسمع البنتُ الكبرى منها شيئاً غير العويل ولَمْ ترَ غير الدموع ونزلت خائبةً. فَقدتْ الأمُّ صوابَها. يا ترى ماذا حدث لهذه البنت؟ علم الأب بالأمر. عُقدتْ مشاورات ومباحثات ومداولات بل بروتوكولات بين الوالدين.

فَكّرَ الأبُ مليّاً بأن يعرضَ ابنتَه على الطبيب. أخذت الأم تصرخ بالبنت وتزعق بها، شَهرتْ عليها السكينَ مهددةً إياها بالقتل غسلاً للعار إن لم تخبرها عن سبب بكائها أثناءَ نومِها. أرادت الوالدة أن تعرف سرَّ الحلم.

- قولي لي! أكو شيء؟ صار بيج شيء، يعني شيء خطير؟

شَعَرَ الأبُ بغصّة عميقة، تألم كثيراً لأمرٍ خطيرٍ، قد يكون حدث لابنته. فكّرَ بشرف العائلة. لكن هل يمكن للأمور الخطيرة أن تحدثَ في الأحلام؟

يا إلهي، حتى الحلم ممنوع علينا، حتى الحلم لم يخلص منّا نحن العراقيين!

وسمع صراخ زوجته ونحيب ابنته الصغيرة. تحول الصراخ إلى عراك ونحيب وعويل، بل وَلوَلَة وندب ولطم الصدور. تَوقَّفَ كلُّ شيء.

انقطعَ المشهد. لم يعد هناك شيء يتذكره. اختفت الأم والسكين وابنتاها ولا يزال الوالدُ محتضناً ابنته الصغرى الثالثة. تألم لانقطاع المَشاهد.

كان مندمجاً به، متماهياً مع روحه في ذلك العالم، مفكراً في خوف الأم على ابنتها مما شاهدته في المنام.

تريدُ الأم أن تعلمَ كلَّ خصوصيّات ابنتها وتفصيلاتها مهما صغرت حتى حلمها على قاعدة "الولد وما ملك لأبيه".

أيُّ أم حديدية هذه؟! بل أيُّ خَواءٍ هذا الذي يعيش فيه هؤلاء البشر؟

وتذكّرَ أحدَ المرضى النفسيين مِن القادمين من بلاد النفط والحرب والدمار، سأله ذاتَ مرّةٍ:

- إشلون الوضع في البلد؟

أجابه يائساً:

- إشلون يكون يعني؟ بلد نفطي وقائد عِفطي! واحد زمال، مخبّل، حتى النغل يريد يعرف أصلَه وعندك الحساب، هذا وضعنا.

ثم أردف قائلاً ضاحكاً بحسرة:

- تريد الصدق؟ جماعتنه كلهم زمايل ومخابيل، كلهم مسودنين، وهذا الأرعن العِفطي مالنه ما طلع من زرف الحائط، أقدر أقول لك في بيت كل عراقي أكو واحد مثله مدوّخ أهله ويضرب خواته وأخوته الصغار، ويكسر أضوية الشوارع بالمصيدة ويسحل البزازين ويضرب الكلاب "المتعاصصة"! عنف فظيع! نعم يبدو هذه طبيعة عراقية.

تذكّرَ بعضَ تفاصيل الرؤيا، بل الكابوس، نَهضَ من فراشه مرة أخرى، حرّك جسمَه حركاتٍ رياضيةً، جال بناظريه في الغرفة، تحركَ في أرجاء بيته. غَسَلَ وَجهَهُ بماء بارد، شغّل التلفاز، توجّه إلى محطة السي أن أن، قرأ الأخبار المكتوبة بالإنجليزية علّه يجد خبراً مفرحاً عن بلاده العِفطية كما يقول ذلك المريض نفسياً.

عاد مرة أخرى إلى فراشه، تناولَ القلم وراح يعاود التدوين! بقلم آخر ذي لون مختلف. سمعَ صوتاً يقول له متهكماً:

- أي تدوين هذا بابا، يا...الظاهر بدأت تتفلسف وتتصور كل ما تكتبه من خرابيط تدوينات؟ "إشْكولْ إشْكولْ ورد الباقلاء!!".

- ليش هذا الانتقاص من ورد الباقلاء؟ هذه شنو موقعها من الإعراب؟ ومَنْ سيفهمها غير العراقيين الشعبيين، وبالمناسبة أنا أستغرب

السخرية من الناس من خلال تشبيههم بوردِ الباقلاء! والله هذا تشبيه مضحك يذكرني بالمثل العراقي: "هَمْ عاجب الذبّان يفسي"وكأن الفسو محلّل للبشر ومحرّم على الذباب. أليست هي حاجة بيولوجية؟

يا رجل، الاضطهاد والانتقاص من الآخرين ونفيهم، من طبيعتنا نحن العراقيين لا أكثر ولا أقل. أرجوك دعني أدوّن اللحظة الجوهرية لمجتمعنا، دعني أعمل ذلك وإلا سأموت، لا تقاطعني!

أنا شخصيّاً نصيّاً بخصيّاً مخصيّاً لا أفهم معنى هذا التشبيه، وانتَ، هل عرفتَ سبب إلصاق ورد الباقلاء في التشبيه السلبي؟!

- انت تقلّد، إذا كنت تسأل بجد فأقول لك: المعنى في قلب الشاعر!

المهم ما في الأمر أنه أعادَ الكَرّةَ، وأخذ القلمَ وبدأ بتسجيل الصورة أو الهرطقة الأخيرة من حياته كما يقول، لكن لماذا حياته؟ هو نفسه لا يدري لماذا ولكن لا بأس، لِنَرَ كيف سيستمر في الكتابة، لكن كل المحاولات باءت بالفشل وعادت قواعده إلى قواته سالمة، أقصد العكس.

عادَ إلى فراشه مرة أخرى آملاً في أن "جيوش النعاس ستغلبه هذه المرة". ما هي إلا لحظات حتى بدأ يطلق أصواتاً مثل "خوووو" يعني شخير واختلطت مع أنغام زوجته ونامَ على هذه السمفونية حتى الفجر.

في الصباح، استيقظَ والحمد لله كان لا يزال حيّاً، تذكّرَ صديقه الرياضي أندريه، كان مَثَلَهُ الأعلى، في الكلام، كان يقولُ عنه إنه يحب الرياضة، يلعب كرة القدم والبوكر ويركض عند انبلاج الفجر.

فكّر أن يقلّدَ أندريه، لكنه قرر أن يذهب إلى الشارع، حاول أن يجبر نفسه على ارتداء ملابِس الرياضة، لم يحصل شيء من هذا.

خرجَ إلى الشارع، كان الطريق "يصوصي"، لم يكن هناك أحد غيره وامرأة تنظف الدروب، ألقت عليه التحية مبتسمةً ابتسامة الصباح:

- صباح الخير!

قالتها مشدّدةً على مخارج الحروف بدون أن تنظر إليه، قال لنفسه "لعلها تريد من يشـــدد على مخارجها"، ثم أردفَ متمتما عاتبا على نفسه "شوف بالله إشلون أفكار سخيفه وسقيمه عندك، العقل السخيف فـــــي الجســم الســخيف". نظراتُها غنّتْ له مقطعاً من أغنية ناظم الغزالي: "لا آني مجنونه ولا عقلي خفيف".

وبينما كان يستمتع بجولته الصباحية، يمشي محاوراً نفسه كعادته، تذكر مشهداً مهمّاً آخرَ من الرؤيا. عاد الى البيت بِسرعه البرق. مَسَكَ القلمَ والورقةَ وواصلَ الكتابةَ:

أية عجوز هذه؟ إنها ليســت امرأة كبيرة فـــــي الســن كما كنت أتصورها أو بالأحرى كما بدت لي فـــي اللقاء الأول، إنها تبدو الآن شابه تغني بحزن، لا، لا، إنها تبكي، هؤلاء العراقيون فاقوا كلّ الأقوام فــي أحزانهم، إنهم مخلوقات بشرية نائحة خارقة للعادة، هؤلاء يغنّون حزنـاً، النواح والغنـاء واللطم والنحيب والندب والعويل عندهم مثل الســلاطه والحلويات والمكسّـرات، العراقيون يسـتلهمون ألحانَهم من نَفسِ الجذور، قال لنفسه مواسياً "لكن ما دخلي أنا فـي الموضوع، إنها أم الفتاة الاولى التي كانت تنحبُ، بالله لا أعرف اسـمها ولا أتذكرها، يـا إلهي، إنهـا بدأت تمزق لو حتي المعلقة على الحـائط، أفنيتُ أجمل ساعات عمري ولحظاتي الشعرية من أجل إعادة خلق العالم من جديد.

لا بد أني سأواجه مهمة الانتحار والخلاص من هذا العالم بعد الذي حصــل من إهاناتٍ للكون الفني الجديد الذي ذبت فيه. لوحتي الجميلة، لوحتي المعبرة، منعتها الرقابة، وتمزّقها اليوم امرأة مخبولة مهووسـة ببكارة ابنتها، أي جنون هذا؟ بل أي طغيان هذا؟

قالت لي هذه الأم المعتوهة إني أفســدتُ ابنتَها، لوحتي فيها ملامح جنســية، هي طبعا لم تقل كلمة ملامح، هذه واحدة مجنونة لا تعرف مثل هذه التعابير لكنها قالت بالحرف الواحد: انت واحد عاق ترســم بنت شـابة مصـلّخة بدون ملابِس، خرّبتَ عقل بنتي الله لا يسـامحك، أدخلتَ أشياءً فاسدةً فـي مخّها، بل فـي كلِّ رأسها و فـي أجزاء أخرى

من جسدها وهذا هو سبب بكائِها فـــي الحلم. قاطعتها متسائلا: ألا يحق لها أن تحلم؟

صـــفعتني، بل لطمتني لطمة بقي رنينها فـــــي أذني لمدة طويلة، ذكرتني بتلك الضربة التي تلقيتها على يد رجل الأمن فـــي شبابي. ماذا فعلتُ فـــي ذلك الحين؟ ولِمَ هذه الصفعة؟ لم أعد أتذكر الأسباب، لكنها بالتأكيد ليست أخطر من المطالبة بحقي فـي الحلم مجانا.

نحن شـعب عريق، مولَع بالصـفعات، حِكمَتُه المرفوعةُ ليلا نهارا: اضربْ أخاك ظالما أو مظلوما. أو اصفعْ حتى يرهبك الآخرون.

المهم ما فـــي القصة كلها هو أنا الفنان الحساس هنا وما الكون من حولي إلا إرهاصـــات. الكون كَوْنِي وأنا كَوْوون شـــاعرريري! وهذا طبعا لا يريده الآخرون. راقت له عبارة "الكون كوني" وصار يرددها ملحنا إياها ململما شفتيه كما يفعل المغنون الرومانتيكيون:

الكون كوني، الكون كوني،

وأنا وأنا وأنا وأنا

كَووونٌ شاعري،

وأنا كَووونٌ شاعري ي ي!

هؤلاء الناس مهووسون بهواية الاستباحة ومصادرة الآخرين.

قلتُ لهذه الأم الجبروت:

- هذه رؤية جديدة للكون يا رجل، عفواً أقصـــد يا امرأة، هي تكوين خلاق وإبداعي للعالم، إي، نعم، هي تكويني الخاص بي، ثم آني عمري ما أذَيت أي واحد، وأقولها لك بالعربي الفصـــيح أنا لَمْ أؤذِ ابنتك، لماذا هذه العدوانية منكِ؟ بدأتِ تعتدين عليّ، بالله عليك اتركيني لحالي.

لكن دون جدوى، صارت هذه المرأة أكثر مرارةً وشراسةً وأصعب مراساً، تحولت الأم إلى قطة، نمرة، لبوة جائعة، كلبة مسعورة، صارت

تخربشـني، تهرشـني، تنهشـني نهشـاً، تعبث بكياني، بدأت تمزقني إرباً إرباً، نالت من ألواني، الأحمر والأزرق والأبيض، حتى الأسود لم يسلم منها.

يا إلهي! إنها تمزق لوحتي من جديد، امرأة شـريرة للغاية، شـرّانية تقدح عيناها بالشرر، شرٌّ هذا أم غضب من الله عليها وأهلها وناسها، يا إلهي ماذا حلّ بهذا القوم؟ نسـاؤهم، يَقطرُ الشـرُّ ورغبةُ الانتقام والدمار من أجسادِهِنَّ، مزّقتْ اللوحةَ، بدأتْ بغرس سكّينٍ فـي صَدر شابّة يافعة برزت مفاتِنُها جرّاء اهتراء ملابسها وسياط الشرطة.

قالت هذه الأم الأفّاقةُ العدوانيّة: "هذا إغواء، هذا يفسد بنتي".

يـا ربي! اللوحـة، حتى اللوحـة لم تَنجُ منهـا مرة ثـانيـة، هشـــمتهـا، كسـرت إطاراتِها صـارت تضـربني بها، إنها خشـبية قوية، من النوع الجيد والغالي، تضـربني هذه المرأة المكلوبة المهووسـة بها، كسَّـرتها على رأســي، كتفي، ماذا ســأقول لهذه النفوس البشــرية الممزقة؟ إنها روحي وكياني فماذا ســأفعل بدونها؟ وهل لي أن أعيش وأتنفس وأفكر بمعزل عنها؟

من أين ســأحصــل على مثيلٍ لها، من أين ســآتي بلحظات التألق والوجد؟ الإطارات تكسرت، تضربني بلوحتي، يا إلهي أية قسوة هذه؟ من أين لكم يا ناس مثل هذه القسـاوة؟ أين المحبة والأخلاق والتسـامح، التي تدَّعونها وتنادون بها صـباحَ مسـاءَ؟ لم يعد لديها شـيء تضـربني به، صالت وجالت فـــي المكان، راحت عيناها تبحث عن شيء تكسر به رأسي، وقعت عيناها أو بالأحرى مقلتاها المجردتان من كلّ إنسانية على ســـلة الخضـــروات الجميلة، أخذت الســـلة بيديها المتورمتين، خزرتني بعينين صـــخريتين وكـانـت أرنبـة أنفهـا ترتجف والعرق يتصبب من صدغيها، تضربني بالسلّه، يا إلهي، آخ رأسي، آخ رأسي، ما علاقة رأســي بالموضــوع؟ طيّب، الله يطوّل عمركِ أتركي رأســي لي وخذي الباقي لك! رأسي قوي أقوى من السلّة، لن أتخلّى عن رأسي رغم الصداع اليومي، رغم الشقيقة، رأسي كياني وشخصيتي، رأسي

صـخرة تتناثر عليه السـلّة والمِلّة، رأسـي عقل مدبّر، رأسـي مهندس إعادة خلق النواح العراقي، تضـــربني هذه العراقية الحديدية باللوحة من جديد! أمي كانت تضــربني بالجَفجير عفواً بالكَفكير الحديدي، أبي كان يضربها بالعصا، أخي الأكبر يضربنا بالصوندا، عفواً بخرطوم المياه حتى تفهم أكثر ويبصـــق علينا، الصـــغار يخنقون القطط أو يســـحلونها بالحبال وآخرون يصـــطادون "أبو بريص" ويكســـرون المصابيح اللّيلية بمصيداتهم اللاستكية، هذه هي دورة العنف العراقي مُصَمَّمَة بدقة منذ آلاف السنين.

لَمْ يَعُدْ فـــي اللوحة شيء يُذكَرُ، أين البنت العراقية الأصيلة الرفيقة الفاضـــلة المناضـــلة العنودة المغتصـــبة؟ أين البنت النرويجية المدلّلَة المرحة؟ أين تلك الزوجة المظلومة المتهمة بالخيانة زوراً؟ أين البنت التي حرموها من حلمها؟ أين تلك التكوينات العراقية البشـــرية القابعة تحت السياط؟ أين خزرات رجال الشرطة وعيونهم المبحلقة؟ لوحتي، آه لوحتي الجميلة كانت تحتوي كل رموز القهر والاســـتباحة. وســـلة الخضـروات، أين هي؟ الرمانة الكبيرة الثقيلة سـقطت على رأسـي، يا الله، هذه تضربني بالسلة مرة أخرى، من أين جاءت إمدادات اِلسلاح؟ عفواً أقصد السِلال؟ آخ، آخ آخ، رأسي يؤلمني، آخ رأسي، يابا رأسي راح ينفججججججر.

أفـاقَ من نومـه، أخبرَ الجميع بمـا جرى، حـدّثهم عن الرؤيـا، عن منامه، عن همومه، نظروا إليه متسائلين بغباء:

- إلى متى تبقى تفكر فـي هذه السخافات؟

لا يثقون بالأحلام فكيف سيفهمون الكَوْوون، يا إلهي؟!

الدَنمَرك، 1990-1994

الكلب والسيدة القتيلة

كان الشابُّ الملتحي يوسفُ يقولُ لنفسه أشياءَ كثيرةً. كانت زوجته تتكلم معه بحدّةٍ، تُوجِّهُ إليه انتقاداتٍ مستمرةً، حاولَ معها كثيراً. لا جَدْوى من ذلك. خرجَ من البيت بعد خِصام. كان لا يبالي بها، يأخذها على "قد عقلها" كما يقول المثل. باختصار قرّر أن يكون حاسماً هذه المرة. ولكن مع مَنْ؟

إنه نفسه لا يعلم فيما إذا كان عليه أن يكون حازماً مع نفسه أو الآخرين. يوسف شاب في الثلاثين من عمره، متفائل، منفتح على الناس، مقبل على الدنيا والحياة والآخرين، يثق بنفسه والبشر وكل من حوله ولا يحمل حقداً أو ضغينةً على أحد، لكنه ليس ساذجاً بل يدقق كل الأمور قبل أن يقدم على عمل شيء ويعاني من الوجد والقلق والحالات النفسية كما كان يكرر قائلاً عن نفسه.

قل أن يحسمَ يوسف أمره وأن يكون له كلام أو يضع النقاط على الحروف كما يقال، قرّرَ أن يخرجَ من البيت إلى الحديقة العامة. لم تكن الحديقة بعيدة عن بنايته السكنية العالية، ما هي إلا لحظات حتى وصلها.

جلس هناك على إحدى المصطبات لفترة من الوقت، شَعَرَ برغبةٍ في التدخين، لم تكن في جيبه سيجارة. تَوجَّهَ نحو أحد الجالسين على المصطبة المقابلة، كان الجالس شيخاً سميناً، ضخم الجثة، يدخن بهدوء.

طَلَبَ يوسف من هذا العجوز سيجارةً. فرحَ الشيخ لقدوم يوسف إليه مقدماً له سيجارة بكل رحابة صدر.

رجعَ يوسف إلى مكانه مدخناً سيجارته بعد أن أشعلها لدى العجوز.

كان مهزوز المشـــاعر، والألم بادٍ على وجهه، لكن ســـرعان ما ابتلعه عالم الذكريات.

عندما تزوجا قبل بضع سنوات كانت زوجته فـــي تلك الأيام ملاكاً بالنســـبة لـه. إنها الحنين إلى تلك الأرض "الطاهرة الزكية البعيدة الطيبه". كانت كوكباً منزّهاً! ابتســم يوســف لهذه العبارة، والآن تغير كل شيء، صارت تصرخ كثيراً. عصبية المزاج.

نهض العجوز من مكانه يمشـــي متثاقلاً بخطى ثابتة نحو يوســف، وقف إلى جانبه، بدأ يحدثه وهو يمسّد لحيته البيضـاء بينما بقي يوسف جالساً فـي مكانه.

قال يوسـف مخاطباً نفسـه "قطع العجوز الأشـعث الشـعر سـلسـلة أفكاري! أيّباه، "سلسلة أفكاره"! هو واحد مثلك عنده سلسلة أفكار؟"، ثم أردف متابعاً وكأنه يدحض ما قاله "حتى ســـلســـلة الأفكار محرّمٌ عليكَ أن تمتلكها، وكأنها ثروة، رأسمال!".

يبدو أن الشيخ تعب من الوقوف على قدميه. قال ليوسف:

- تسمح لي أن أجلس هنا، إلى جنبك.

ابتســم يوســف إليه مشــيراً له بالجلوس متمتماً بين نفســه ســاخراً "زُقزُقْ مرزوق تعالى جنبي، تعالى جنبي!"، كان لا بد لهذا الشـــيخ الأشيب السكير ذي الأنف الأحمر الكبير أن ينطق بشيء، يبدو أنه ملَّ انتظارَ صديق له، اختار يوسفاً جليساً له.

تَمتَمَ يوسف بين نفسه "الله يستر من دوخة الراس وكثرة الحكي"،

بعض المرات، كان يوسف يقول لنفسه "يا ليت لو أقدر أتكلم كثيراً مثل بعض الناس، يمكن يصـير مزاجي أحسـن". حدّثه الشـيخ بعض القصص، لم يشعر يوسف بالرغبة فـــي التجاوب معه، قرّرَ أن يتركه لوحده يعبث بلحيته الكثة. اقترح عليه الشيخ أن يشـتركا فـــي شراء قنينة فودكا بالمناصـفة على الطريقة الروسـية ويشـرباها سـوية، لم

يُعجب الشاب يوسف بالاقتراح ، خشي الإغراء في الوقت نفسه.

هرب من الشيخ وقصصه إلى مكانٍ آخر. احتار يوسف إلى أين سيذهب، إلى أين ستأخذه قدماه. خافَ أن يستمر في المشي إلى ساحل البحر أو التوغل في الغابة فيضيع فيها بعد أن سكن اللّيل. قرر العودة.

"قرار" العودة هذا يتطلب التفكير ويثير العواطف. كانت تتردد في أذنيه ترنيمات من نوع "لا بد أن نعود، لا بد أن نعود". إلى أين نعود لا أحد يعلم.

قال لنفسه "هذه أيضاً أُغنية؟" ثم أردف متمتماً "كلُّ شيء له علاقة بالعودة والحزن والبكاء والحب يمكن أن يكون أغنيةً، مثل "مافيش قلب يحب كثير زي قلب العصافير، بلاش تحب يا قلبي بلاش، بلاش تحب يا قلبي كثير، بلاش بلاش، بلاش تصير زي قلب العصافير" أو مثل: "قلب المحب مِثل قلب السمك" على قولة واحد كان يسخر من قلوب العشاق!

هؤلاء الناس يغنّون عن الحب صباحَ مساءَ، ويعادونه شرَّ عداء! وتاريخهم مليء بالعنف والانقلابات ومصادرة الآخرين والحروب والقتل والدمار، عجيب أمرهم!

لكن إلى أين يمكن أن يولّي الإنسان وجهه؟ إلى أين يعطي هذا الكائن العراقي البائس وجهَه في هذا العالم الغائص بالمهانات والمهاترات والملاسنات والاستلابات والاستباحات الروحية والمادية؟ إلى أين المسير؟ إلى متى يبقى البعير على التل؟ يبقى البعير على التل حتى المساء.

هذا هو المساء قد حل فما عليك أيها البعير إلا العودة "عائدون عائدون" عاد البعير إلى أدراجه كما يقول القصاصون، لكن يوسفاً ليس طويلاً ولا يملك قنبورة ليكون بعيراً، ولا يتحمل العطش ولا يبول كالبعير. على أيّة حال ما في اليد حيلة وها هو يعود فلا تثريب عليه.

تَنَحْنَحَ وتَنَحْنَحَ وقال لنفســـه بالنبرة البدوية "هكذا قالتْ العربُ "لا عليكَ يا رجلُ، لا عليكَ، قلْ كلمتَكَ وامشِ".

لَمْ تكن زوجته تسمعه ككل الغبيات البليدات، وهو الرجل البعل، لم تتحدث معه. لا مبالاة غير محدودة، ها؟ أليس كذلك؟ قال لنفســـه "ألَنْ تقولَ كلمتكَ وتجلسْ بدلاً من أن تمشي!؟

نعم، قالَ لها كلمتَه، جلسَ، تحدّثَ إليها، قاطعته بطلباتها اليومية، بينما كانت ماكينة الخياطة تشتغل، رجاها أن تصغي إلى آخر قصيدة كتبها.

تظاهرتْ بالاهتمام. قرأ لها المقطع الأول والثاني، قاطعته قبل أن يبدأ الثالث قائلة له: لا تَنسَ أن تشـــتري لنا اللحم والفحمَ وأن تصـــلح خزانة الملابِس. يعاتبها على مقاطعتها إياه، تبرر ذلك بأنها كانت تصغي إلى كل الحديث.

لكنها استمرت فـــي الخياطة وصوت الماكينة يعلو ويعلو، "صوت الحق يعلو ولا يعلى عليه، يعلو ويعلو، على وزن الأغنية المشـــهورة: "وطن يمتد ويمتد"، قال لنفســـه: أشـياءٌ أخرى كثيرة يمكن أن تمتد إلا الأوطان، كيف يمكن أن تمتد الأوطان؟ أليست هذه مصـيبة؟ وكأننا لا نزال نعيش عصور الفتوحات والغزوات.

مرةً حدّثه أحد الشـــعراء الولهانين قائلاً بأنه قرأ لصـــديقة أوروبيةٍ حالمةٍ هلوسةَ الفجر:

على الساحل
أنثرُ
حباتِ
الرملِ
وعلى شَعرِكِ
أرقدُ

لن أبعدَ عنكِ

فـي الصباح أحكي لك أحلى الأحلام

الحكايات الصغيرة والكبيرة عن شهريار والسندباد

ثم هامَ "الشاعر الولهان" فـــي الساحل، عاد إليها والوجوم يخيم على وجهه، أدار إليها ظهره متجهاً بأبصـــاره إلى أفق البحر البعيد. قلقتْ عليه تلك المرأة الحالمة سائلة إياه:

- ما بالك؟ بِمَ تفكر؟ هل لا زلت تفكر بتلك البعيدة، لا زلتُ لا أستطيع أن أنطق اسمها حتى الآن، ولكن أعتقد أنك أسميتها فـــي إحدى قصائدك "عشتار"؟ بالله أخبرني.

نظر إليها نظرة شاعر يَحبِسُ آلامَه، تلمّس شعرَها الأشقر بيديه "المكعبرتين"، الخشنتين السمراوين، قرأ لها اكتشافاتِه العظيمةَ:

فـي الأوهام

يَسكنُ القلبُ عند اللئام

يَبحث عن عقلٍ رصين

وحزنٍ ركين

ورأسٍ لا كالنعام

فـي الأوهام كان الحزن يهيم

يبحثُ عن حبِّ الآلهةِ

عن الدين وقوتِ الفقراء المركونين

وعن سيد الكونين والشرقين والغربين فـي أُمم النعام.

طارت من الفرح صديقتُه الأوروبية المهووسة بالشرق، جن جنونها كما يدعي شاعرنا الولهان، علّقَ متواضعاً، والعهدة على روايته:

- هذه ثرثرة وليست شعراً بالنسبة لي.

لم تعبأ بكلامه. تركته يقرأ الشعرَ فـي الغابة القريبة من البحرحيث

يستمتعان بسماع أصوات تلاطم أمواج البحر وخرير المياه وخشخشة الحشائش والأشجار وتستمتع هي بترنيمات الشعر متخيلةً الريف الشرقي حيث سحر البشر وثغاء البقر ونقيق الضفادع وصياح الديكة ونباح الكلاب تحت ضوء القمر.

كانت الأوروبية تنظر ساهمةً إلى الأفق مبتسمةً، بينما كانت أصابعها تعبث بشعره الأسوَد سارحةً بذاكرتها إلى عوالم الفِيَلَةِ والقِرَدَةِ والأُسود وزئيرهم واللون الأسود والقوّة والدفء والحياة.

لم يكن الولهان يدرك ما في خلد هذه الجميلة وإلهامها وحبّها لبلاده المشوّقة الغريبة، التي لَمْ يَنمْ فيها يوماً وهو مرتاحَ البال. أي تناقض هذا؟ بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة.

أخبرَ يوسفُ زوجتَه الخيّاطةَ السَلاّطةَ الزَلاّطةَ الطَبّاخةَ النفّاخةَ بقصة هذه الأوروبيّة الرومانتيكيّة، ردّت عليه ببرودٍ خيالي:

- رُح لها، يجوز تسمع أشعارك.

والآن ماذا لو ذهبتَ إليها حقًّا؟ مَن يدري؟ قد تحصل على مكافأة منها، تأخذك بالأحضان قائلةً "تعال يا حبيبي"؟

كلا لم يذهب إلى أي مكانٍ آخر غير فراشه، إنه مخدع الزوجية!

أراد أن يخلد إلى النوم بعد عناء يوم كاملٍ مليء بالهموم. يغمض عينيه ويُحكم إغلاقَ جفنيه عليهما، بل يضع خرقةً سوداءَ عليهما، تتزاحم الصور العجيبة في الخيال وتتداخل بشكلٍ غريب يصعب تصويرها أو حتى التقاط خيوطها، "شليلة" خيوط وضائع راسها. حتى سلفادور دالي لا يلتقطها.

عاد إلى الحديقة العامة. التقى الشيخَ الثرثار من جديد، فرح مرحباً به ترحيباً حاراً كأنه التقى شخصاً عزيزاً عليه بعد فراق طويل، حدثه الشيخ عن أيام زمان، الحرب وقصص النساء وخياناتهن والخمور المهربة والسفر.

فجأةً، سمعا صراخاً، هرعا إلى مكان صدرت منه أصواتٌ عالية مثل الطلقات، هرولا إلى هناك بِسُرعة البرق، حتى الشيخ ركض بكل ما أُوتي من قوة، كما لو أنه يخزنها لمثل هذه الظروف.

كان المنظر مروعاً: امرأة رائعة الجمال والبهاء، في متوسط العمر، وكلب كبير مثل كلاب الشرطة مقتولان بالرصاص والدماء تسيل منهما.

كانت الصورة تخفي قصصاً سرية مثيرة للشكوك والعجب والشفقة والآلام في الوقت نفسه. كان الكلب ممدداً على فراش القتيلة كأنه فحل الفحول، بينما كانت الجميلة في ثيابها الشفافة السوداء ذات خصوصية غامضة. قال له الشيخ بثقة عالية:

- لا بد أن قاتلها هو زوجها العقيد المتقاعد، كان يغار على زوجته من الكلب الأسود ويشك بعلاقة غامضة بينهما.

لم يتحمل يوسف الموقفَ ومنظر الدماء، كان المشهد مخيفاً ومروعاً بالنسبة له، صاحَ وصرخَ بصوتٍ عالٍ ولكنه لم يسمع صراخَه كما في كلِّ المرات الاعتيادية.

فزَّ يوسف من النوم لصراخه العالي. كان خائِفاً مذعوراً، تَلمّسَ جسده، كل شيء في مكانه، نَظَرَ حوله، لم يَرَ الضحية ولا العجوز المدمن في غرفته. إذن كان ذلك مجرد حلم. تنفسَ الصعداء.

نهض من فراشه، وجد كل شيء على ما يرام: الأطفال والأم ينعمون بنومٍ هادئٍ. أراد أن يتلمس الأقدام والأجساد النائمة.

لم يعضها الكلب، الدماء لا تسيل منهما. نظر من الشباك المطل على حديقة البيت، رأى كلبَهم "سالماً منعماً".

رَدَّدَ هذه العبارة مبتسماً متذكراً نشيد بلادِه "موطني، موطني، سالماً منعماً، سالماً منعماً". سمع صوتاً في داخله يناجيه معاتباً "أنت تسخر كثيراً، انت شايف نفسك شوفة"، عاتبَه: "مَنْ قال لك هذا وَمَن سمح لك

أن تذكرُ أموراً أو أفكاراً على لســـاني؟ ومن أعطاك الحق أن تفكر بدلاً عني، أو بـالأحرى عنـا نحن الجموع الغفيرة من المتهورين والمتفـانين والله أنت أمرك عجيب؟".

عاد يوسف إلى فراشه بعد أن تناولَ قدحَ ماءٍ، ابتسمَ، تذكّرَ ما قال له أحد زملائه وأصدقائه من رواد مستشفى الأمراض العقلية:

- أنتَ تسخر من كل الأشياء وهذا واضح من أسلوب كلامك وطريقة حديثك وتلاعبك بالكلمات والأصـــوات والحروف، أنت تخلطُ الأوراق والأمور الجدّية بالبَســـيطة، أنت إنســـان أمرك عجيب بالنســـبة لي وللآخرين الذين يعتبرونك مغروراً وغامضـــاً، هم لا يميزون جديتك عن سـخريتك وهذا أمر خطير، وبالمناسـبة هذا ما قالته عنك أيضاً تلك البنت الشابة التي التقيتُها البارحة فـي المكتبة، أنت إنسان سلبي، لا مبالي، عبثي، لا أدري، عدمي، حرس قَوْمِي، مقاومة شعبية، شُعوبي، معيدي "تسمع بالمعَيدي خيرٌ من أن تراه، شـــرگاوي، تَبَعِيّة وكوســـموبوليتي ولا يمكن الثقة بك من الآن فصاعداً.

واسـمحْ لي أن أصـارحك بأنك تبدو سـمجاً وسـخيفاً وموتوراً ودبقاً ونزقاً وشـــبقاً فـــــي بعض المرات على الرغم من حذاقتك ولباقتك ولياقتك وأناقتك وكياستك أحياناً، لكنك صادق وطيب القلب.

هذه هي الحقيقة ويجب أن تعلم بأن أكثر مشـاكلك الحياتية واليومية والمستقبلية مصدرها عبثك، باختصارٍ شديد، أنت عبثي!

هذا هو رأيي بك وأحب أن أصـارحك به باعتبارك صـديقاً حقيقيّاً والمثل يقول امشِ وراء اللّي يبكيك، واُترك اللّي يضـحكك. صـحيح أنا "خبالو" كما يقولون عني، لكن تعلَّم أن تَســـمعَ الحقيقة من المجنون، يعني هذا نقد ونقد ذاتي ويجب أن تتقبله برحابة صـدر وتدفع لي 100 روبلا حسـب قدرتها الشـرائية الرسـمية القديمة، أي ما يعادل 120 دولار أميركي لا غير وممكن أكثر بقليل، فنحن لا نمـانع القيـام بكل

شيء من أجل رفاهية الإنسان والمجتمع.

هذه نكتة قديمة كان هذا الشـــاب المثقف الناقم المشـــاكس المعاند المتعب نفسـياً يكررها باسـتمرار فـــــي ذلك العهد، عندما كان الناس يمثلون بل يلعبون أدواراً ويطبّلون ويهرجون فـي كل شيء، بينما انتهى الأمر به فـي مستشفى الأمراض العقلية وهو الإنسان العاقل الحاذق.

كان يوسف لا يزال ممدداً فـــي فراشه يعاني من الأرق بعد أن أفاق من النوم جرّاء الكابوس، تذكر زميلَ دراسته المجنون فـــي الفلسفة، الذي لم يترك شيئاً دون أن يحلله ويفلسفه، كان يقول بكل جِدّية:

- كل واحد يخطأ لازم ينتقد نفسه ويدفع خمسة روبلات.

ومرّات يزداد المبلغ عنده إلى مئات الدولارات حســـب فداحة الخطأ المُرتكَب. وعندما يسأله زملاؤه عن سبب تصاعد الغرامة، يرد ضاحكاً:

- معلوم لازم تكون الغرامة تصـــاعدية، كلما كبر حجم الخطأ كلما ازدادت الفواتير مثل نظام الضـرائب، "كل شـيء بحسـابه والعدس بترابه"، على قول المثل، وبهذه الطريقة ســننظم ســكننا ومطبخنا المشترك فـــي مساكن الطلبة، تصوروا لو أن المسؤولين الكبار وبالذات فـــي العالم الثالث يدفعون أيضاً وبالدولارات لجرائمهم؟ صدقوني أن كلَّ شيءٍ سيتعدل فـي العالم.

كان زملاؤه فـــي الجامعة يحبونه وتنشـرح صـدورهم لأحاديثه ويتمنون حضور جلساته فـي غرفته أو أثناء توجههم نحو الجامعة.

كان يمزح كثيراً بهذه الأمور. كان يســخر من الأفكار والنظريات العظيمة بِدءًا من آدم سميث وانتهاءً بالمُنَظِّر بونومارييف والببغاوات!

كان يوســف مســتأنســاً لذكرياته عن صــديق روحه، المعاني من الوجد، شـعرَ بشـيءٍ من الراحة والاسـترخاء بعد صـدمته بمنظر المرأة القتيلة هي وكلبها فـي الكابوس الذي رآه.

تذكّرَ كيف كان صاحبه الشاب المتفلسف يسخر من كل الناس المعلبين،

كمـا يقول الروس وأنطون شـــيخوف، والمؤدلَجين والمؤدلِجين، والمدجَّنين والمدجِّنين من الذين يعيشـــون حياتَهم اليومية كما تســـير القطارات على السكك، أو كالخيول الجامحة لا تنظر إلا إلى الأمام.

قال يوسـف لنفســه "باختصــار، انت لا تختلف كثيراً عن صــديقك المجنون، انت أيضــاً إنســان "دهري" كما يقول العراقيون، يعني تحكي كثيراً، تتفلسـف فلسـفةً سـفسـطائيةً أو بيزنطيةً وتتناقش كثيراً وتنصّـب نفسـك حَكَماً على الآخرين، تصـدرُ أحكامَكَ عليهم: هذا معلّب أو مربّع أو مقولَب كما يقول الروس والإســكندنافيّون، وذاك ملتزِم، وآخر مرتد وغيره مرِن، وآخرمعـادٍ وموتورٍ وبخيـلٍ، وآخر دعّي وذاك معيّ أو إمّعة. مَنْ أنتَ لتطلق عليهم الأحكامَ؟ ولماذا تظن نفسكَ أقدرَ منهم؟

وماذا يعني كل هذا وما هي الخطورة فـــي الأمر؟ "أمر خطير! هذا هو أنا و"الله هو الغالب" كما يقول اللّيبيون. هل أستطيع أن أغيّر نفسـي؟" تمتم بهدوء، ثم أردف متابعاً، "وفـــي هذه المناسبة أتساءل: أين هو بوناماربيف الآن هذا ولِمَ لمْ يُغيّر نفســه قبل البيريسـترويكا وهو العارِف الحاذِق؟ ولكن المثل اليمني يقول: "الحاذق خرج من السوق وما اشترى شيئاً".

ربنا يكون فـي عونه هذا الحاذق "المارق" بوناماربيف، لو كان يوسف يعرف عنوانه لَبَعَثَ له بعضَ الأدويةِ أو على الأقل طعاماً لا يفسد فـي الطريق، معلبات مثلاً، لا بد أنه يعيش آخر أيامه بعد البيريسترويكا، لكن الأعمار بيد الله.

واسـتسـلمَ يوسـف للرقاد بعد سـيل الذكريات التي شـرحت صـدره. فـي النوم حلم بأنه نائم ويحلم، وأنه ذهب فـي الرؤيا إلى البريد ليرسل طرداً بريديّاً مليئاً بغذاء المعلبات إلى الرجل المُقَولَب بوناماربيف.

عندما استيقظ من حلمه الأول وَجَدَ نفسَه نائماً تحت شجرة كالبتوس عالية، نفس تلك الشجرة التي زرعها أمام دارهم قبل أكثر من عشرين ســـنة وحُرم عليه أن يعود ليراها! أي ذكرى حزينة وأليمة، ماذا فعل ليُحرم من بلاده أكثر من عقدين من الزمان؟ أي كارثة وأي مصـــيبة

هذه؟ أي قسـوة هذه؟ ومع ذلك فرحَ كالطفل لهذه الذكرى متطلعاً إليها بفخرٍ واعتزاز، ثم رأى فـي منامه نفسه بأنه يكتب ما رآه فـي قصة.

فـي الرؤيا، التقى يوسف الرجلَ المُعَلَّبَ المُقَولَب، "حمار الطمّه"، كان كالعادة يرتدي معطفه الطويل الصوفـي المعروف فـي ظهيرة تموزية بغدادية ساخنة، كان الأطفال يركضون وراءه، ساخرين منه: هَيه، هَيه، مخبّل! هَيه، هَيه، مخبّل!

حَزنَ يوسف عليه كثيراً، وقف فـي اليوم الثاني ينتظره عندما يعود من عمله فـي المساء مرتدياً معطفه الشتوي وقبعته، وكأن الثلوج تتساقط عليه ولا يبالي لها ولا لسخونة تموز القائظ، الذي يجنّن العاقلين والأسوياء، ولا يكترث بالناس والأطفال ولا بسخريتهم، حاول أن يساعده، يحدثه، قال له إنه يريد أن يساعده لأنه رجل غريب، قادم من روسيا، أراد أن يخبره بأن الجو حار هنا ولا ضرورة لكل هذه الملابس الصوفية، ولكن دون جدوى رفض الرجل المُعَلَبَ المُقَولَب كل هذه الاقتراحات، ولكنه وفجأة قالَ بلهجة عراقية وبدون أية لكنة:

- وَخِّرْ عَنْ طريقي لا أضربك بالعصا! وَخِّرْ! زمال! وخِّرْ!
- معقول هذا يطلع منك يا مُعَلَبَ يا مُقَولَب؟ آني حمار يا حمار؟ إذا تضربني أروح أخبر صاحبك أنطون تشيخوف، الظاهر هو ما يعرفك زين! أنت أيضاً عدواني مثلهم!
- رُح اشتر بعقلك حلاوه آني معلّب عراقي، إيدي والسكين، نَگره سِلْف! تشيخوف إشجابه عليّ؟ رُح أخي سجّل أحلامك، المثل العراقي يقول:

الما عنده شغل وعمل... يلعب ب... سامحوني ياجماعة!

الدَنمَرك 1990-1994

تُوزِن تاك

أنتَ تُوزِن تاك. أنتَ توزن تتتاك، فكما ترى فإن لساني يتلعثم وأنا أتأتأ عندما أخاطبك. قد يكون هذا من شدة الصدمة وهولها. أنت الروح وروح الروح. لن توازيك كلمة بوحدها، أنت أنت وبَسْ، لا غير.

أنت عبقري، أنت فطحل زمانك. أنت فطحل الفطاحلة، فحل الفحول، جهبذ الجهابذة. أنت قصيدة. أنت معلقة! بل ملحمة!

أنت تُوزِن تاك، أنت توززن تاك. يا ترى هل لا زلت تذكر توزن تاك؟ أنت تذكر كل الأشياء ولكنك كالعادة تنسى أو بالأحرى تتناسى.

أنت كالعادة مشغول لكنك بالتأكيد لن تنسى طريق الأشعار والقطط الصغيرة المغرم بها. أنكرتَ كلَّ هذا متظاهراً بالاستغراب متسائلاً "أي قطط، أي غرام؟".

أُتركْ عنكَ هذه الادعاءات والإنكار، دعني أُذكّرك بالأمر ولا تتظاهر باللا مبالاة. كُفْ عن التظاهر بالسهو أو ضعف الذاكرة. أنت ذكي بلا شك، لكنك لست دائماً أذكى من الآخرين، هنالك فطاحلة مثلك أيضاً ويجب أن تعطيهم حقهم، أو على الأقل أن تحذر منهم. ولكن مع ذلك دعني أذكّرك بالقصة.

كنتَ منغمراً في أحاديثك ومغامراتك وخططك الجهنمية والمعجبين بك ونشاطاتك المسرحية على سطح البيت مع "أولاد ينطبق عليهم المثل العراقي: شعيط ومعيط وجرّار الخيط"، وبحثك عن الطرائد الوهمية تماماً مثل إبراهيم عرب البغدادي، أو بالأحرى مثل "الجد النَفَّاخ" في أغنية السيدة فيروز، هل تذكر أغنيتَها: "يا جدي يا أبو ذيب، إيدَك وين كسرتها؟" فيردُّ عليها: بالصيد، بالصيد" فتصرخ به فيروز: "جدّي، جدّي، جدّي"؟

قتلَ هذا الجدّ السباعَ والضباعَ. قتّال قَتَلَة!

أراك تضحك من هذا المثل العراقي"شعيط ومعيط"، هل انزعجت منه؟ ألا تذكر بأني قلته لك آنذاك وضحكتَ منه، أذكر أنك قلتَ لي "هذا كلام شعبي نادر الاستعمال في هذا الوقت".

وطلبتَ مني أن أجمع لك كل هذه العبارات الشعبية الشائكة عفوا أقصد الشائعة لكي توظفها في صورك "الإبداعية". قلتُ لكَ في سخرية مبطنة: أنت بحاجة إلى مكتب من الأذكياء لكي يعملوا لديك. رمقتني بنظرة مندهشة قائلاً:

- من قال هذا الشيء.

-هذا ما كنت ترددده، نَسيتْ؟ كيف ذلك؟ ألم تَطلب مني ترجمة قصصك إلى الإنجليزية؟ قلتُ لك أنا مشغول وهذا أمر يحتاج إلى وقت طويل. رددتَ على الفور:

- إذن تَرجمْ القصائد، هي سهلة، ولا تحتاج إلى وقتٍ كثير، ثم إنك موهوب وسريع الترجمة. وبصراحة والحكي بيننا هي قصائد قصيرة. في كل سطر كلمة وفي كل صفحة بياضات كثيرة لا تحتاج لترجمة صعبة.

قلتُ لك ساخراً حانقاً على طريقتك في الكلام عن الأدب:

- لا، آني سريع الاشتعال والاحتراق والوهج واللهب والالتهاب والعطب والعطل، ما أقدر على الترجمة، هي تحتاج إلى مزاج وخاصة البياضات والفراغات بين السطور والكلمات. قل لي بالله عليك إشلون راح أترجم قصيدتك التي هي عبارة عن ورقة بيضاء؟ أنت تعرف آني ما أترجم حرفيّاً!

صرتَ عصبيّاً وخفتَ من مسألة المزاج. على أية حال كنتَ أيام الصبا والشباب تحب قضاء الوقت على سطوح البيوت وترتاد المقاهي وتكره المدرسة والمعلمين، أليس كذلك؟

كان وجهك متغضنا، عيناك كانتا شاردتين ومنطفئتين، رددتَ عليَّ بجفاء:

- خَلَص، خَلَص، انتهى الموضوع، ماكو داعي للترجمة.

تَجهّمتْ ملامحُ وجهِكَ كالطفل، حاولتُ مواساتَك قائلاً:

- لكن شنو المشكلة؟ وليش الانزعاج من هذه الذكريات؟

كنتَ تقولُ لي إنك نسيت، ولا يهم لدي سواءً نسيت أو تناسيت. وهل من المعقول أن تنسى كيف أضعنا الطريق؟ دعني أتذكر القصة.

كنّا، أنت وأنا نمشي الهوينى إلى الأمام، نتقدم مجموعة من الشامتين بك، الساخرين منك، كنت تسميهم الأعداء. كان عليك أن تدّلهم على عنوان مكان الأمسية، الذاهبين إليها، أضِعتَ ولم يعد له وجود في رأسك المحشّش هذا كما كنت نفسك تقول عنه. كنتَ خائِفاً، لائذاً بالفرار منهم، محتمياً بي وبقصائدك، تقرأها عليّ وأنا مُشَتَّتٌ بين هلوساتك وصداعي وسخريات أعدقائِك. يومها كنت مشغولاً بقراءة قصيدتك في أذني وكنتُ أعاني من الصداع. هل أصغي إليك أم إليه؟ سينفجر يافوخي بالتأكيد.

أنا والصداع وأنت ودونكيشوتياتك وقصيدتك الجهنمية وكان الطريق يأخذ بنا إلى الطريق، والحريق إلى الحريق.

كان الجو ساخناً ليس كعادته في هذه البلاد، ولكن أعصابنا كانت في حالة تأهب قصوى! "خوفاً من ضربة منجنيق في بلادٍ ليس لنا فيها صديق، ولا نعرف فيها الطريق".

هذه عبارتك وردت في قصيدتك وليست لي. كنا نسير في الشارع بحثاً عن المكان بينما أنت لا تأبَه لا بالجغرافيا ولا التاريخ، مشغول أنت بالإلقاء، أنت تقرأ وأنا أسمعُ مطبّاتِك وأنبّهك بين فترة وأخرى

مؤنّباً إياك كما لو كنتَ طفلاً صغيراً:

- انتَبِه إلى الطريق واســـألْ الناس عن عنوان المكان الذي نقصـــده، السؤال مو عيب.

كان الجو ساخناً والعجائز يسرنَ متمايلات بملابسهن الزاهية فـــي الشوارع الجميلة، قلتُ لك متوسلاً:

- اســألهنْ يا رجل. أكيد يعرفن المنطقة هنا شـبراً شـبراً، يمشـينَ بها مغمضـاتِ العيون دون أن يُتهنَ مثل ألكسـندر بلوك فـــي مدينته بطرسبورج.

وحالما سمعتَ باسم بلوك بادرتَ قائلاً:

- بالله عليك احكِ لي عن بلوك وأشعاره.

- أنت صـــحيح بطران، اســألْ هذه العجوز يا أخي عن العنوان، خلينا نروح نشوف المكان، تعبنا والجوع قتلنا.

كان الشـامتون لا يزالون يمشـون ورائنا، يتسـلون بنوادرهم عنك. يصرخون بين فترة وأخرى "هذه أمسية أم قصة عنتر يا فطحل؟".

سألتَ امرأةً وفهمتُ منها تقولُ لك: إلى اليسار ثم إلى اليمين وإلخ، كنتَ تنظر إليها، تقرأ القصـائد فـــي عقلك، تشـهق أثناء الكلام مثلهم، تشكرها:

- تُوزِن تاك، تُوزِن تاك، تُوزِن تاك، يعني ألف شكر، ألف شكر.

أذكُرُ أني قلت لنفسي فـي وقتها: "يا ربي لك الحمد والشكر، أخيراً راح نصل للمكان".

وسألتك متحرجاً:

- تفهم كلَّ كلامهم؟ تعلمتَ لغتَهم؟

أجبتني على الفور:

- معلوم، وَلَوَ، آني أكتب الشعر بلغتهم.

ولكن لم يبقَ شارعٌ إلا ودخلناه، لم يبقَ زقاق صغير إلا وسلكناه، لم تبق امرأة إلا وسألتَها، ومع ذلك لم نعثر على المكان. الناس يقولون لك إن المكان المنشود قريب من هنا. وأنت تُصرُّ على إلقاء القصائد عليَّ بخطابيّتك المعهودة. خرجتُ عن طوري قليلاً، قلتُ لك منزعجاً وبالعربي الفصيح:

- **يا رجل قصائدك عظيمة** لكني تعبت من هذه الظاهرة الصوتية العربية كما أنك لست واقفاً على خشبة المسرح، وأنا أعترف وأقر بأنك صووووتٌ وخبيييرٌ من الدرجة الأولى بلغة أهل البلد، لكن أنا والله تعبت من المشي وهلكت ورجلي تقطّعتْ، الله يخلّيك ارحمني.

كنتُ ألح عليك، أقولُ لكَ:

- خلّيني أسألهم بالإنجليزية.

ترفضُ، تردُّ عليَّ:

- لا، لا، هُمَّه ما يحبون الحكي بغير لغتهم.

- من قال لك هذا؟ بالعكس، أصلاً هذوله يتمنون ويحبون الحكي بالإنجليزية.

تعبتُ من المشي. جلستُ مقابل بنايةٍ في الظل، بينما جلستَ إلى جانبي قرأتُ قطعة البناية العالية. مكتوب عليها: دِنْ نورسكَ بَنْكْ. يعني بالعربي: البنك النرويجي. سألتك عن معنى كلمة دِنْ، أجبتَ بأن كل مفردة في هذه اللغة تبدأ بهذه الكلمة! سألتك: هل هي أداة تعريف مثل The الإنجليزيه؟ هل هذا نفس الشيء؟

نظرتَ إليّ نظرةً باهتةً بلهاءَ، بعينين شاردتين وجامدتين من خلف نظارتك المعتمة. أردتَ أن تلقي لي مقطعاً من مقاطعك الشعرية. سألتُك كأني أمتحنك:

- أكو عندنا مثلها بالعربية؟

أجبتَ بِسرعه وكأن أمراً ما يشغلك:

- لا، اســـمعْ هذا المقطع، أرجوك، طُزْ بِكلمة "دِنْ" و"دِتْ" خلّينا من هذه الأمور الفارغة، أنتَ ليش تدوّخ راسك بها؟

- بَسْ آني أريد أعرف: هل هي، أقصد "دِتْ" أداة تعريف؟

سَألتُكَ مُصرّاً وكانت عيناك تواصلان التهرب مني رغم اختفائهما خلف نظارتك، أجبتَني شارداً مشيحاً بوجهك عنّي:

- ها، يمكن، أعتقد، ولكن أكو اختلافات.

ضحكتُ منك، استجبتَ لسخريتي منك، متسائلا مجاملاً إيّاي:

- ليش تضحك؟

- أضحك من جوابك، وكأنك تبيع فـــي بازار أو سوق من أسواق بغداد الشـــعبية، تقول: "اختلافات"! أخي هذا علم قواعد وثوابت ونكرة ومعرفة. هذه يا سيد يمكن تكون أداة تعريف، يبدو ذلك.

تماديت بالضحك قائلاً:

- إي شَـسَـوّي لَكْ، انتَ تعرف آني صـفر بالقواعد ونسـيت حتى النكرة والمعرفة، بالمناسبة هي شنو بالضبط هذي النكرة والمعرفة؟

- الله يســـامحك، أديب وما تعرف النكرة والمعرفة، خلّيني بالله عليك أســأل هذا الرجل عن المكان باللغة الإنجليزية، يبيّن عليه صــاحي وما مأثرة عليه البيرة.

لكنك رفضتَ ورفضتَ. ادّعيت أن الناس هنا لا يصفون لك المكان بدقة وأردفتَ قائلاً:

- لا، لا، الطريق واضح ومعروف بالنسبة لي. آني متأكد راح نصل، هذا الوصف أفضل من كل المرات السابقة.

قلتُ لك ساخراً، ضاحكاً بلطافة تقبّلتَها برحابة صدر:

- انت فعلاً ينطبق عليك المثل العراقي: اللّي ما يعرف يرقص يقول الـــگـــاع عوجة! أسمعك تُكرر: توزِن تاك، توزِن تاك، أصبحت

لازمة: ألف شكر، ألف شكر بلا فائدة. يبين عليك ما تفهم كلامهم! كأنك أطرش بالزَّفَّة!

ضحكتَ من المثل العراقي كعادتك، قلتُ لك متمادياً:

- وتضحك؟ إلَك وجه تضحك بِه؟ فعلاً أنت غاسل وجهك ببولك كما يقولون عنك.

وأُصبتَ بنوبات من الضحك، كنتَ مستهتراً عفواً أقصد متهستراً وواصلتَ الضحك ونحن لا زلنا في ضياع وضياع، هل الأمر حقًّا بهذه الصعوبة؟

أصدقاؤنا السائرون وراءَنا أخبرونا بأنك لم تفهم شيئاً مما كان يُقال لك من شروح، لكني لم أصدق هذا، أنا نفسي ضعيف بالجغرافية، قلت لنفسي: "قد يكون هو أيضاً مثلي مصاب بالشرود الذهني"، ولكن تَبَيَّن لي فيما بعد بأنك ضائع وغائب عن الدنيا، سارح وشارد من كل شيء، "إمدَوْلِغ" ومقطوع من كل العالم! تعيش على هامشه ولا يشغلك غير أمسيتك وإلقاء الشعر. والله حقَّك! فهل هناك شيء في الحياة أجمل من تحقيق الذات. أنت جميل، أنا والله سعيد بك. أنت فرحي الدائم والمفروض مني أن أكرّس وقتي لك. أنت شخصية فذّة!

لم أعد أحتمل. أردتُ أن أسأل أحد المارة عن المكان بالإنجليزية. مانعتَ، مشيراً بيدك اليمنى إلى بنايةٍ عاليةٍ، قلتَ:

- هذه هي البناية "بعينها وعيانها، هذا هو المكان الّلي نريده".

فرحتُ كثيراً وأشرتُ إلى الأصدقاء نحو البناية، تعالت زغاريدهم ساخرين، وتخيلتُ قدحَ ماءٍ بارد كنت أحلم بشربه ليروي عطشي في هذا الجو الساخن. فاجأتني بأنك تريد أن تأخذ تاكسي! قلتُ لك مندهشاً:

- لكن المكان قريب، ثم إن سيارة واحدة لا تكفينا جميعاً!

كنتَ تنظر إليَّ ببلاهتك المعهودة، عينك الحقيقية صارت تشبه الزجاجية الأخرى، بل أكثر لمعاناً، الآن فهمتُ نظراتِكَ الكسيرةَ

المتوسلة، شعرتُ بالأسى والتعاطف معك، قلتُ لك حازماً جازماً:

- **خلِّني** أسأل عن المكان بالإنجليزية بنفسي أو الألمانية.

- لا، لا، لا، من الأفضل أن نحل المشكلة بالتاكسي. الجماعة تعبوا، وبصراحة ضاع الخيط مني. احترقَ الفيلم.

قلتَ ذلك بارتباك وأسىً ملحوظين، وحزنتُ عليك، بينما كان الآخرون يصرخون بين الفينة والأخرى:

- ها، لقيتُم الكنز؟

تقدمتُ من امرأة لأسألها بدون أن أطلبَ أذناً منك، لم تعترضْ عليَّ في هذه المرة، فرحتُ، على الأقل لكيلا تدفع تكاليف التاكسي. كانت المرأة الشابة الشقراء تسير ببطءٍ مع طفلين صغيرين يشبهانها، يبدو عليهما العز والدلال، ارتسمَ الحذر على وجهها. عندما اقتربت منها، بادرتها بكلمة طيبة بالإنجليزية سبقتها ابتسامة:

- هل يمكنني أن أسألك؟

- بالتأكيد!

قالت بهدوء وثقة عالية بالنفس وعاد الاطمئنان إلى عينيها.

- هل يمكنك أن تدلّينا على هذا العنوان يبدو أنه قريب منا إلا أننا أضعنا الطريق؟

أجابت بتلقائية مبتسمةً بهدوء:

- ذلك هو شارع أوستَرجاذه.

قالت كلامَها مشيرة بيدها اليمنى إلى الأمام وكان الشارع غير بعيد عنا. ثم أضافت قائلة:

- وأعتقد أن البناية التي تريدونها، هي تلك الزرقاء ذات الطوابق الخمسة، إنها تبدو واضحة من هنا.

- توزن تاك. ألف شكر!

كان وجهك شـاحباً كأنه صـفحة ملسـاء بلا ملامح أو ارتسـامات. كأنك أُصبتَ بمرض الدجاج "أبوضرَيْجْ" العراقي قلتَ بصوتٍ خافتٍ:

- آني قلت لك المكان قريب منا.

- صـحيح، ولكن هذا لا يحتاج إلى تاكسـي. كنت تريد استئجار تاكسـي يا فطحل زمانك. هل هذا أمر معقول؟

حاولتُ مسـاعدتك وإنقاذ الموقفَ، تعاطفتُ معك طبعاً فأنا معك وليس عليك، عاهدتك بألا أخبر أولئك المتهكمين والشـامتين، ولكن لم ينفع الأمر معهم. اكتشـفوا كلَّ شـيء بطريقتهم الخاصـة، صـرتَ موضوعًا لتندّراتهم المُمِلَّة فـي جلسة السَمَر عندما كنتَ تلقي قصيدتك:

هَلوسةُ الصباح تِيه العقل

أحلام الشيطان امرأة

ظلا ممم دددامسسسٍ

بينما كان الأعدقاء يهتفون متهكمين بأصواتٍ عالية:

توزن تـاك، توزن تـاك توزن، تـاك توزن تـاك! وكلمـات أخرى ممنوعة وقهقهات وعبارات قاسـية وسـاخرة و.. توزن تاك.. توزن تاااااااااك

1990

تقلّبات الفطحل
محاكاة ساخرة

بداية المحاكاة

الأول..: يبحثُ عن المبادئ.

الثاني..: يعيش ولا يعيش، يلهث وراء الظلال.

الثالث..: يشرب الشاى ليلاً نهاراً، الشاي خمر الثوار والمناضلين

الرابع...: يداهن ويدخن غليونَه.

الخامس.: يخون ويلهث وراء الآخرين

السادس.: فطحل، جهبذ، عبقري، بهلوان، بتاع كله،

جاك! كيفما ترميه يقف،

أولاد آخر زمن!

والله يا زمن !

فـي أمسية شعرية جماهيرية ألقى الشاعر الفطحل قصيدة مطلعها:

اسـألوا عنا فـــــي كل مكان نحن جهـابـذة هـذا الزمـان

يُقال إن هذا البيت من قصـيدةٍ ارتجلها الشـاعرُ الفطحلُ، وقِيل على لســـان أحد الرواة المخضـــرمين إن المناضـــلَ الفطحلَ العبقريَّ لَمْ يرتَجِلْهـا بـل نظمهـا نظمـاً وبقيـت عنـده أكثر من حَوْلٍ فُعـدَّتْ من الحَولِيّـات، ثم ظهر بهـا على الملأ وكـان عجز البيـت عنـده "نَحنُ فطاحلة هذا الزمان" وليس "جهابذة هذا الزمان" بِسَـــبَبِ ســـخرية بعضهم ومَلَلِهِم من وقعِ هذه الكلمة وجرسِها لتكرارها فـي صحافتهم.

يتفق مع هذا الراوي المخضـرمُ أغلبُ الرواةِ الآخرين بغضّ النظر عن اختلاف مدارســـهم الأدبيـة ومـذاهبهم الفقهيـة وطوائفهم ونِحَلِهِم

ومِلَلِهم وانتماءاتهم الفكرية ومشاربهم وولاءاتهم الحزبية.

إنَّ الفطحلَ طفلٌ حبيبٌ مثل نور العين والحياة والقلب والكبد وكل الإحساسات العاطفية وغيرها، ولا أدري إن وُجد في العالم مثل هذا النوع من المشاعر، لكنه على أية حال اصطلاح أُستعير منه، ومَنْ عاشَرَ القَومَ أربعون عفواً أقصد أربعين يوماً صار منهم.

كلُّ هذه الأمورِ والظواهرِ مجتمعة في شخصٍ واحدٍ. أليسَ هذا وحده معاناة كبيرة؟ كيف يُمكن الكتابة عن هذه الشخصية العبقرية بدون تذكّر قصة آلام فرتر الرومانتيكية الحزينة، وبدون أن تُذرف الدموع على الورق.

كيف يُكتب عنه بموضوعية؟ يبكي المرء لحال هذا المسكين المعاني من الحب والحياة والفقر والجوع والأنين والسياسة والنضال ومقاومة الطغاة.

قد يقال إنه الخيال الذي ذهب بهذا المهووس إلى أبعد المتاهات، خيال المجانين وجنون المتخيلين، الذارفين الدموع، ولكن يا فطحل قد تقول أشياءَ وأشياءَ أخرى كثيرةً لم تصل إليها مخيلتي. على أية حال يحق لك أن تقول كل شيء، أو تفكر بكل شيء ولك الحق في أن تفقد الثقة بالآخرين وربما بي. وقد يقول قائل هامساً لي:

- لا بأس، لا بأس، هوّن عليك، يا أخ العرب، دَعْهُ وشأنه!

لا ريب في ذلك، لكن لا تظن أن ذلك يعطيني الحق لأن أهملك أو أُهشِّمَكَ عفواً أقصد أُهَمّشَك أو أخشى منك، بل بالعكس، فأنا أكسب العدو قبل الصديق بالنظرة قبل كل شيء. جَرّبْ مرة أن تنظر إلى الكلب خائفاً أو شاكاً، من المؤكد أنه سيشم رائحةَ جسدك وسيعاملك بنفس الطريقة، إلا أني لن أقوم بذلك وسأبذل قصارى جهدي من أجل خدمة الحزب والدولة.

ماذا تقول؟ غضبتَ على التشبيه بالكلب؟ ليتك كنت كالكلب في

وفائه! ألم يُشبّه الشاعر العربي أحد الخلفاء: "أنت كالكلب فـــي وفائه وكالتيس فـي ركب الخطوب"!

وأنت أيها الفطحل، لا بدّ أنك ســتكون أيضـــاً أحد القراء. ســتقرأ بالتأكيد هذه المحاكاة والمحاورات.

أنا أعرفُ أنك قليلُ القراءةِ وأعلمُ شـــيئاً آخرَ مؤلماً هو أنك لا ولَنْ تحدسَ الأشـــياء. يعني "لن تلقفها وهي طايرة" كما يقول المثل لأنك لستَ خصبَ الخيالِ مهما حاولتَ الادعاء بالفنطازيا.

لو كنت فطحلاً حقيقيّاً لعرفت ذلك، ولكن ألم أقل لك دائماً وأبداً بأنك ماركة مزورة!

ولهذا سأبقى أناديك بأعلى صوتي دائماً وأبداً:

فَط..... حَلْ، فَط.....حَلْ

وما عساي أعمل؟

هل تريدني أن أبقى مكتوفَ الأيدى أمام ظاهرة الفطحليزم وأغض النظر عن فطحلياتك الكثيره؟ إنها مســؤولية الكتابة كما تقول أنت أيها العزيز، هل تذكرْ أغنيةَ العندليبِ الأسمر عبد الحليم حافظ؟ الذي كنتَ تعشـــقُ أغانيه، وحزنتَ لغيابه الأبدي: "دي مســـؤولية عزيزة عليَّ، مَعزّة الروح والحريه"؟ مســـؤولية الحكم على ظاهرة إســـهال، عفواً أقصـد إصـدار الكتاب تلو الكتاب؟ بالمناسـبه، أين صـديقك الأول أيام مرحلة الدراســة الأولى، كان طفلاً مراهقاً أكبر من عمره بكثير، كبير العقل، صـغير العمر والحجم، وكنت رجلاً شواربك مخطوطة، طويلاً و"الطول طول النخلة والعقل عقل الصـــخلة"، كنتَ فطحلاً جائعاً كما كان أصـحابك يسمونك. لم تستطع التركيز على الدراسة وكنت تعاني من الشرود الذهني كما كان الأستاذ يقول لك، كنت تتضـايق كثيراً منه ومن ملابســك المتهرئة والضـــيقة، كنتَ أطولَ من زملائِك الآخرين، أكثرَ خشـونَةٍ، كثَّ الشَـعرِ، تُخفـــــي عينَكَ بغرة شـعرك الطويلة وبأية

طريقةٍ ممكنةٍ وغير ممكنةٍ، وكان بعضُ زملائِك يتمادون في السخرية من اسمك: طايع، الذي حوّلوه إلى طايح منادين إياك: طايح يا طايح! يا طايح الحظ، وكنتَ مسالماً تضحكَ كثيراً معهم. أنت في الحقيقة نفسُك أولُّ مَنْ سَخَرَ من اسمك، غيرتَه من طائع إلى طائح، من طايع إلى طايح، أنت نفسك كنت تردّد باستمرار ساخراً: أنا طايح مو طايع لأني ما أريد أطيع أي واحد، أنا طايح، طحت من بطن أمي لأني كنت جاي مستعجل للدنيا، أنا طايح مو طايع، أنا طايح الحظ والبخت!

كنتَ تحلم بأن تصبح ممثلاً كوميديّاً وكُنتَ تَكرَهُ الجلوسَ في صفوف الدراسة، تَهرَبُ مَعَ زملائك من المدرسة. مَلِلْتَ الدوامَ المدرسيَّ حاملاً بيديك بعض الدفاترِ والكراساتِ المتهرّئةِ. كان زملاؤك التلاميذُ في وادٍ وأنت في وادٍ آخر!

تَهربُ من صفوف المدرسة والمعلمين لتقرأ لصديقك القصائد والأشعار عن ماريا وتتناول وجبات الطعام في دارهم و"دارِهِم ما دمت في دارِهِم"، كما يقول المثل، أتعرف أين هو الآن؟

يُقال إنه حصل على الشهادات في القانون ويؤلف الروايات والكتب ويعاني من القلق والشك لكنه يتمتع بأجمل لحظات الصدق والألق ويراجع ويدقق ويحقق وينمق وينسق، هذا الذي كنت تقرأ له قصائدَكَ عن ماريا:

ماريا

أستحلفكِ بالله عودي

عودي

إليَّ أيها القمر

عو

دي

عو دي، عو دي، عو دي،

ار... جعي، ار جعي، ارجعي
دعيني بك أتباهى
هلمي، هلمي يا شياهي
فماريا الحب قادمة
وحُب ماريا يباهي
أنقذني يا إلهي
فقلبي يتهاوى
وماريا تلوح فـي الأفق، تسمو وتتعالى.

كنتَ تلعبُ معه، تلهوُ بكلِّ شـيءٍ، تعبثُ بوقتك وقوته، الزمن عندك لا قيمة له، يمضي بشكلٍ متوازٍ مع الهوس والهلوسة، أنت تقضيه بكل هذه الأشـياء وإلا سـتغدو الحياة أمراً مسـتحيلاً بالنسـبة لك، تتلاعبُ بمشاعره، الحياةُ كلُّها عندك لعبةٌ، تُخرجُ المشاهدَ المسرحيةَ، ُتسجلُّ الأشـرطةَ، تقرأ له القصـائدَ تلو القصـائد، تُلقيها بصـوتٍ عالٍ، وهل يملك صـديقُك المسـكين غير الاسـتماع إليك؟ أم تُراك نسـيته ونسـيتَ خيراتِه؟ وهل هناك من يَنسى أيام الصيف الجميلة والسطوح والحدائق والشـواطئ فـــي بغداد؟ كنتَ تحب مياه دجلة، تهرب إلى السـواقي الصـــغيرة لتعوم مع الأولاد هرباً من القيظ العراقي وحماة شـــمس الظهيرةِ. لكنك هربتَ من هذا العالم بعذاباته وآلامه باحثاً عن الغيوم والأمطار والمعاطف المطرية، تمشـــي بها متلفتاً يميناً ويســـاراً كأنك بطل من أبطال هولي وود.

أنت الآن شخصٌ آخرٌ، كلُّ شيءٍ تغيّرَ فيكَ، تمشي فـي طُرقٍ نظيفةٍ تزيّنها فضـــلات الكلاب. رحلتَ بعيداً إلى أوروبا تَجوبُ شـــوارعَها معتمراً نظارتك الشـمسـيةَ ومعطفك المطري مسـاءً وصـباحاً، صـيفاً

وشتاءًا.

وبكَتكَ أمُك الحزينة، الجائعة المســـكينة. كانت والدتُكَ تترقّبُ قدومَكَ فـي كلّ مساءٍ أثناء جلوسِها وأبنائها وبناتها حول صينية الشاي.

كثيراً ما كنت تتطلع إلى نفسك أمام المرآة، شاب طويل القامة فاحم الشـعرِ، أسـمرَ البشـرةِ بمعطفٍ مطري طويل ونظارة شـمسـية، كانوا فـي العراق الصعب يسمونك: كعيبر، كعيبري! لكنك الآن والحق يُقال شاب وسيم فـي نظر هؤلاء الأوروبيين لامحالة.

***

كانت أمك تود أن تراك ناجحاً فـــي المدرسة. ست سنوات وهي تنظر وتنتظر، عيناها تتطلعان إلى الأفقِ وتنتظر، عســى ولعلك تنجح وتحصل على الشهادة، لكنك كنتَ كعادتك مبدعاً عبقريّاً تكره الأساتذه الأغبيـاء ممّنلم يفهموا ولم يســتوعبوا قدراتِك الإبداعيـةَ وخيـالاتك الإلهامية وزيارات آلهات الشعر وجنيّاته لك فـــي اللّيل وترددك الدائم على وادي عبقر. لكن يا حرام بقيت الأم المســكينة تدعو وتدعو الله لينجحك وتنذر النذور تلو النذور، لكن تجري الرياح بما لا تشـــتهي السُفُنُ.

مرةً، حوّرَ أحدُ زملائِه شـــطرَ هذا البيت للمتنبي، قال له: السَـــفَنُ مستفزاً إيّاه، خطَّأَهُ الفطحلُ محاكياً طريقة العلامة مصطفى جواد:

- قُلْ السُفُنُ ولا تَقُلْ السَفَنُ.

ردَّ زميلُه عليه وقتَها متمادياً فـي الاستفزاز، لكنه لم يكن متأكداً:

- "مسكين جمهوري قديم" طول عمرك حاسب نفسك فطحل زمانك، ألم أقل لك يصح الأمران؟ السَفَن، قادةُ السفن، مفردها السفّان!

أراد الفطحلُ أن يناقشَـــه، لكنه تراجع، ضـــحكَ آنذاك ضـــحكتَه الطفوليةَ العميقةَ الحقيقيةَ من "مسكين جمهوري قديم"، سـألَه عن هذه العبارة ومصدرها، نسي الفطحلُ قصةَ "السُفُنَ والسَفَنَ":

- "مسكين جمهوري قديم"؟ من أين لك هاي العبارة؟

أجابَه صديقُه المناكِفُ المتخابثُ:

- كان عندي صـــديق يماني، كنت أُناديه أبو يَمن، كان يحب ترداد هذه العبارة، يبدو أنها سخرية من النظام الجمهوري عندهم.

وكان صاحب الفطحل ملاسِناً، مناكِفاً، مشاكِساً متحايِلاً ومتخابِثاً بعض الأحيان، إلا أنه وبشـــهادة الفطحل نفســـه ليس حاقداً ولا متحاملاً ولا مخاتِلاً ولا مكايِداً ولا خائناً. كان هذا الصديقُ معتدّاً بنفسه إلى درجة الغرور أحياناً، يُصوّبُ الآخرين متربصاً لهم، متصيداً إياهم كالطرائد، وكان العبقري كثيراً ما يقعُ فريسةً شهيةً في كمائنه.

وكان الفطحلُ بالمقابل يكنُّ كلَّ الودِّ والاحترامِ لصـديقه ويتقبّلُ منه كلَّ السخريةِ لأنها تصدر منه عن حسن نيّة كما كان يعتقدُ.

كان هذا الصـــديقُ ينصـــبُ للفطحل فخّاً فيوقعُه به ويقرأ عليه محاضـراتِه مصـوباً أخطائه على طريقة الأسـاتذة. سـمع هذا الزميلُ الفطحلَ فـــي إحدى المرات يقرأ نصّاً بصوتٍ عالٍ ساخراً من الكتب المدرســية ومن أســاليب التعليم مبرراً هروبه من المدرســة: "أُحِب الناس لي أمي ومِن بالروح تفديني".

يَردُّ عليه صاحبه بطريقة أستاذيّة لا تخلو من السخرية:

- قلتُ لك: أحَبُّ الناس لي أمي ومَنْ بالروح تفديني وليس أُحِبُ الناس لي أمي ومِن بالروح تفديني. صار كَمْ مرّة أشرحها لك!

***

واليوم وبعد عدة سنين مرّتْ والغربة الطويلة تعتقدُ أنتَ أيها العبقري أنك كبرتَ وصرتَ "مسنّفاً" يعني مثقفاً مولعاً بكتابة القصة القصيرة والشعر، و"شو عليه؟ كما يقول الأخوة الشوام، يعني "ليش لا" لست وحدك في اللعب، لست الأول ولا الأخير، ولكن الطامة الكبرى بقيتَ تجادلُ في أمور مُبتٍّ فيها صارت كالمسلّمات والبديهيات.

لا يزال الفطحل كعادته، لم يتغير فيه شيء، "ذاك الطاس وذاك الحمّام" كما يقولون، يستيقظ صباحاً، ينتظر قدومَ ساعي البريد، دودة لا تتحمل الانتظار، يَستَفتِحُ يومَه بالبريد كما يقولُ هو نفسُه.

قال له أحدُ أصدقائِه بمناسبة "الدودة" التي يعاني منها، هل تذكر تلك الطُرفة الشائعة عن شخصٍ مريض ذهب إلى الطبيب قائلاً:

- دكتور، إيدي انكسرت!

- اشلون انكسرت؟

- دكتور، آني صعدت على الدرج الخشبي ووقعت على القاع الإسمنتية وانكسرت إيدي.

- زين، خذ هذا دواء لعلاج الديدان!

كتب الطبيب الوصفة وأعطاها للمريض الذي بدت معالم الدهشة واضحة على وجهه فقال:

- دكتور آني إيدي انكسرت، شنو علاقة هذا بالدود؟

- إشلون شنو علاقته بالديدان؟ انت أصلاً ليش صعدت الدرج؟

- والله دكتور نسيت بالضبط، بَسْ أعتقد أردت أن أطلع فوق، للسطح.

- ليش؟ إش عندك فوق بالسطح؟

- دكتور، هذا صار تحقيق، آني أصلاً نسيت السبب!

أجابه الدكتور بهدوء:

- لازم تعرف إنّه لولا الديدان لما صعدت الدرج! خلّيك هنا بمكانك،

"ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع!".

اختَتَمَ صاحبُه طُرفَتَه قائلاً:

- خالي يسافر كثيراً إلى الخارج وفي كل مرة أسأله: أرجوك الله يخليك شوف الناس هناك في الخارج عندهم مثل نكتة الدود العراقية؟

وكل مرة يقول وكأنه يعيش في هذه الدول: "أبداً، ما عندهم، هذه نكته عراقية أصلية ما لها مثيل حتى في الدول العربية". غرق الجميع في ضحك جماعي تخللته تعليقات.

لكن أموراً كثيرةً تغيرتْ في حياة الفطحل فقد تعلّمَ تنفسَ الهواءِ الطلقِ ونسيمَ الحريةِ في البلدان الجميلةِ، وصار له مسكن خاص به له حرمتُهُ لا يدخله الغرباء بدون دعوةٍ منه لهم، ولا يزورُه إنسانٌ أينما كان بدون اتفاق أو دعوةٍ مسبقةٍ. ولهُ عنوان ثابتٌ وصندوق بريدٍ خاص به. لم يعد أحدٌ يسخر من شكلِهِ أو شعرِهِ الفاحمِ أو سَمار بشرتِه أو كِبَرِ أنفه وغلاظة شفتيه بل صار هذا ملاذًا لشفاه الأوروبيات الجميلات، وما كان يُعدُّ قبيحاً صار مبعثًا للإلهام والخيال والجاذبية بالنسبة للفتيات المهووسات، بينما صارت البلاهة والشرود وعدم التركيز واللباقة سبباً للتعاطف والمودة والمحبة ورمزاً للمسالمة.

تغيرت ملامح شكل الفطحل نحو الأجمل والأفضل إلا عينُه الكريمة بقيت كما هي عليه مختفية خلف النظارة المعتمة وخصلة من خصلات شعره.

كان يردد كثيراً "راحت أيام المزبّن وانقَضَتْ أيّامُ اللّف" وانتهت السنوات العِجاف، وصار الفطحلُ يَنعَمُ بكلِّ ما يتمناه المرء لكنها تبقى حالة كفاف وشكوى من ضيق الحال وقصر اليد اعتاد عليها بمرور الزمن.

***

الفطحل فـي بلاد الشمال

الناسُ الطبيعيون فـــــي هذه البلاد المُرَفّهة يذهبون إلى المدارس والمعاهد والعمل إلا هو يذرع شـوارعَ المدينةِ كلها، لم تبقَ زاويةٌ منها "تعتبُ "عليه، لم يَبقَ شـــارعٌ أو ســـابلةٌ أو طريقٌ أو جادّة أو دربٌ أو دربونة أو زقاقٌ أو ممرٌ أو حتى ممشى فـــي المدينة وحاراتها دون أن يمرَّ به جيئةً وذهاباً كما كان يفعل فـي شارع الرشيد حيث كان يحصي أعمدته كل يوم كما كانت والدته تعيّرُهُ ساخرةً منه!

تَأخّرُ ســـاعي البريد الشـــاب الأوروبي الهادئ، أو غيابُه أمرٌ خطيرٌ بالنسبة للفطحل، يلتقيه صدفةً فـي الطريق، يبادره بالسؤال:

- هل مِن رسائل لي؟

- لا، ليس لديك رسائل.

- ألا يمكنك أن تتأكد مرةً ثانية؟

- أنا متأكد، لقد وزّعت بريد بنايتكم.

يبتسـم له سـاعي البريد مودعاً إياه بغمزة عين ودية، يقتنع الفطحل مضطراً، يبدو الحزن على ملامح وجهه، يقول بأسى:

- ألف شكر، ألف شكر، ألف شكر،

ينظر إلى الأشجار العالية والغيوم، كادت تسقط من عينه دمعة.

سأله مرة ساعي البريد متعاطفاً معه، فيما إذا كان ينتظر رسالة من والديه أو من شـــخصٍ بعيد، كذَّبَ الفطحلُ، ردَّ عليه بالإيجاب متذكراً بـألمٍ بـأنـه لم يكتب إلى أهلـه منذ زمنٍ طويل متمتماً "أي أهل هؤلاء تركوا ابنهم الطايح الحظ والبخت "كسعفةٍ فـــي مهب الريح" كما كان مـدرس العربيـة يقول لهم أيـام زمـان، ولم يَســـتلمْ منهم لا خبر ولا "حامض حلو ولا كَفيّه!" منذ سـنوات "عاق!" قال لنفســه، كانت لديه رغبة فـي البصاق على وجهه.

استفسرَ منه مرة صديقه بهدوء وخبث ولكن بدون حقد أو ضغينة، ناظراً إليه نظراتٍ ساهمةً مُلملمًا شفتيه، شاعراً بالحرج، كأنه يبيّت له أمراً.

- بالمناسبة شنو أخبار أهلك، ليش ما تساعدهم؟

- انت فعلاً أمرك عجيب! آني المسكين أساعدهم؟ ثم انت ما تعرف وضعهم؟ الوالد أعدموه، والأم تحت الإقامة الجبرية، والأخ الفنان قتلوه، وأختي زوّجوها بالغصب لواحد ضابط بالأمن، وآني ما أعرف عنوانهم.

أجابه صاحبه فوراً ببرودٍ أكثر من السابق:

- كافي نفخ بعد، البارحة سألت والدي عن أهلك بالتِلِفون، وقال إنه يعرفُ والدَك المرحوم ويقول إنه مات موت الله من زمان وحالياً يلتقي بعمّك بين فترةٍ وأخرى، أعطاني عنوانكم وأنا كتبته وهذا هو خذ.

أخرَجَ صديقُه قصاصَةَ ورق وأعطاها له، ثم بادرَه قائلاً له بهدوء:

- وبالمناسبة أختك الكبيرة مرتاحة عائليّاً وزوجها رجل محترم جدّاً ويساعد الناس ضمن الحدود والإمكانيات، وهي صديقة أختي وكانت تشتغل وإيّاها معلمة في نفس المدرسة، أما أخوك الفنان فكان يريد يتزوج واحدة أهلها رفضوه، لأن ما عنده لا حرفة ولا وظيفة يعيش منها ولا شهادة، والبنت من عائلة غنية وهي جامعية، ويقولون هي ما كانت متحمسة له، بَسْ هو ركب العناد رأسه وصار يلح ويضغط عليها ويقولون تحرّشَ بها وصارت مشكلة وصوّبه ابن عمها بطلقة، بَسْ الحمد لله صارت الطلقة برِجله وعالجوه وكل شيء ماشي وهم يسألون عنك ويعتبون، يقولون ليش ما يكتب لنا ويبعث لنا عنوانه؟ هذا كل ما في القصة، وماكو داعي تسويها مناحة! يا رجل أنت من سائل عليك هناك؟ يكفي تبيع بطولات برؤوسنا! أهلك يقولون: صار لك سنين ما عندك صله بهم وأرادوا أن يقرأوا على روحك الفاتحة لأنهم اعتبروك في عداد الأموات!

كان الصديق يتحدث إلى الفطحل محرّكاً يديه نحو الأعلى والأسفل، ماسكاً رباطة جأشه، متظاهراً بقوة الشخصية والصرامة والصراحة والثقة بالنفس، بينما كان الفطحل واجماً، أصفر الوجه، مندهشاً كلَّ الاندهاش، صامتاً، لم ينبَسْ ببنت شفة، إلا أنه قطع فترة صمت قصيرة:

- يا أخي انت من أين لك كل هذه المعلومات؟ آني ما أعرف بيها، ثم آني ما طلبت منك تسأل لي عن أهلي، إشلون لقيت هذه الفكرة، إشلون والدك يعرف والدي؟ انت فعلاً تحيرني، وآني...

قاطعه صديقه قائلاً بحزمٍ وثقة أكبر من السابق:

- اسمعْ، انت ألف مَرّة قلت لي ولكل الناس، أهلك كلهم هلكوا وصاروا في خبر كان، هذا صحيح لولا؟ أكثر مِن مَرَّة قلت لك: آني أقدر أسأل والدي عن أهلك وهو أكيد يعرفهم، صحيح؟ لا تنكر ولا تعاند وانت تعرف بشكل جيد وكلّش زين أن والدي وأهلك أصلهم من نفس المدينة وآني قلت يجوز والدي يعرفكم. كافي مبالغات. والأنكى من هذا وذاك انتَ منقطع عنهم بحيث تصوروك مُتَّ شهيداً بطلاً في كردستان!

- لا ما أنكر، بَسْ يعني...

- لا بَسْ ولا هم يحزنون، آني كنت أحكي وإيّا الوالد بالتلفون رغم خطورته لأنه مراقب وانت تعرف المخابرات، وبالصدفة سألته عن أهلك، "باي ذَه وَيْ"، يعني بالمناسبة وإلا آني شنو دَخلي بالموضوع وشنو داخل بجيبي؟ بالعكس خسرت تكاليف المكالمة التِلِفونية، بَسْ قلت لنفسي خليني أقدّم له خدمة حتى بعد ما يسب ويشتم ويتعصب ويردد سمفونيته: واحد مقتول والثاني معدوم والثالث تحت الإقامة الجبرية، يا أخي تساهلْ، ليش تسوّدها وتبكي بوجه الله. انت تحب رسم الأدوار الكبيرة والتراجيدية لنفسك وتأليف القصص الدونكيشوتية.

- شُوفْ، انتَ تسخر، انتَ دائماً تقلّد، بَسْ صدقني هذه هي المعلومات اللّي وصلتني عنهم، يعني بيش تريد أحلف لك حتى...
- أخي لا تحلف لي ولا أحلف لك، روح أكتب لهم رسالة وابعث لهم كم فلس، أو على الأقل سلام، تحية، هدايا.

كانت الكلمات الأخيرة موخزة، هبّ منتفضاً:

- آني من أين لي فلوس أنت والله تحكي عجائب غرائب؟
- خلاص يا أخي لا تكتب لهم رسالة ولا هم يحزنون، راح أقول لهم انت فعلاً كنت في كردستان ومِتِت هناك راح أخبرهم أو بالأحرى أزف لهم البشرى: انتَ مُتَّ شهيداً في الجبال! والله يرحمك، انت تريد تبيع بطولات على أهلك، آني شنو دخلي بالموضوع، بَسْ ردت...

قاطعه الفطحل بصوتٍ هادئ وكأنه يسأل عن سر:

- المهم، قلْ لي: انت أعطيت عنواني لأهلي؟ أخبرتهم بأنه آني أعيش هنا؟
- طبعاً لا، تتصورني ما عندي أصول مثل بعض الناس؟ آني ما أعطيتهم لا عنوانك ولا رقم تِلِفونك، بَسْ هم يعرفون انت مقيم هنا ويريدون يكتبوا لك رسالة على عنواني حتى أوصلها لك، لا تتصورهم أغبياء. خلاص، آني دوري انتهى، لكن على الأقل ما راح اسمعْ منك مناحات ودونكيشويات لأن صرت أعرف حقيقتك. صحيح الحكومة تعتقل وتقتل الأهالي بالآلاف وتدمر وتسفّر الناس من البلد لكن من حسن حظ أهلك عايشين والحمد لله بَسْ يجوز هذا من سوء حظك لأن ما راح تقدر تبيع بطولات برأسي.
- انت تتمسخر، وهذا هو سبب استفسارك عن أهلي، انت قلت لي مرّةً بأني غير مطارد، انت يا أخي عجيب أمرك، انت تحيرني.
- **اسمعْ**، انت غير مطارد، وماكو واحد سأل عنك، بَسْ انت يا الرايحين وياكم ويا الجايين وياكم، تريد تعيش في جو ما يجيب لك غير الهَم والغَم وتكتب خطابات وتوقع بيانات معارضة ضد

الحكومات وبعدين تقول هذا البلد منعني من السـفر وذاك اعتقلني وآخر يريد يغتالني وأهلك بسببك يعانون من الخطر فـي الداخل. انت تريد تبيع بطولات براس أهلك! يكفـي عاد!

تطلّع الصـديق إلى الأمام كأنه لمح شـيئاً تذكره، ودّعَ الفطحلَ قائلاً له بعفوية مصوباً نظراتِه إلى عينيه الضبابيتين:

- آني عن إذنك، لازم أروح، عندي موعد، مع السلامة.

- مع السـلامـة، أرجوك، لا تخبر أي واحـد عن موضـوع أهلي، وبالمناسبة إذا أهلك اتصلوا بك مرة ثانية وسألوك عني قُلْ لهم آني فعلاً مِتِتْ بكردستان.

قالها بصـوتٍ كسير، حزين وملامح وجهه تفضـحُ قلقَهُ وتفكيرَه فـي أشياءٍ أخرى، ودَّ صديقه أن يقولَ له "موتَة الكلاب وبالقير وبالجهنّم!".

- اطمئنْ، بَسْ أنت سيد العارفين: حبل الكذب قصير!

***

كان الفطحلُ يَهمُّ فـي إحدى المرات بالخروج من منزله مع ضيفه، رآه ساعي البريد، بادره فرحاً:

- رسالة لك، تفضل!

- شكراً.

فَتَحَها وَلَمْ يُعِرْها اهتماماً، قالَ لمرافقه متذمراً:

- شفتْ؟ ماكو واحد يكتب لك رسالة فـي هذه الأيام لوجه الله أو حتى يقدم لك خدمة، بَسْ المحتاج يكتب لك، شوف هذا صاحب الرسالة يريدني أبعث له دعوة زيارة بالفاكس لا وفوق هذا يريدني أتصـل بـه هـاتفيـاً حتى أخبره بعض الأمور الّلي مـا تخصـني إطلاقـاً، يتصور الفاكس ببلاش هنا.

ردّ عليه مرافقه بعتابٍ ودّي:

- ولكن انت هَمْ طلبت من الآخرين المساعدات، نسيت؟ يا رجل الناس

لبعضها، أكيد هو سبق وساعدك، تساهلْ وإياه.

- لا، لا، هذا أمر مختلف تماماً.

- هذا حال الدنيا كما يقول المثل العراقي: "حِب واحكِ، واكره واحكِ".

وهل هناك أكثرمن العراقيين والعرب كلهم من العاربة والمستعربة، والأكراد والعجم والأتراك ومَنْ لَفَّ حولهم، من ينطبق عليهم هذا المثل؟

لَمْ يُصغِ الفطحلُ كعادته لصديقه، قاطعَهُ ناظراً إلى الأفق قائلاً له بهدوءٍ ورومانتيكية ممسرحة وصوتٍ شاعري مرهف:

- البارحة رحت إلى البحر، صَدّقني بقيت هناك طول اليوم، وكتبت قصيدة، خلّيني أقرأها لك، بالله عليك إصغِ لي، إصغ.

وبدأ الفطحلُ يقرأ قصيدتَه الطويلةَ لصديقه حتى أنهاها بهذا المقطع:

هناك...
عندَ شاطئ البحر
تَرقُدُ أيامي
هناكَ في الكوخ
تَستيقظُ أحلامي
فتعالي
يا حورية البحر
إلى منامي.

تنفس صديقُه الصعداء قائلاً لنفسه "الحمد لله"، لكنه والحق يقال أعجبَ بها وتعاطف مع الفطحل مبدياً امتنانه لما في ذلك خدمة هامة للثقافة العراقية بل العربية كلها وشجعه على نشرها في ديوانٍ خاص صغير.

أنهى الفطحلُ قصيدتَهَ متألماً متأففاً قائلاً بحسرة:

- تَصَوّرْ، هنا في هذا البلد! يخسرون الآلاف والآلاف على الإعلانات

وعلى البضاعةِ ويطبعونها أجمل طباعة، ولكن يا أخي جَرِّبْ واطلبْ منهم أن يطبعوا لك مجموعة شعرية أو حتى قصيدة، راح تشوف قدامك الوجوه البائسة وما راح تسمع منهم غير "ماكو فلوس، الوضع تعبان، الأمور صعبة، قد تسنح لك فرصة أخرى للنشر".

كانَ الفطحلُ حزيناً للغاية، تضامَنَ صديقُه معه، حاولَ أن يبرّر لَهُ الأمور:

- هذه صحف تجارية تهتم بالربح والخسارة وتحكمها قوانين العرض والطلب، لا تهتم لأمرها ولا لصحفيّها، عندهم كتّابهم وشعراؤهم وصحافيوهم المأجورون وعصاباتهم الخاصة بهم، إشلون يدخلونك وإيّاهم بدون التأكد منك.

بدا له أن هذه العبارة الأخيرة أعجبته، كررها بنفسه وخطّها بعود الثقاب على رمل الأرض أثناء جلوسه.

أراد صديقه المتعاطف معه أن يقرأ له قصيدةً يبدو أنها صارت استفزازيةً للفطحل، قال له:

- انت حبيب القلب، اسمعْ قصيدتي الجديدة.

- قصيدتك؟ انت تكتب شعر؟

سأله باندهاش في شيءٍ من السخرية نابِساً بشيءٍ ما بحزن:

- إي، طبعاً، أشوفك متعجّب. المهم، اسمعْ القصيدة بَسْ آني كتبتها في غرفتي لكن لا رحت لا للبحر ولا خطابة أو أصوات عالية أو خشبة مسرح أو منصة ولا هم يحزنون:

لي صديقٌ شاعرٌ عظيمٌ
يُراقبُ نفسَهُ من بعيد
بعيداً عن بيوتِ البكاء والندب والنواح والعويل واللطم
من منافيه، من فيافيه، من شُموسِه
يَسألُ عن الحبيب

أين البلبل الصداح؟
والغناء؟ أين طيور الحب؟
والكناري والزاجل والنوارس؟
هل رَحلتْ إلى أعشاشها أم إلى أحزانها محلقة فـي السماء
فوق البحار والمحيطات وجزر الكناري؟
يَنظرُ إلى روحه مرة،
يُراقبُ البحرَ فيها مرتين
مرة فـي الصباح، مع كأس شاي
مرة فـي المساء مع كأس الراح.
أين العندليب؟
أين غناء الهزار؟
ينظر إلى روحه مرة
يُراقبُ السماءَ فيها
مرتين
ثلاثَ مراتٍ
مرة فـي الفجر
مع طاسةِ ماء
يشربُها من جَرّةِ فخار
مرّةً فـي الصباح
مع طاسةِ خَمرٍ
يشربُها من رومية تَغزَّلَ بها أبو نواس
ومرة أخرى فـي المساء
وغيرها، وغيرها....

عاوَدَ الكَرّةَ مراتٍ ومراتٍ حتى وصل إلى القطرةِ القاتلة "يشربها بالقُندَرَة" كما يقول العراقيون الشعبيون، ولا تعجب من هذا الوصف الشعبي الموغِل في المحلية، فقد وجدتُ قبل مدة إعلاناً لشركة كبيرة تبيع الأحذية والمشروبات الكحولية وغير الكحولية، ومَنْ يتناولها من الجنسين من أصحاب الأقراط في الأذنين.

كان الإعلان على شكل بوستر كبير مرسوم فيه شاب جميل، وسيم، بهي الطلعة، يشرب سائلاً قد يكون عصيراً أو خمراً أو نوعاً من الأعناب ينسكبُ من حذاء!، لا تعجب يا صديقي ولا تندهش أو تستغرب فكل شيء مكرّس هنا للرفاهية والحداثة، والانطلاقة الشعرية، بحثاً عن الهزار، بحثاً عن الغناء ولكن دون جدوى.

إنه الحرث في الأرض البوار
إنه الخواء ولا مفر منه
لا وحى ولا قاعة ولا رِواق
في زمن النفاق.

كالعادة لم يَستمعْ الفطحلُ إلى الإلقاء، كانَ صامتاً شارداً متظاهراً بالإصغاء، كان التململ واضحاً عليه، لم يفهم طبيعة الإبداع، ولا حتى الاستفزاز. لم يدركْ التلميح. كان صديقه يريد أن يقول له أيها الفطحل إنك مصاب بجنون العظمة تكتب بهذه الطريقة، لكنك ظاهرةُ صوتية.

صَمَتَ الفَطحلُ. لم يَقُلْ شيئاً ما. قَطَعَ رفيقُه حَبلَ الصمت، قائلاً بنبرة بَدَتْ غريبةً:

- هذه القصيدة نشرتها صحيفة "الموت"، إي والله آني متفائل ولهذا أنشر في صحيفة لها هذا الاسم!

يُفاجَئُ الفطحلُ بالخبر، كان وقعه عليه كالصاعقة:

- بشرفك، إشوَقت نشرتها عندهم؟ عندك علاقة جيدة وإياهم؟

المهووسون لا يسمعون غير طنينهم ولا يقرأون، يكتبون ويكتبون.

طلب الفطحلُ منه حالما انتهى صديقه من القراءة أن يسمع له قصيدةً أخرى قائلاً:

- اسمعْ التكنيك الحديث، إنه أوج الحداثة، اسمعْ هذه الغنائية:

التفاحةُ

لن تعشقَ

الحديدَ

فهل تسقيه يا

برتقالة، يا برتقالة

هَيلَه يا رمانة، هيله يا رمانة!

الخوخ

لن

يعشقَ

الخشبَ

فهل تسقيه

يا رمانة، يا رمانة، يا رمانة

قال الفطحلُ لصاحبه:

- لاحِظْ الإيقاعَ الشعري والرمزَ والتراثَ والموروثَ الشعبي والتطور الصناعي والمديني في مفردات الحديد والخشب وحضور المرابع الخضراء والريف في كلمات مثل الخوخ والبرتقال وهيله ورمانة.

هكذا ختم قصيدتَه بتعليقٍ عمومي ثم أردف قائلاً بعصبية:

- ولكن مَنْ يسمع ومَنْ يقرأ؟ صدقني آني راسلت وبعثت مئات الرسائل والمقالات والقصائد للصحف ولكن ما استلمت ولا جواب عليها، يا أخي آني لحد الآن ما أفهم هذه الصحف والمجلات واشلون عندها هيجي إدارة سيئة لا احترام للمثقفين ولا الشعراء،

يا أخي إحنه نحمل هموم العالم على أكتافنا وَهُمّه ما يبالون لكل هذه الخدمات والمسؤوليات الكبيرة الّلي دَنسوّيها.

يا أخي المشكلة العويصة هي همَّه ما يردّون على رسائلك إذا ما يعرفوك شخصيّاً أما الأجانب فهُمَّه بالحقيقة يردون على كل رسالة تصلهم.

وقبل أن يُكملَ حديثَه العاطفي الحماسي والحزين قال له محدّثه بهدوءٍ ومواساةٍ كأنه يخاطب طفلاً:

- ولكنهم هنا يردّون على الرسائل بَسْ مو بالضرورة بالإيجاب.

قاطعه قبل أن يكمل حديثه:

- صحيح، ولكن المشكلة التي وقعنا فيها هي أننا بين فكين وكل فك عنده شروطه حتى يأكلك.

- إي، نعم، بين المطرقة والسندان، لكن بالله عليك انتَ بيك شيء يأكلونه؟ انتَ إنسان مهشّم، عفواً أقصد مهمّش، تعيش على هامش المجتمع وصرت مثل الهشيم، أهل البلد يقولون عنك، عفواً أقصد عن أي غريب: دَبِق، طفيلي يعيش على ُفتاتِ موائد الآخرين!

وغرقا في ضحكة عميقة. لم يَأبَه الفطحل بِسُخرية صديقه، تقبّلَها برحابة صدر، كان فرحاً وطيباً ولكن ماذا عساه أن يفعل؟

رَدّدَ له بلهجة خطابية ساخرة:

- هذا هو زمن الخراف وحزن الفولاذ يا أيها الفطحل الفولاذي. وأنت ظاهرة صوتية لا تزال تكتب وتكتب، فهل هذا صحيح؟ أنت مواظب على جهودك الجليلة ولكن من أجل من ومن يستحق؟

***

الفطحل والفيزيت كارد

شيئان آخران كان صاحبنا العبقري الفطحل مولعاً بهما، يفكر بهما السـاعات واللّيالي: المكتب والفيزيت كارد، يعشـق الفطحل بطاقةَ الزيارةِ أو زيارةَ البطاقةِ كما يقول فـي أشعاره، مكتوب فيها اسمه ولقبه وعنوانه ورقم هاتفه وتنزوي هناك بخجل كلمتان: كاتب/ إعلامي. يتفحصها الفطحلُ بإعجابٍ صباحَ مساءَ، كان بودّه أن يكتبَ عليها كلمة: شاعر، لكنه لم يرَ شخصاً فـي حياته كلها قام بذلك، لم يسمع أن أحداً لديه فيزيت كارد مكتوب عليها شاعر. أن يقولَ المرء عن نفسه: شاعر كَمَنْ يقولُ عن حالِه: أنا إنسان طيب، أنا إنسان خَيِّر، أو جيّد! كَمَنْ يَمدحُ نَفسَه، ومَنْ مَدَحَ نفسَه ذَمَّها. تطلّعَ مرةً ثانية إلى بطاقته، غمرته السعادة مرةً أخرى، شَعرَ بنفسه أنه امتلك العالم كلَّه بها وأن أبوابه ونوافذه مشرعة أمامه وأن طموحاته وأحلامه الوردية تحلق منطلقة مع أسراب النوارس فـي السماء، يتخيلها بكل اللغات، شعر بالأسى والغصَّةِ عندما تخيلها بتلك اللغة التي يعرف قراؤها الأصليون هذه الأمور متمتماً بين نفسه "راح يقولون عنها: خزعبلات"، مَنْ سيصدّقه ومن سيعترف به؟ وَتَعاظمَ حُزنُه عندَما وقع في حيرة أسمائه المستعارة.

قال الفطحلُ لنفسه بشيءٍ من الإحباط والأسف والأسى: "هؤلاء العراقيون لا يعجبهم العجب، ولا الصيام في رجب، يسخرون من كل شيء". بَصَقَ الفطحلُ على الأرض النظيفة بصقتين، نظرت إليه امرأة مرت بجانبه نظرة شزر غاضبة، شعر أن عينيه كرتان صلدتان تقدحان شرراً، ودّ لو يراهما فـي المرآة ويَنظرُ إلى وجهه الشاحب وحالة الوجد، التي يعاني منها.

تَذكّرَ الفطحلُ والدَتَه، كانت تريدُه أن ينجح في المدرسة وينتقل من صفٍ إلى آخر مثل التلاميذ الآخرين ويضمن مستقبله، ولكنه كان

كثيراً ما يردد "مَنْ سيكتب الشعرَ إذا إنشغلت بالواجبات المدرسية؟ بينما كانت أمّه تقولُ له "الشعر كلام فارغ، ما يُوكّل خبز يُمَّه حبيبي، الله يهديك ويخليك لي، اهتم بدروسك، إحنه ناس فقراء على كَد حالنا، أصلاً أمورنا أقل من كَد الحال يا ريت لو تشوف لك شغل بأيام العطلة، ابني حبيبي أروح لك فِدوَة". كان يناجي نفسه متألماً: "لو كنتِ يا أمي بنت رجل غني، لو كان عندي أب حي من المدينة ولَه أصدقاء ومعارف بيهم خير. تفو عليكم. بالله عليك يا يُمَّه "طايع" اسم أوادم حتى تختاريه لي؟ ليش لازم أطيع؟ آني لا طايع ولا مطيع، شنو ذنبي؟ كأنما كنت تريدين التلاميذ أن يسخروا مني ويضحكوا عليّ ويغيّرون اسمي من طايع إلى طايح ويقولون كلما يقرأ المعلم أسماءَنا، ينادي باسمي: طايع! فيردّدون بعده بكل صلافةٍ:

- يا طايع؟ أستاذ، تقصد طايح؟ طايح حظّه!

والله أنتِ أمرك عجيب يا أمي!

لكن لا بأس من الفيزيت كارد، راح تعرف به أمي، وراح تعرف آني صرت من المشهورين".

وشَعَرَ بالقلق فجأة خائِفاً من القال والقيل واستفساراتِهم التي لن تنتهي عن سبب اختفائِه أو انقطاعه عنهم، سيقولون له إننا اعتقدنا أنك متَّ وأردنا أن نقيم العزاء ولكنهم حتماً سيهدؤون فيما بعد، إلا أن قلقه تعاظمَ وخشِيَ أن تطلب منه أمه وأهله إرسال المعونات المادية إليهم، لِمَ لا، أليس هو مشهوراً؟ هذا يعني أنه غني! ثم تمتم بين نفسه بمرارةٍ. "لكن فيزيت كارد بدون وظيفة حقيقية؟ بدون شهادة؟ بدون مكتب؟" وتابع يردد مبتسماً "راجِعني في المكتب! راجِعني للمكتب!" متخيلاً نفسه يقول ذلك للآخرين وكأنهم زبائنه وهو يجلس أمام منضدته.

إذن لا بد من المكتب، المكتب، المكتب هو الجاه والسمعة، آه المكتب، سألَ كلَّ معارفه عن غرفة للإيجار تَصلُحُ أن تكون مكتباً له.

الناس فـــي هذه البلاد أساتذةٌ فـــي الشكوى من الفقر والقحط والضرائب والمساعدات الاجتماعية بينما يبحث هو العاطل عن العمل عن مكتب يتفاخر به وسط العاطلين والمهشّمين والمهمّشين المنبوذين، هم يعلمون أنه عاطل يعيش على الإعانات والصـدقات والديون فكيف إذن لا يسخرون منه.

قال عنه أحد المشـاكسـين الحاقدين عليه وعلى الغيوم والأمطار والضباب والكآبة فـــي هذه البلاد: "يبحث عن مكتب لكتابة قصائده الجهنمية!"، وقال فيه شعراً معارضاً ومحاكياً إياه، ساخراً متهكماً ألقاه فـي المقاهي ومجالس النفاق وألصقه على الحيطان فـي كل مكان:

أيها الفطحل
الشاعر الولهان
الفولاذ
أما زلتَ تكتب الهذيان؟
وتسميه شعراً بكل زور وبهتان
ولكن ما عساي أن أف
عَلْ
أيها ال
فَط.....حلْ؟

إنه الزمن الفطحلي لا وجود فيه لا لعدالة المســتبدين ولا الجبابرة والملوك والبحر،

عدالةُ البحر
أن يحلّقَ النورَسُ
عالياً فوق فوق
يهبط ليلتقط القشَّ من رغوة الأمواجِ

آه من الرغوةِ
عدالةُ البحرِ أن يعوم الرجل
يضربَ الأمواجَ بيديه
يرفس سمك القرش بقدميه
وينفخ فـي الرغوة.
عدالة البحر أن ترقصَ الحوريةُ
وتطربَ على الأنغام
أيّ بَشر هؤلاء؟ أيّ أنام؟

كان الفطحل مغرماً بالزُرقةِ والبحار والأمطار والمقاهي والحديث عن سيمون دي بوفار، عسى ولعلَّ يتحول هو إلى سارتر، أين المقهى وأين النادل الذي كان يلتقط القصاصات من سلّة مهملات سارتر وأين القراء وأين هي الأشياء المفقودة؟ يعض شفتيه حزناً. ويشرد فـي عالم الطفولة والفقر والحرمان.

***

الفطحل وقلب الأم

ظل الفطحلُ يَحلُمُ بأمٍّ بديلةٍ معبراً عن اشتياقه إلى تلك الوالدة الحقيقية المسكينة البعيدة عنه الآن، كانت أمه فقيرةً وكان يسألها عن الطعام كلما يشعرُ بالجوع، تُعدّدُ له قائمةَ الأكلات على طريقتها الخاصة: "الكباب والمَباب والسلاطة والملاطة". هذه لازِمَتُها الدائمة تردّدُها على مسامعه كالأسطوانة يومياً.

يُعصّبُ عليها ويشتُم أكلاتِها الوهميةَ، فتردُّ عليه بأعلى صوت ليسمعها الناس علّه يبحث عن عملٍ له ويعيلها إنْ كان لا يستطيع الدراسة:

- يُمَّه ما عندنا أكل إذا ما تعجبك أكلاتي رُح عيني يا ابني للمطعم!

يهرب منها. يخرج حاملاً دفاتره وكتبه المهلهلة، بعد أن يمشّطَ شعرَه الكثَّ الأشعثَ ويدهنه بزيت لمّاع.

ولهان هذا الفطحل بالجيران والبطات الحلوات ويدندن في نفسه: "قولوا له، قولوا له الحقيقة، بَحِبُّه، بَحِبُّه من أوّل دقيقة". كانت والدته القصيرة البطينة، واقفةً ترتدي ثوباً مهلهلاً تنظر إليه بتوسلٍ وتقولُ له بِسُخريه ضاحكة مغطّيّةً أسنانها بكف يدِها اليمنى:

- **عاشِق** ومفلِسْ! صُرُم بارَه! أروح صَدَقَه لهذي الكفشه!

تَذكَّرَ الفطحلُ والدتَه شاعراً بالأسى والحزن والسخط على حظه العاثر قائلاً لنفسه: المفلس لا يحق له حتى العشق، أي ظلم هذا؟ معلوم! الفلوس تجيب العروس. والمعطف المطري؟ والنظارات السوداء؟

هذه أشياء كانت بالنسبة له حلماً ولكن كل هذا موجود اليوم. ها هو اليوم يتنّزه في شوارع نظيفة تغسلها الأمطار. تغيرت الظروف وانتهى زمن الإفلاس والحب.

اليوم صارَ يلبَسُ النظارةَ الشمسية رغم الغيوم والضباب، ينقرُ

بخنصرِه أو بنصرِه الأبوابَ الزجاجيةَ المبللة بقطرات المطر، ولا أحد يفتحها له، هؤلاء الناس هنا لا يفتحون أبوابهم لمن يطرقها بلا مواعيد. إنهم يوصدونها ليستمتعوا بأوقاتهم كما يرغبون، لا مضايقة هنا ولا استباحة ولا ذل ولا طغيان. بيوت الناس هنا كالقلاع لها احترامها وحرمتها ولا مكان هنا لكرم الضيافة للزائرين الطارئين بغير مواعيد.

يتوقف عند كل المحطات ويطول الانتظار فيعود أدراجه خائباً متذكراً والدته وبلاده وأعمدة شارع الرشيد ورجال الأمن يقفون خلفها يراقبون حركة الناس والسيارات كما كان يتصور.

تَذكّر الفطحلُ أهلَه كلَّهم بألمٍ شاعراً بغصّةٍ، أرادَ أن يتذكّرَ الأيام السوداء والسنين العجاف، رغب بالبكاء. بكى كثيراً وتذكر الفقر ونظريات الصراع الطبقي والفكري والأدبي والنضالات واستعرض فترات حياته.

***

كانت زوجته الطيبة مخلصةً له، تستنسخُ أشعارَه وقصصَه ليلاً نهاراً، لكنه طلَّقَها بعد الحب والغرام تاركاً إياها وحيدةً في أحلك ظروفِها وغربتها بعيدة عن أهلها وديارها، الذين ضحّت بهم في سبيل حبهما.

تَذكَّرَ كيف حاول أحد معارفه أن يثنيه عن طلاقه لها قائلاً متوسلاً:

- ليش يا رجل هذه زوجتك، حبيبتك ألهمتكَ القصصَ والشعر؟

- ما أطيقها بعد، خلاص لازم أنتقم من البرجوازيين هي برجوازية.

حاول الجميع أن يثنيه. لكن دون جدوى. قال له أحدهم غامزًا لامزًا:

- يا أخي ليش ما تصبر على الأمر، على الأقل هذه زوجتك وقفت معك بمحنتك وأعادت كتابة نصوصك، أجّلْ الحقدَ الطبقي لفترة مؤقتة، أنت ما قرأت عن فن الحقد الطبقي، ما تعلمته؟ وبالمناسبة "هي امرأة برجوازية" عنوان جميل لقصة يا ريت لو تكتبها، شنو رأيك؟

وهنا انبرى الفطحل يُقرّع صاحبَه ساخطاً، معاتباً بعصبية بادية

على وجهه، ناظراً إليه بحدّة:

- اســـمعْ، انتَ بالذات أريدك تحكي وإيّاي بطريقه أخرى، آني يا أخي منغلق على نفســـي، منغلق على الناس وما أريد اســـمعْ منهم، آني هائم، غائم، تعرف شنو هائم؟ هائم فـــي براري الروح، ومزاجي غائم وأنتَ منفتح على الناس، وهذا هو ســـر تعبك، أنصـــحك من الآن فصاعداً، لا تدوخ رأسك بالآخرين.

ثم أردفَ متابعاً بطريقةٍ خطابيةٍ وهستيريةٍ وكأنه يتحدث إلى التلفزيون:

شـــوف، قبل مُدّة أجريت مقابلة مع أحد الكتّاب وقال فيها: الرجل اللّي يبلغ الأربعين ويبقى شخصية منفتحة على الناس، هذا لا يفهم من الحياة شـــيئاً. آني منغلق على نفســـي ومبتعد عن الناس وأنا حالياً بالعشرينات من عمري! معنى ذلك أنا متقدم عليهم بعشرين سنة، هذه هي الحقيقة بلا رتوش وبكلِّ تواضع، لازم تفهم آني إنسان غير عادي، موهوب ولازم أســـتغل موهبتي، أنا أقرأ الشـــعرَ من طفولتي، أختي تكتب قصـــص عظيمة، أخي فنان، شـــهيد، أمي فنانة، آني فنان مشروعي ضخم، ضخخخخم وأكبر بكثير مما تتصور.

صحيح والدتي إنسانة أميّة، لكنها كانت تحلم، وانتَ خير من يعلم قيمة الأحلام، وفعلاً أختي معلّمة بَسيطة وصارت أم بيت مسكينة، مشغولة بالطبخ والنفخ والأطفال لكن حياتها كلها حكايات، ولو توفرت لها الظروف كان كتبت القصص والأشعار وصحيح أخي استشهد وهو فنان شـــاب لكن لو قدر له وعاش لكان مبدع عظيم، أســـطورة، آني فنان ومشاعري جيّيياشة، لازم أغيّر العالم.

كان الانفعال بادياً على ملامح وجه الفطحل وكانت تتغير بِسُـرعة وبدا من صديقه أنه أراد أن يضع حدًّا له ويساعده، قال له صديقه:

- اسمعْ، لا تُلقِ علينا محاضرات شبعنا منها وتغيّر الموضوع، ثم كلهم يقولون أخوك الفنان المناضل بعده حي، ليش تموته؟ ووالدتك

ربّة بيت أمية لا فنانة ولا كاتبة لكنها أم عظيمة وأختك معلمة أحسن منك تخرجت من الثانوية ودار المعلمات بَسْ انت مستهين بها، يقولون زوجها يعمل في الأمن لكنه رجل طيب و...

- أبداً، هذا هو صلب الموضوع، زوجتي هذه حجر عثرة بطريقي، أريد أزيحها من حياتي، واحدة برجوازية سخيفة، ما عندها كل نظرة للحياة.

- طيب، طيب، تريث، أجّلْ الموضوع، إلى أن تلتقي بأهلها، كان المفروض أن تحسم هذه الأمور قبل سفركم من الوطن ومجيئكم هنا...

- بالعكس، لو طلقتها هناك، كان ما قدرت أسافر إلى هنا، كان تَغيّر كلُّ شيء وكان رفضوا سفري إلى الخارج عقاباً لي. أنت تعرف طريقة تفكير جماعتنا العراقيين يرفضون الطلاق! مستحيل، لا بد من الحسم الآن!

وانتهى كلّ شيء. هي من عائلة برجوازية تافهة وهو إنسان مبدئي في صراعٍ دائمٍ معها. يبدو أنها لن تكون زوجته الأخيرة.

***

هروب الفطحل من بلاده

كان الفطحلُ يَشعُرُ بشيءٍ أكثر من الألم والحزن والأسى والغصّةِ والمرارةِ والإحباط عندما يتذكر كيف كان يتسكع في شوارع بلاده، يرتاد مقاهي الكتّاب والشباب اللّيبراليين والوجوديين واليساريين أو المتظاهرين بكل هذه الصفات بدون أن يعرفوا كنهها حق المعرفة، يختلط بالطلبة الجامعيين في مقاهيهم المشهورة المطلة على شاطئ نهر دجلة الجميل، يُعجب الفطحلُ بهم، بطريقتهم في حمل كتبهم وحقائبهم والحديث عن الظواهر الاجتماعية، يُقلّدهم كثيراً كالقرد، يصاحبهم، يتكلم بصوتٍ عالٍ مسموعٍ عن موضوعات خطيرة، لم يكن رجال الأمن يلقون له بالا أيام زمان، كان هذا يغيظه كثيراً.

كل الشباب الجامعي المنتفض المطارد شَدَّ الرحالَ هرباً إلى هنا وهناك إلى العواصم، باريس، روما، موسكو، صوفيا، بودابِسْت، بيروت، الشام. قال الفطحل لنفسه: "ليش ما تسوّي نفس الشيء، تصير مثلهم، حالك حالهم يا رجل؟" وفكّرَ بأن يكتبَ قصيدةً تبدأ بعبارة: "ألَمْ تطاردك أسراب الجراد؟".

أسراب الجراد كانت تسخر منه "ماكو بِه ولا قطرة دم"، كان يقول لنفسه "حتى أنتِ يا جرادة؟". عَمَلَ مثلهم، أو بالأحرى قلّدَهم، توجَّه إلى صوفيا، صوفيا في القلب، والقلب في صوفيا ثم إلى بيروت والعكس، تتكرر الفكرة يا إلهي فكرة شعرية جميلة لا بد من تسجيلها:

آه بيرووووت

بيروت في القلب

والقلب في بيروت

لا ليس كذلك، لا أبداً، لا بد من تمزيقها، لا بد من تمزيق هذه القصاصة، ألم يمزق دوستويفسكي وسارتر الأوراق تلو الأوراق،

لكن لا بد من كأس وجلسة سمر شاعرية فيها أضواء حمراء قد تجلب لي الآلهات من عبقر.

آه من بيروووووت

إنها أجمل الآن من

جنات عدن

آه من

بيروت

وبيروت في القلب

والقلب في بيروووووت

عند الزيتونات

والأحراش والفاكهاني

والحمرا والروشة

وإطلاقات الشهادةِ

واليافطات والأشرطة الحمراء المربوطة في السواعد السمراء

وعلى الجباه وحول الأعناق

"يا إلهي وصلتُ إليها، هذه هي اللمحة عفوا اللحظة الشعرية، هذه هي الذروة الشعرية، هذه قصيدة جميلة راح أنشرها في جريدة "الفكر"، لا في صحيفة "العمل"، لا، خلّيني أبعثها للجريدتين، من يدري، إذا رفضت الأولى نشرها راح توافق الثانية".

ثم قال لنفسه متشائماً بنبرة محبطة: "ويجوز كلهم يرفضون، من يدري، ولكن إش راح يصير إذا نُشرَت القصيدة بالصحيفتين؟

هذا سؤال خطير يثير المشاكل والفضائح، وثم ماذا؟ راح أقول: بعثتها عن طريق الخطأ، يحصل في أحسن العوائل، ثم ليش ما نفترض أنهم في الصحيفتين راح يعجبون بالقصيدة فينشروها كلهم

فـي وقت واحد للسبق الصحفي؟".

نُشرت "المعلقة الفطحلية" فـــي الصحيفتين و"گـــبّتْ العيطة" وانتشر القيل والقال. صحفيّو "الفكر" قالوا معاتبين لأحد المسؤولين المناضلين الحزبيين من مواطني الفطحل:

- نِحنَ ما كنّا نتصـــور الأمور بهذه الدرجة من الوضـــاعة، نحن قلنا خلّينا نشـجّع هذا الشـاب المناضـل المسـكين حتى لا يبقى حزيناً ويشعر بالغُبن عندنا فـــي بلادنا وكان هو أي واحد يلتقي به يقول له: أنا كاتب عراقي شاب، أنا كاتب عراقي شاب! أنا كاتب عراقي شـاب! ونِحنَ فـــي الحقيقة زعلانين عليكم، وكان المفروض أن تنبّهوا رفاقنا فـــي المكتب الصحفـــي حتى ما يتعاملوا معه لأنه غشاش. مَنْ غَشّنا ليس منّا، مِش هيك يقول المثل؟ مِش معقول هيك يعمل فينا يا جماعة.

أما صحفيّو جماعة "العمل" فكانوا حقّاً مستائين للأمر، قالوا:

- أبداً هذه ما أخلاق مثقفـــي الطبقة العاملة، مينْ قال إن هذا كان من الشغيلة؟ نحن فـي الحقيقة اعتمدنا على الثقة وتزكية رفقاتنه، نحن ما راح نسكت عن الموضوع ولازم نطرحه فـــي اجتماع المكتب الصحفي.

انتشرَ خَبَرُ نشر القصيدة نفسها فـي صحيفتين كما تنتشرُ النارُ فـي الهشـــيم. ذلك اليوم أصـــبح عيداً للمتحاملين والحاقدين والمناكفين والناقمين والمشـاكسـين والملاسِـنين والمشـاغبين والمنافقين والعذّال والحُسّـاد من الذين لا شـغل لهم ولا عمل غير مناكفته والسـخرية منه، أصـابهم الذهول فـــي الّليل والنهار، غَمرتهُم الفرحةُ، كأنها ماء بارد ونزل على قلوبهم، كما يقول المثل.

***

كان هؤلاء الناقمون العذّال المشـاكسـون يلتقون فـــي المسـاءات الشتوية الطويلة فـــي مقهى خاص بهم، يجتمعون ويدخنون ويشربون الشاي ويتحدثون فـــي السياسة، والفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع،

أحدهم كانوا يسمونه الرفيق أبو أرق، كان هذا الشاب يقضي لياليه في السهر والشِعر والنقاش ولا يَنام، قال رامشاً أهدابه:

- هذا إنسان معروف بترهاته وخزعبلاته.

وقال آخر، كانوا يسمونه أبو الدود، كان يقرأ كثيراً ويأكل بشراهة ولا يسمن:

- هذا كان نجار ويريد يصير شاعر برؤوسنا.

بينما تَمتَمَ الثالث، أبو خشم المكَروط:

- لا، يا ريت نجار! هذا بي عار

وقال آخر منصِف وشريف، لكن ليس بدون خبث وكلام مبطن:

- يا جماعة الخير ارحموه، ساعدوه، إحنه كلنا طلعنا من ظلم الطاغية، إحنه ناس مصيبة واحدة ولازم نتضامن، يجوز صارت الشغلة بالخطأ وليش النجار والحداد والجايجي أوالقهوجي ما يصير يكتب الشعر؟ عسى ولعل يحالفه الحظ ويخلص من حالته المأساوية.

كان نفرٌ من الزعلانين المنشقين عن هذه المجموعة الحزبية، الناقمين الموتورين يجلسون لوحدهم في إحدى زوايا المقهى مرددين: الشاي خمر المناضلين، يشربونه متثاقفين ومتناقشين بالسياسة والحالات الثورية وإسقاط السلطة بالكفاح المسلح، متنصتين بأطراف آذانهم إلى الحديث غير ميّالين للمشاركة وإياهم. أحدهم ردَّ على آخرِهم:

- أيباه... خوش طيز هذا إذا ما طلع عميل مخابرات أقطع إيدي.

رَدَّ عليه أحد الموضوعيين دفاعاً عنه:

- ولكن شنو علاقة المخابرات بهذه القصيدة اللّي ما جابت لصاحبها الخائب غير المشاكل؟ خلّونا يا جماعة لا نقسو عليه مثل الطاغية، خلّونا نكون حنينين متضامنين وشويّه متعاطفين مع بعض، ديروا بالكم ليصير عندنا مرض السادية والقسوة الهرمي يبدأ من فوق، من قمة السلطة، يعني من الرئيس والمسؤول والحزب وبعدين من الأب

والأم والأخ الأكبر ثم الأصغر، كافـي عداوات!

لم يَلقَ هذا "المحامي" أذنـاً صاغيةً وسط هؤلاء الذين ينظرون إلى الأمور بالأسـوَد والأبيض. الجميعُ مشـغولٌ بقراءةِ الصـحفِ وتعليقاتِ النميمةِ. منذ ذلك الحين صـاروا يطلقون عليه مختلف الألقاب: الفطحل والعبقري وبعضـهم كان يعرفُ اسمه الحقيقي طايع أو طايح لكنه غير متأكد من الأمر تماماً وهُم يلاحقونه، وأصـبح شـغلهم الشـاغل. من أين له هذا الفطحل المســكين كل هذا الصــبر والقوّة على التحمّل؟ يكذب ويكذب ويرد على الآخرين بصلافة!

***

الفطحل كريم العين

الفطحل كريم العين! الناس يسمونه الأعور! وبعضهم من غلاة السفهاء يناديه بصيغة التصغير "الأعيور"، ويسمونه الأعور الدجال سخريةً منه! ومرّات يقولون عنه موشي دايان.

الجميع يؤكد أنه أعور، كريم العين بالولادة. في طفولته كانوا يسمونه إبن حليمة الأعور، وكان يتألم كثيراً في داخله رغم تظاهره بتقبل ذلك بأريحية وبضحكٍ متواصل. هذا موضوع آخر كانوا يتندرون به قائلين عنه: تَكْ عين وشاعر؟ يعني شاعر بعين واحدةٍ، تَكْ عين وقصّاص، بالتأكيد ستكون نظرته للمجتمع قاصرةً لأنه ينظر إلى الأمور بعين واحدة، وإلى آخره من السخافات، التي كانوا يلهون أنفسهم بها في جلسات سمرهم.

أحدهم ذكَّرهم بحامي الهدف الشهير رديف جَندَل قائلاً لهم:

- "شوفوا رديف كريم العين ومع ذلك الناس يحبّونَه ويعتبرونَه أحسن كَولـچـي"، فما كان من الشباب إلا أن غرقوا في الضحك بينما ردّدَ أحدهم:

- راد يكحّلها عماها، هاي الطامة الكبرى مال العراقيين، أكو واحد تَكْ عين يصير حامي هدف مضبوط؟

كان الفطحل يسمع صوتاً في داخله يواسيه معاتباً هؤلاء المنافقين "يا ترى ماذا يمكن أن يعمل المرء لهم لكي يوقِفهم عند حدّهم؟ ناس لا يخافون ربهم، والمثل يقول: الّلي ما يخاف من ربّه، خاف منه".

كان الهازئون الرافضون يقولون إن الفطحلَ يصرُّ على أنه خدم العسكرية كضابط احتياط لأنه خريج جامعي وأنه عُومِلَ كفنان ويقول إنه أُصيب بشظية أثناء تصويره لعملية عسكرية على الجبهة، وإنها كانت مقصودة من المخابرات لأنهم اكتشفوا صِلاتِه القوية بالحركات

السريّة وأرادوا أن يتخلصوا منه.

لا أحد يعلم فيما إذا فعلاً كان الفطحل قد ذكر هذا المقطع من سيرته الذاتية أم أن المنافقين قوّلوه إياها، ولكن على أية حال لا أحد بالطبع يصـــدّق روايته هذه. الجميع يؤكد أنها مجرد ادعاء من ادعاءاته وخزعبلاته الكثيرة ويقولون عنه إنه أعور العين، بالعراقي الفصـــيح يعني: "سلاحسِز!"، لم يخدم بالجيش رغم فشله فـــي المدرسة وطرده منها. وكانوا يقولون عنه ساخرين: هذا واحد سلاح سِز وحياسِز، يعني غير قادر على حمل السلاح ولا أخلاق له.

أما طليقتُه الهادئة الرزنة فكانت تبتســـم كلما تســـمع مثل هذه التصريحات والتعليقات، لكنها تعقب مدارية الموقف قائلة وتكشيرتها أوسع من حَدقَتَيْها:

- لا، ها، يعني، هذا صـــحيح، بَسْ مو مشـــكلة، ها.. يعني.. النتيجة واحدة.

أما المسؤول الحزبي المشهور باسمه الحركي أبو سجون فيُسِر لبعض المقربين ممهدًا لسفر الفطحل من بيروت إلى بلغاريا:

- على أية حال، هو من عائلة فقيرة، أمه كانت تخفـــي رفاقنا الهاربين ولازم ندعمه، يعني حرام عليه يروح يعالج عينه ببلغاريا ويدرس دورات حزبية بمدرســـة النقابات؟ مسكين ظروفه ما ســـمحت له يدرس بالمدرســـة ويكملها بالعراق، أموره كانت صـــعبة، خلّيه يدرس على حساب البروليتاريا، زوجته رفيقة متعلمة، ومن عائلة مناضلة قديمة، والدها كان يتبرع للحزب، وهي راح تفيد المنظمة الحزبية هناك وهو راح يأخذها ويروح وإياها. يا رفاق تســـاهلوا وإياه، هو إنســـان فقير ويتيم وتقدرون تقولون: مقطوع ويعاني من الشرود الذهني وقلّة التركيز من طفولته.

***

وهكذا، يستعد الفطحل للسفر إلى صوفيا ولكن لغرض صحي، والعلاج فقط وليس لوحده بل مع زوجته. يبدو أن هذا كان شرطاً، كما يدّعي"الثقاة" في سيرته الذاتية.

واختلفت الأقاويل والآراء، إلا أن الفطحل أكد هذا الشرط في إحدى جلسات السمر:

- شَرَطوا عليّ آخذ زوجتي معي إلى صوفيا.

كان يحز في نفسه أن يخبرَ الناس بأن سَبَبَ سفره إلى بلغاريا هو العلاج وليس الدراسة كباقي الشباب، وأي علاج هذا؟ عينه؟ هل سيقول للحاسدين والساخرين منه إنه سيعالج عينه الكريمة في بلغاريا وماذا سيفعلون لها؟

كانت تلك الأفكار والآلام تغلي في صدره غلياناً حرمه من النوم طوال اللّيل ولم ترقد له عين حتى قَرَّرَ أن يَذهبَ في الصباح الباكر إلى المناضل أبو سجون ليحسم الأمر معه، سيتوسل إليه أن يوافق على أن يكون غرض السفر الدراسة وليس العلاج.

- رفيق آني مضطر للتمويه والصيانة.

نظر إليه الرجل الوقور أبو سجون ذو الشعر الأشيب، غائر العينين نظرة أبويّة حنونة متذكراً والدة الفطحل التي أخفته في دارها قبل أكثر من عشرين سنة رغم أنها كانت وحيدة مع أبنائها حيث كان زوجها يسافر. تطلع إليه وكأنه يتحدث إلى ابنه حقّاً. سأله مبتسماً:

- شنو قصدك، صيانة؟

- صيانة! تمويه والحفاظ على الأسرار، يعني من الأفضل أصرّح، آني مسافر للدراسة، لدراسة الصحافة مثلاً، شنو رأيك رفيق؟

- مو مشكلة، لكن هذا راح يثير علينا قضية أخرى يا إبني، تعرف انتَ مو عضو حزبي، لا تنسَ انتَ صديق الحزب بَسْ ومو خريج ثانوية، عفواً انتَ حتى شهادة متوسطة ما عندك، وهنا عندنا

مجموعة كبيرة من خريجي الثانويات وعندهم درجات ومعدلات عالية ورفاق أعضاء بالحزب كلهم ينتظرون المنحات الدراسية.

قاطعه الفطحل متوسلاً:

- رفيق الله يخلّيك أرجوك لازم تفهم وضعي، آني في النهاية أريد الدراسة بعد العلاج.
- على أية حال انت صرّح بالشيء اللّي تريده، وإحنه نسكت إلى أن تهدأ الأمور.

ويُسافر الفطحلُ...

فَرَحَ بالموافقةِ وانطلقَ جَذلاً يُخبرُ الجميع قائلاً: مسافر للدراسة الجامعية، قال لنفسه: "وين أكو أحسن منها؟". المهم بالنسبة له أن يذيعَ الخبرَ ويثير زوبعةً. لكن الجميع كان يقول عنه بحسد وحقد وشماتة: إنه سافر لعلاج عينه العوراء وأن المناضل أبو سجون هو الذي دبّر له هذه المنحة بِسَبَبِ علاقته القديمة الخاصة بوالدته.

***

الفطحل فـي صوفيا

هناك، فـــي صوفيا يتم علاج عين الفطحل، تُركّبُ له عينٌ زجاجيةٌ من النوع الجيد كما يُشـاع، يتحسّـن منظره وشـكله، تتعزز ثقته بنفسـه يلتقي بـالنـاس والبنـات الحلوات البلغاريات والتركيات الأصـــل وهل يعقل أن يبقى بعيداً عنهنَّ؟

والله من حقه أن يحاول ويحاول التعرف بهنّ، ففـــــي أجسـادهن وعروقهن يجري خليط من دماء السـلافيين والأتراك والعرب وفيهن مِن بياض البشـرة وسـواد الشـعر ما يسـبي العباد، ووسـع العيون وحورها وطول الرموش والأطراف ما لم يجده لا فـــي الرصافة ولا الكرخ ولا بلاد الحر القائظ ولا حتى فـي الشام.

ينبهر بالثلوج والناس، طوال القامة، حمر، بيض، شـقر يمشـون بمعاطفهم الشـتوية والمطرية وقبعاتهم حاملين حقائبهم اليدوية المليئة بالكتب وقناني الخمر والمقانق والجبن والمرتدلا.

لا بـد إذن من تعلم البلغـاريـة، لا بـد من الاختلاط بـالجميلات، الشقراوات ولا بد من ترجمة الشعر البلغاري بأسرع ما يمكن. ينطلقُ هو والقاموس ومترجمة مدرسـة النقابات الشـابة فـــــي رحلة مع الترجمة. يقولون له: ترجمة الشعر أمر صعب! أنت لا تجيد البلغارية! إلا أنه لا يصـــغي لأحد ولا يكترث بمثل هذه الأقوال، لكن لا بدَّ له من مدقق عربي يجيد البلغارية!

يَتّصِلُ الفطحلُ هاتفياً بصديق أبو سجون، طالب قديم يدرس فـــي بلغاريا، يقول له مباشرةً بعد أن ينقل له تحيات صديقهما المشترك:

- رفيق آني محتـاجك جدّاً، الأمر يخص الثقـافـة الثوريـة، يـا ريـت لو نلتقي بأســـرع وقت، نقدر نلتقي اليوم؟ أريد ألقي محاضـــرة عن الأدب البلغاري فـــــي اتحاد الأدباء البلغار؟ انت موجود وأريدك

تترجم لي محاضرتي من العربية للبلغارية!

- عن الأدب البلغاري، العفو، انتَ كم سَنة صار لك مقيم هنا؟

- مدة بَسيطة، هذا مو مهم، المهم أن نلتقي و...

- حضرتك متخصص بالأدب البلغاري، انتَ أستاذ جامعي؟ على أية حال، اليوم صعب عليَّ اللقاء بك.

- ها، ليش ما تقدر اليوم؟ ها، عندك دراسة؟ راح تكون بالجامعة؟

- الأسبوع القادم، ...

- الأسبوع القادم؟ لا، هذا بعيد.

- والله لازم أسلّم البحث السنوي لأستاذي المشرف.

- البحث السنوي؟ عن شنو تكتب هذا البحث؟

- عن تولستوي.

- أيهما الأب أم الابن؟

- لا الأب ولا الابن، ليف نيكولايفيش تولستوي وبَسْ.

- ها، صحيح، صحيح، المهم، الأسبوع القادم نلتقي، اتفقنا وأكيد تعرف العنوان؟

- اتفقنا، لكن ما أعرف العنوان، لو سمحت أن تقرأه لي بالبلغاري حتى يكون مضبوط.

- ما أقدر أقرأ بالبلغاري، آني صار لي مدة قصيرة أعيش في بلغاريا، بَسْ آني أحب اللغة والأدب.

- لكن وين تخصصت بالأدب البلغاري؟

- قراءات متنوعة ومساهمات كثيرة و...

- ها، مفهوم، مفهوم، طيب آني آخذ العنوان من بوّابِ بنايتكم وراح أخابرك قبل ما أجي عندك الأسبوع القادم، اتفقنا؟

- اسم البوّاب ميخائيل، اتفقنا على الأسبوع القادم، شكراً.

كان "الرفيق" القديم طالباً يتقن البلغارية كما يتكلمها أهلها، يدرس الأدب ولم يترجم منه إلا القليل، أما الدراسات النقدية فلم يجد منها شيئاً يستحق الترجمة. هذا ما كان يصرح به. قال الطالب القديم فـي لقائهما الأول وبعد أن دخل شقتهما الصغيرة وألقى التحية بأدبٍ على زوجته:

- آني أحترم صـديقنا المشـترك أبو سـجون وأعزّه وهو إنسـان رائع ومتفانٍ وبالمناسـبة آني مو رفيق حزبي. هذه كلمة شـبه رسـمية هنا. على أية حال تقدر تناديني بالاسم. أما الترجمة فهي فعلاً شيء صـعب جدّاً، لازم أول شـيء تتقن اللغة، وبعدين تحس بها إحسـاس بمنتهى العمق، وبعدين لازم تقرأ الكثير حتى تحسـن الاختيار، أما أن تترجم الكتّـاب المعروفين فهـذا مو صـحيح حسـب رأيي الشـخصـي، لأنه مو بالضـرورة الكاتب المشـهور هو الفنان المبدع الأصـيل. أما الشـعر فترجمته خيانة له. هذه وجهة نظري، ولكني مستعد للمساعدة.

- هذا لطف منك، يا ريت لو نبدأ ونراجع بعض النصـوص، ولو راح أتعبك وإياي.

- لكن انتَ ما تجيد البلغارية حسب ما فهمت.

- صحيح، بَسْ استخدمت القاموس وساعدتني مدرّسة اللغة، والمترجمة.

- صـحيح، بَسْ بصـراحة هذا كله غير كاف، ثم انتَ كنت فـي المستشفى، كيف لحقت تتعلم اللغة؟

- هذا كله تمويه لا بد منه، آني التحقت مباشـرةً فـي مدرسـة العلوم الاجتماعية العليا بقسـم الإعلام التابع لها ودرسـت اللغة البلغاريه، صرت أفهم بلغاري.

أرادَ الطالب القديم الخبير المؤدب أن يصـدقه ويسـاعده غاضـاً النظر عن كل شيء متذكراً علاقته الحميمية بأبي سجون، لا يهم الأمر

بالنسبة له طالما أنه سيصوّب كل شيء ويراجعه وستُنشر بلا أخطاء وعندها سيطمئن قلبه ولن يشعر بتأنيب الضمير. صوّبَ بعض الترجمات، شرحَ له الاختلافات اللغوية، لاحظ أخطاءً نحويةً وعباراتٍ ركيكةً. قال له الشاعرُ الفطحلُ المترجمُ:

- غير مهم، غير مهم، أنت راجع أي شيء تريده، وصحّح كل شيء تشوفه من وجهة نظرك. أُكتب كل شيء تشوفه يناسب الصورة الشعرية والتركيبات اللغوية. انت أكاديمي ومتخصص أكثر منّي.

استمرَّ الطالب بالتصويب متطلعاً إلى "المترجم" بين لحظة وأخرى ولسان حاله يقول: "هذا يبين عليه عبقري أصلي". انتبه إلى زوجته، كانت تجلس أمام منضدتها في إحدى زوايا الغرفة، تقرأ في كتب تعليم اللغة البلغارية وتراجع القاموس.

قال لها دون أن يرفع نظره من الأوراق، التي يكتب فيها:

- يجوز أقدر أساعدَك أثناء مطابقة النصوص بدل القاموس المتعب، اسأليني إذا كان عندك كلمة غير مفهومة.

قالت، مستغلةً فرصة خروج زوجها من الغرفة، مبتسمةً بهدوءٍ وهي تتابع القراءة:

- لا، آني أحب القاموس، البارحة كنت سهرانة للصبح مع هذا الشعر اللّي عندك.

- إذن راح تتعلمين اللغة بشكلٍ جيد، اللّي يستخدم القواميس يتعلم اللغات.

بعد أكثر من سبع ساعات متواصلة من المراجعة، قال حضرة الشاعر والمترجم العبقري "للمصحح" الطالب القديم:

- هذا رقم تِلِفوني، إذا اتصلت بي ورفع السماعة شخص عربي بالصدفة، رجاءً أُطلبْ أبو ناتاشا، هذا اسمي المعروف هنا، وأردف ضاحكا:

- وعندي أسماء مستعارة وحركية أخرى كثيرة كنت أنشر بها

قصـائدي وقصـصـي، إذا سـمعت بواحدٍ اسـمه أبو دروب فهو آني، ونشـرت باسـم قرَندَل وعِتبار تيمناً بالشـخصـية التراثية والريفية الفلاحية، لازم الواحد يحذر من العدو، بالمناسبة راح أجري مقابلة مع رسـام وشـاعر وفنان وممثل ومخرج مناضـل بلغاري، يا ريت لو تحضر اللقاء وتترجم لي.

- مناضل بلغاري؟! ولا يهمك، أبو ناتاشا! عفواً أبو دروب، ليش لا؟ مناضل.

قالها مبتسـماً، وَدّعهما، كانت نظرات زوجته تبدو حزينة متحرجة من إلحاح زوجها. عينان سـوداوان وشـعر أسـود وبشـرة بيضـاء فيه لمعة، وجه لطالما حنّ إليه وإلى هذه الارتسامات الحزينة.

***

و"دارتْ الأيام" كما تغنّي كوكب الشـــرق. تتكرر لقاءات الفطحل بالطالب القديم المتخصص فـــي الآداب، يطلب منه الفطحل متوسلاً ترجمة إحدى قصصه القصيرة جدّاً إلى البلغارية.

بعد مدة يُترجمُ هذا الطالبُ الجادُّ القصـــةَ مضـــطراً، ويقول للكاتب العبقري ملمّحاً بخجلٍ:

- بالمناسبة أنا صـححت الأخطاء اللغوية والنحوية والأسلوبية بالنص العربي أثناء الترجمة.

- ها، عظيم، شكراً.

لم يفهم التلميح، يحاول الطالب معه مرةً أخرى بأدبٍ:

- صحيح، انت ليش تستخدم "هنيئة" باستمرار؟

- شنو قصدك؟

كان الأمر مفاجئاً، ما القصد من هذا الاستفسار؟

- ها، هنيئة تعني أقل من اللحظة، ما كانت مفهومة؟

أجاب الدارس المتواضع والابتسامة تظهر على شفتيه الصغيرتين،

بينما كانت عيناه تتابعان النظر إليه:

- لا، مفهوم جدّاً، يعني انت تقصد هنيهه!

- لا، شـنو أقصـد هنيهه؟ ماكو هيك كلمة، انت غلطان، قُلْ هُنَيئَه ولا تقل هنَيهَه! وبالمناسبة سبق لغيرك ان وقع فـي نفس الخطأ بَسْ ما حبيت أصحّحه.

لَمْ يتمالك الطالب القديم أعصابه، قال محافظاً على ابتسامته، واثقاً بلهجةٍ أستاذية:

- اسـمعْ، آني أعتقد أنت لازم تراجع "المنجد" باسـتمرار، لأن عندك أخطاء كثيرة كان المفروض تصـوبها قبل نشـرها، بالمناسـبة مَنْ راجع كتابك؟ هل أكملتَ الثانوية، العلمي أم الأدبي؟

تَمَلمَلَ الفطحلُ، تلفتَ يميناً ويساراً، قال:

- بالنسـبه لمراجعة الكتاب، كانت زوجتي تقرأ لي وتسـتنسـخ كل ما أكتبه، ماكو واحد كان يراجع لي، أما بالنسبة لهنيئة فهي صـحيحة وأنت غلطان لأنه مرة واحد أخبرني ذلك.

- شوف أريدك تراجع المنجد حتى تستفيد، ولا تعاند مثل موضوع علاقة ليف تولستوي بألكسيه تولستوي، أما بالنسبة لزوجتك فَمَعَ احترامي لك ولها هي غير متخصـصـة بالعربية، وما أنصـحك أن تعتمد على أذواق الناس القريبين منك، يعني مثل زوجتك لأنها تجاملك.

تَصَـوّرَ الفطحلُ العبقريُ أن ألْكْسـيه تولسـتوي هو ابن ليف تولستوي، أما تولستوي الثالث فهو برأيه حفيده، كان يصـرُّ على هذه المعلومات الخاطئة وكان زملاؤه يمزحون معه لدرجة تضـيع فيها الحدود فـي جلسات السمر فيقال له مزاحاً:

- انت راح تبقى طول عمرك حمار، حماررر، حماغ غ أصـلي، ضحك الجميع منه وضحك هو نفسه أيضاً من كلمة "حماغ".

عندها قال مدارياً خجله:

- هذا تطوير لغوي هائل، له رنين وإيقاع شعري!

قال له أحد المدّعين الثملين الداعرين في صوتٍ عالٍ:

- على أساس انت تفهم في اللغة وتخريجانها وتطورها، انت اللّي ما تقدر تنصب جمع المؤنث السالم، وما تميز بين المرفوع والمنصوب!

لَمْ يبالِ الفطحل بِسُخريةِ محدّثه، اعتبره "مبتذلاً". واصل إعجابه بكلمة "حماغ"، وَعَدَ بأن يستخدمها في قصيدته أو قصته القادمة. كان هو أيضاً ثملاً، أو في الحقيقة أنه تظاهر بذلك.

قال له أحد الحضور والسيجارة كادت تسقط من بين شفتيه:

- يا ترى كنت تزعل لما كان أصدقاؤك يقولون لك متهكّمين ساخرين: فرحت أمّك لما ولدتك؟ هَلهِلْ النسوان بيوم اللّي جابتك أمّك؟

كان الفطحل طيب القلب، هادئاً، ناعماً، مسالماً يتقبل مزاح أصحابه معه ويشاركهم ضحكهم ولم يكن هو بأقل منهم سخرية من الآخرين.

***

السومرية

لم يَدُمْ زواجُ الفطحلِ من تلك المرأة الســـاحرة العينين، الواثقة من نفســـها، أكثرَ من عدة شـــهور بعد مجيئهما إلى هذا البلد. مرّت هذه العراقية المتعلقة بغابات النخيل بفترة عصيبة وقاسية وعانت فيها من الأمراض العضـوية والنفسـية لكن كل شـيء انتهى لمجرد طلاقها من بعلها كما كانت تسـميه سـاخرةً. قالت لصـديقاتها يوم أنهت إجراءات الطلاق: أشعر كأنه خرقة قديمة ونزعتها!

بعد عدّة أشـــهرٍ من طلاقها منه مرّت بفترة نقاهة عاد إليها جمالها الحقيقي وابتسامتها الطبيعية وصارت مع ذلك الهدوء الساحر فـــي مقلتيها أكثر إشراقاً وتألقاً وجاذبيةً وأصبح شَعرُها أكثر لمعاناً وتناسقاً مع بشرتها الناعمة البيضاء وانصرفت إلى الدراسة والعلم.

لم يـدَعْ الفطحـل أولَّ فرصـــةٍ تفلـت من بين يـديـه، ودّعَ طليقتَـه السـومريةَ "البرجوازيةَ" متجهاً إلى الشـقراوات حالاً بعد وصـولهما إلى بلغاريا. كان أصـحابه يقولون سـاخرين منه: حقّه! هو يريد يتعلم البلغاريه، وزوجته مريضة لا تلبي رغباته. فـي نهاية المطاف تعرَّفَ إلى فتاة فـــي المرقص، قالَ عنها فيما بعد: إنها "منسّقة" فـــي اللجنة المركزية للحزب! بينما كانت زوجته تقول عنه ساخرة:

- الأطباء البلغار ركّبوا له "عين زجاجية"! بَعَد مَنْ يقدر عليه؟ صـــار يشـــوف أحســـن من قبل، لازم يتزوج بلغارية، بَسْ راح يجي يوم يغيّر عينَه الزجاجية إلى واحدة أخرى أفضـل ويتصـور نفسـه فعلاً يشـوف أحسـن فيصـير يسـب زوجته القادمة البلغارية ويقول عنها: غبية، ويطلقها!

عندما طلّقها الفطحل، سـرحت هذه المرأة السـومرية، التي يعود بريقُ عينيها الميسـوبوتامي إلى آلافِ السـنين، عادَ خيالُها إلى الوراء

وتذكرتْ كيف وقفَ كل أهلها ضـــد زواجها منه. قالوا لها: تريدين تتزوجين هذا طـايع الطـايح؟! الله أكبر مـا لقيـتِ غيره؟! هذا واحد معروف بالتهور، وين ما يروح يصيح بصوتٍ عالٍ: آني مو طايع آني طايح جبر من "فرج" أمي للقبر! خلّي يولّي، أكو واحد يحكي عن أمّه هيجي؟ هذا واحد فعلاً صـايع، ضـايع غير نافع، سبع صـنايع والبخت ضـايع لا شـاري ولا بائع، يذرع شوارع، ما عنده لا شـهادة ولا حرفة ولا مهنة يعيش منها، واحد عِشتي كما يقول عنه أصحابه، يعيش على فتات الآخرين.

كانت هي فتاة جدية، درست فـــي معهد المعلمات، من عائلة غنية ومتعلمة ومناضـــلة عريقة فـــــي النضـــال منذ الحكم الملكي حتى الســـتينيات، لكنها اعتزلت الســـياســـة فيما بعد. عَرَضَ والدُها على الفطحل آنذاك عملاً، إلا أنه رفضـــه ســـاخراً. كان مشـــغولاً بالأدب والتسكع و"الخوارة" فـــي الشوارع كما يقولون عنه، كانت حياة البنت وشرفها فـي خطر. تورطت فـي السياسة. قالت لوالدها:

- آني أريده، بابا، أرجوك خلينا نتزوج ونسافر آني وإياه للخارج.

أدرك الوالد خطورةَ الموقف. عقد قرانهما على مضـــض. أعطاهما مبلغاً من المال، بينما ســلمتها أمها ما لديها من الحلي الذهبية رحلت بها خارج البلاد مع زوجها. أصـبح الفطحل بعلها دون احتفال. كل شـيء تم بهدوء وشـبه سـرية. كانت والدتها تبكي صـباح مَسـاءَ وتُصـرُّ على الاحتفال بالزواج مهما كلّف الأمر لكن مرامها محال، بعيد المنال.

مضـــت عدة أعوام على تلك الأيام، وها هِي البنت المدللة وحيدة أمها تعيش ذليلةً مهانةً بعيدةً عن أمها لوحدها فـــــي غربتها، تمارس اليوم حياتها بدون الفطحل فارس أحلامها الســـابق، وصـــارت تواجه التحديات وتحقق النجاحات.

بعد سنوات من طلاقها وقع فـــي غرامها زميلُها فـــي الدراسة. دعاها إلى السينما، رفضت، دعاها إلى المطعم، امتنعت وقالت له ساخرة:

- تفضّلْ عندي فـي البيت نأكل الأكل النظيف واللطيف والخفيف.

ابتسـم العاشـق وعيناه تنظران إلى السـماء، لمحَ طائرين متعانقين، سـقطا ثم عادا محلقين، التقتْ نظراتهما، ابتسـمت كعادتها ابتسـامتها العريضة، بانت أسنانها ولثتها تغطي نصفها الأعلى، قال لها:

- شوفـي إشلون ذول يفهمون الحياة أحسن منا، أما إحنه...

- ذول قاعدين فـي بيتهم، آني فـي بيتي وأهلاً بك.

وغرقا فـي ضحك، قطعته عليهما إحدى زميلاته البلغاريات كانت متجهة إلى الجامعة، استمرّا ضاحكين، قالت له البلغارية بعد أن حيّته ممسكة ذقنه:

- ماذا حدث لك هنا؟ مَنْ جَرَحَكَ؟ قُلْ لي مَنْ وسـأقتلُه، قُلْ لي مَنْ فحسـب وسـترى؟ سـأجمعُ لك كلَّ الشـبابِ البلغار، أجمع لك كلَّ الهوولیجان، أنتَ تأمر.

ودعتهما قائلةً له:

- لا تنسَ أن تأتي، أنا بانتظارك دائماً.

- انتظريني حتى أعود.

علّقت السومرية.

قال لها ممازحاً بينما قالت له ذات الابتسامة الواسعة ساخرةً غاصةً بضحكتها، بدَت أسنانُها مصفوفة كأسنان الطفلة:

- أنا بانتظارك، انتظريني حتى أعود، هذي تفيدك عندها عِصـابَة، وتمسكك من خدك، يبيّن...

قاطعها ضاحكاً:

- زين والحمد لله مسكتني من حنكي مو من مكان آخر.

حشرجت الضحكة فـي بلعومها، خرجت من بين أسنانها المصفوفة كشـجيرات الآس، حلَّ الظلام سـريعاً، تذكرت أن عليها أن تعودَ إلى

البيت قال لها متوسلاً:

- طيب شنو رأيك نروح نتمشى فـي الحديقة؟

- لا، الله يخليك، ما أقدر، إذا تريد تفضل للبيت.

***

فـي البيت أراد أن يقبّلها، مانعتْ، غضبتْ، قالت له حانقةً:

- أنت الظاهر تجاوزت حدودَك، تصورتني "بانتظارك"، لا تتجاوز الحدود.

قاطعها قائلاً بلهجة خطابية مسرحية ساخرة فصيحة وعامية:

- آني مُعجبٌ بأسنانك وآني أريد الزواجَ منك يا سيدتي!

فوجئتْ، ابتسـمتْ، أشـاحتْ وجهها إلى جهة الشـباك المطل على الحديقة، رأت أسـرابَ النوارس الكثيرة تحلق عالياً، كان يقف خلفها، ابتسمتْ لنفسها قائلة:

- هيچي رأساً؟ هذا فيلم مصري لو هندي؟

- المهم، أريد رأيك بالموضوع، وبأسرع وقت.

ضحكت، تذكرت نكتة شائعة، قالت:

- رأيي لو رأي الحزب؟ شنو القضية، عباس مستعجل؟

ضـحكت، فرحَ لضـحكاتها، كانت السـعادة تبدو على وجنتيها، تشجع، قال لها رافعاً يده اليمنى كأنه يخاطب جمهوراً مسرحيّاً:

- وَجْناتُكِ صارت ورديّة.

واصلت الضحك. كانت تبدو عفوية، حركّت يديها باتجاه الثلاجة، أخرَجَتْ بعضَ الطعام، وضـعته على المنضـدة، التقت عيناها بعينيه، كانتا واسـعتين دائريتين، كانت أكثر جرأة ورزانة منه، أكثر تلقائية منه لكنها كانت تسيطر على مشاعرها بينما كانت نظراته مفضوحةً، والخجل لا يزال يراوده رغم لجوئه إلى الطريقة المسـرحية، قالت له

ضاحكةً:

- أكيد راح تغني لي أغنية: عيني يا أُم خدود الوردية، راوديني شـــويّة شـــويّة، وبعدين تبدأ الإهانات وتروح على "أنا بانتظارك" يجوز تفيدك بترجمة الأدب والشعر والقصص مثل ذاك الّلي كان حاسب نفسه فطحل الفطاحلة.

ردَّ عليها بهدوءٍ، تماسك أعصابه، شعر بالخجل للحظةٍ:

- أفهم ما تقصـــدين، انتِ ليش تعتقدين آني أحتاجها بالترجمة؟ آني أعرف لغتهم أحسن منها، سامحيني، آني عمري ما مدحت نفسي، لكن آني واثق من نفســـي، انتِ تعرفين، اطمئني ما راح أركض وراءها. وبالمناســـبة "انتظريني حتى أعود" هو عنوان قصـــيدة روسية مشهورة لسيمينوف كتبها فـــي الحرب العالمية الثانية وأكيد راح تقرأيها فـي المستقبل.

شعرتْ بالطمأنينة والسكون، نظرت إلى الحديقة من خلال شُبّاكها ممسـكةً بإناء الطعام، كان الظلام والسـكون يخيم عليها، لمحت رجلا وامرأة وطفلين يجرّان عربةً صغيرةً ورائهما كان الوالدان يتشاجران، بعد لحظات لحق الطفلان بهما، صـــار الجميع يلعب ألعاباً مختلفةً. ســـقطت دمعة من مقلتها اليمنى، لمحها العاشـــق الولهان، أرادت أن تخفـــي كل ذلك، تساءل بين نفسه: يا تَرى أي سِر تخبئ هذه السومرية ذات الابتسـامة العريضـة والطرائف؟ مرّرَت يدَها اليمنى على عينها، مسحت الدمعة، قال لها وهو لا يزال واقفاً جَنبها:

- ها، ما قلتِ لي شنو رأيك؟

عادت الضحكة إليها، قالت له ولسانها يملأ فمها غاصة بضحكتها:

- غير لازم آخذ رأي الحزب!

- رجاءً كافـــي سخريه أما رفض أو موافقة، إذا رفضتِ عادي بالنسبة لي، لكن بعد ما تشـــوفيني هنا، وإذا وافقتِ، نعلن الخطوبة اليوم ونتزوج بأقرب وقت ومثل ما تريدين وعلى ســـنّة الله ورســـوله

والزواج نصف الدين وآني أريد أكمّل ديني.

كانت تستمع إليه منبهرةً، استمر بالحديث متحمساً، وهي تشعر بسخريته المبطنة، قاطعته واضعةً الطعام على المنضدة من جديد، ضاحكةً بأسلوب مسرحي:

- وإذا طلبت المهر غالي؟ وأنت عاشق ومفلس؟

- من قال لك آني مفلس، عندي أراضي وبيوت باسمي، كلها تصير لنا ونروح نسكن فيها بعد ما يسقط الطاغية.

سرعان ما تغيرت ملامح وجهها، بدتْ حزينةً:

- وإذا أهلك رفضوا وآني امرأة مطلقة وعندها مشاكل.

- اسمعي، تريديني لو لا؟ كلمة واحدة، والباقي كله كلام فارغ، أهلي راح يفرحون إذا أتزوج واحدة من بلدي بعد هذه الغربة الطويلة، أكثر من عشر سنوات وآني قاعد أنتظر هذا الوجه السومري، انتِ بالنسبة لي لقْطَة، هِبَة من الله، لازم أغيّر اسمك إلى هبة. ابتسمت من زاوية شفتها اليمنى، قالت له:

- انتَ عنصر خطير، خطِر، عباس مستعجل، آني خائفة منك.

فرح الزميل المغترب الحالم بالسومرية، احتضنَها رغم ممانعتها، خرج من غرفتها، أخبرَ زميلتَها اليمنية، التي كانت تعيش في الغرفة المجاورة لها أنه خطبها، فرحت للخبر السعيد وغنّت لهما باللهجة اليمنية:

- "قُمْري، شَلّها وراح".

ومنذ ذلك اليوم بقيا يعيشان معاً، يتقاسمان الحلوَ والمرَّ في غربتهما التي صارت منفىً رغم أنفيهما. يُقالُ إن هذه السومرية أنهت الماجستير والدكتوراه في اللغات بحسب الأخبار المتداولة بين الناس وثقاة الرواة فقد اختارت هي وزوجها حياة العزلة والسفر بعيداً عن الآخرين.

الفطحل بعد الانهيار
الرحيل إلى بلاد الأندلس والشمال

بعد الانهيار الكبير لم تعد بلغاريا الملاذ الأفضل، لم يبقَ شيء هنا غير الفوضى والعطالة والجرائم والمزابل والنفايات والقمامات التي يبحث فيها الأطفال. وإذا كانت بلغاريا سابقاً كالحديقة المليئة بالقردة كما يقال عنها فقد أصبحت اليوم مزبلة للحيوانات والوحوش والمجرمين.

يشد الفطحلُ الرحالَ إلى لشبونة لوحده تاركاً زوجته البلغارية "منسقة اللجنة المركزية". تُشاع عن الفطحل قصة عهدها الناس منه:

يدعوه النادي الثقافي العربي، ليلقي محاضرة عن الأدبين البرتغالي والإسباني والأندلسي، تستقبله فتيات الجالية العربية يحملن الزهور احتفاءًا بوصوله. ويقوم بجولة في بلاد الأندلس.

هذا ما أكده الفطحل لأحد معارفه في رسائل كتبها إليه من لشبونة ومدريد. أما شهود العيان فلم يحصل لأحدٍ شرف اللقاء بهم والاستفسار منهم عن حقيقة الاحتفاء. لا أحد يعرف الحقيقة. لم يصدّقه أحد كالعادة وكلهم يعتبرونها مجرد ادعاءات اعتادوا على سماعها منه.

لكن الفطحل لم يَبقَ في لشبونة ومدريد أكثر من أسبوعين كما يبدو، حسب الأخبار المتناقلة عنه يرحل باتجاه الشمال، حيث سمع الفطحل بأن الأمور هناك أسهل كما يقولون.

قالَ أحد معارف الفطحل من المقيمين في الشمال الأوروبي ساخراً:

- هذا إنسان ماسخ وفاهي، ودَبِق وغاسل وجهه ببوله، الشمال البارد مكان مناسب له ولمغامراته وادعاءاته في النضال السياسي والأدب، لا مَنْ سأل ولا مَنْ درى، كَذِّبْ كَذِّبْ حتى يصدقك الآخرون: زيارة سياحية عادية لمصر يمكن أن يحوّلَها إلى إقامةٍ

فيها وعملٍ فـــي صحافتها لمدة طويلة. قد تعوضه هذه الادعاءات عن أمور هامة فقدها فـــي طفولته وحياته. كان بعضـهم كثيراً ما يقول إن أول شيء يتعلمه القادمون هنا إلى هذه البلاد هو الكذب.

سأله مرة صديقه المقيم فـي الشمال بِسُخريه ودية:

- لكن إشـلون وإشـوَقت سـافرت إلى مصـر وفوقها سـكنت واشـتغلت فيها؟ لَكْ ما تستحي تنفخ عليّ مو آني عاجنك وخابزك!

- والله آني ما قلت لأي شخص مثل هذه الأمور.

ثم يستدرك قائلا:

- ها، فـــي الحقيقة يجوز الناس تناقلوا هذا الخبر من مقابلة صـحفية ذكر فيها الصحفـي مثل هذه الأخبار، آني تعجبت من أين جاء بها، يعني آني شنو ذنبي؟

عندما يواجهه "الباحثون المتخصصون" بسيرة حياته من المنافقين الحاسدين "المتأكسدين" الذين لا شغل لهم غير ملاحقة نشاطاته بهذه الأخبار عنه ينفـي ذلك ويحلف أغلظ الأيمان بأنه بريء من كل ما قِيل ويُقال من أكاذيب يُراد إلصاقها به، وأنه لم يدّعِ ذلك إطلاقاً.

مع ذلك، تُسمع عنه قصـص وأخبار كثيرة. يقولون إنه يسـافر إلى تونس ترانســيت فيدعيها، كما يُقال عنه، محطةً من محطاته الأدبية ويصـبح موضـوعاً لتندّراتهم وهل هناك من يجيد النميمة أفضـل من هؤلاء الحاقدين على العالم كله؟

وقِيل عنه إنه سافر إلى المغرب، بقى ثلاثة أيام فـــي تطوان، تُطلق إشـاعة عنه بأنه صـرّحَ بأنه كان مدعوّاً إلى المهرجان الشـعري وقرأ قصصاً فـي نادي القصة هناك.

لم يكن أحد يصدّق أخبارَ سفراته واختلط الصدق بالكذب. كان كلما يتصـل هاتفياً بأحد أصـدقائه يقول له: "رجعت قبل يومين من هذا البلد أو ذاك"، لم تَبقَ عاصمة لم يذكرها فـي مشاريع سفراته الكثيرة.

لكن شرّ البلية ما يضحك. فـــي هذه المرة يصدّقُ الناس شائعةَ سفر الفطحل إلى المغرب بينما كان هو فـــــي حقيقة الأمر يرقد فـــــي المستشفى.

أُدخِلَ صاحبنا إلى المستشفى بِسَبَبِ مرض حقيقي، لا أحد يصدق ذلك، الجميع يتناقل خبراً هاماً: الفطحلُ فـــــي رحلة أدبية، وهكذا ضاعت الحقيقة!

كاد الرجل أن يموت من شـــدة المرض ولا أحد يســـأل عنه. كان يشعرُ بالوحدة فـــي المستشفى البعيدة. وَدَّ لو يحدّثه أحد من أقرانه وأترابه ومواطنيه، من قومه، كان جل المرضـى من الشيوخ الناقمين ممّن لم يَعتَدْ أحد منهم الحديث إلى الغرباء.

خرج من بناية المستشفى بعد تحسن صحته لشم الهواء قليلاً، كانت الريح عاتيةً والثلج يهطل بغزارةٍ، ظن أنه سيتحمله، لم يقوَ على شـدّةِ البردِ، عاد أدراجه مقهوراً، متألماً من مواطنيه، الذين لم يحاولوا حتى أن يسألوا عنه.

خلع معطفه الشـــتوي ناظراً إليه بإعجاب، وقف يتطلع إلى الثلوج والرياح من نافذة غرفته الواســعة، كانت هناك غابة مليئة بالأشـــجار الباسقة تغطيها الثلوج.

رأى امرأة تمشـي مع طفلة، تحمل بيدها اليمنى كيســاً وباقة ورود وتمســـك بيدها الأخرى ابنتها، كانت تلاعبها وتتحدث إليها مبتســـمة متجهة إلى المستشفى.

غبطَها على تقبلها الحياة وإقبالها عليها وفرحها بها. كان ذلك بادياً على ملامح وجهها المليء بالأمومة والأنوثة. فكّر بين نفســه: ما الذي يجعل هذه المرأة الشـــابة أن تكون فرحةً متحمســـةً كما يبدو عليها من مشـيتها، تسـير بثقة عالية بالنفس متجهة إلى المســتشـفى. لا بد أنها ستزور شـخصـاً ما تحبه: زوجها أو أمها أو أباها، لا بد أنها تحب مَن

تزوره اليوم وإلا لما جاءت مع طفلها إلى المستشفى حاملة الهدايا كما يبدو. أما أنت أين هم الذين يحبونك؟ بل أين هؤلاء الذين تحبهم؟ أين أحبابك؟ أين هؤلاء المناضلون ضد الطاغية؟ أليسوا هم رفاق دربك؟ ألا يجدر بهم التعاطف معك في مرضك؟

تطلّع إلى السماء الملبدة بالغيوم، نظر إلى الغربان المحلقة فوق أغصان الأشجار المتمايلة، غيوم وثلوج وألوان رصاصية رمادية كالحة، أين أنت أيها الأزرق؟ أيها الأخضر والأصفر والأحمر؟

أراد أن يمسك القلم ويكتب قصيدةً، تراءت له صور وعبارات من نوع: غربان تحلق على الروح، غربان قلادة الروح، غربان سوداء، غربان، غربان، أخذ يدندن في نفسه لحناً حزيناً من نوع يا دار يا دار وين أهلنا، شعر بالحشرجات والأسى، كأن عبرة وقفت في مقلتيه، اندهشَ للأمر، قال لنفسه: لم يزرك أحد يا طرطور، يا فطحل، يا عبقري، لم يذكرك أحد، على أية حال أمرٌ مؤسف، ابتسمَ مع نفسه، ضحك على نفسه، سخرَ من نفسه، قال لها: تبّاً لها من حياة! أي بشر هؤلاء؟ أيّ منافقين هؤلاء؟ صحيح آني قلت راح أسافر، لكن تمرضت، عجيب، غريب، ولا أحد يسأل عني، ولا واحد يزورني! شنو ذنبي وإياهم؟ أسأت لهم؟ سرقتهم؟ أخذت حقوقهم؟ كذبت عليهم؟ ثم شنو دخلهم بي؟ يا لَهم من شرّانيين صعبين وعدوانيين؟

صوّبَ نظراته نحو سقف الغرفة، نظرَ في جوانبها كأنه يبحث عن جواب، نظر إلى السماء من خلال الشباك، وجد أن الغراب الأسود يحطُّ على غصن شجرة باسقة مغطاة بالثلوج، غير مبالٍ بالبرد. أدار وجهه إلى باب المستشفى الرئيس، لاحظ زواراً خارجين وداخلين، فكّر أن يتصل هاتفياً بأحد معارفه، أن يخبره، أنه في المستشفى، تشجع قليلاً، اتجه نحو الهاتف، اتصلَ بأحدهم، كان الحرج واضحاً في كلماته التي يتمتم بها:

- ألو، مرحباً، إشلونك...آني مريض...

- أهلاً، آني زين، انتَ إشلونك؟ هاي من وين تخابر؟

شعر بالعفوية والارتياح، تشجع:

- مِن المستشفى! من وين؟

- معقولة؟ انتَ على أساس تسافر للمهرجان الأدبي؟

- من قال هذا الكلام؟ أي مهرجان؟

- عجيب، انتَ بنفسك قلت لي، شنو، نسيت؟

- ها، يجوز كنت أقصد مهرجان السنة القادمة!

- إي شـــفت، انت تَهّام "مالَك" بالكذب، كم مَرَّة قلت لك لا تبالغ ولا تعلن عن أشـــياء غير موجودة، والله كل الناس هنا يعتقدون انتَ فعلاً سافرت للمشاركة بالمهرجان، يعني فعلاً هالمرة كلهم وبعكس كل المرات الســابقة اقتنعوا بقصـــة ســفرك إلى المهرجان الأدبي. بصـــراحة، كل مرة يقولون: هذه مبالغات، كذب، ولكن هذه أول مرة يصدقون فيها بمساهمتك فـــي المهرجان! فتَصَوّر! لا تزعل مني، هذه هي الحقيقة وانت تعرف جماعتنا العراقيين إشـــلون صعبين!

تحادثا قليلاً، واتفقا على الالتقاء. شـــعرَ الفطحل بأن صـــاحبه هذا بارد معه ومتخابث، غير مبال له، مناكف محترف من الدرجة الأولى، شـامت به، يتحدث معه بِسُـخرية محترف، لا يثق بمرضـــه، يتصوره مجرد ادعاء وليس مرضاً حقيقيّاً.

كان بِودّه أن يطيل فـــي الكلام، نظر إلى النقود فـــي يده، كانت قليلة. "ماكو فائدة، حرام واحد يخسر عليهم فلوس التلفون"، قال حانقاً.

مَسَـكَ حنكَهُ بيده وراح يفكر ساهماً متمتماً مع نفسـه مناجياً إياها، يبدو أن أحدَهم أطلقَ إشـاعة سـفرك، طبعاً السـبب الأول والأخير هو انتَ، انتَ السبب، وإلا فلا دخان بدون نار.

أنتَ نفسـك تجني على نفسـك، على نفسـها جَنت براقش! أنتَ تأتي

بالتهايم على نفسك، لا تقلْ: تجيك التهايم وأنت نائم! أنتَ أساس البلا. وتَذكّرَ بمرارةٍ كيف كان نفسُه يقول ساخراً "آني اسمي مو طايع، آني ما أطيع أكبر واحد بالدنيا، بَسْ آني طايح، طايح الحظ والبخت والفقر"! ثم تمتمَ بألمٍ عميقٍ: "شعب العراق صعب المراس وأنت تريد تضحك عليه".

تذكّر الفطحلُ أنه حقّاً أخبر أحد معارفه بموضوع السفر "لكن مع ذلك، وين الأخلاق والأصول عند هؤلاء الحاقدين؟ على الأقل كان لازم يخابروا، يسألوا ويقولوا: يجوز مات هذا الإنسان، تافهين، حقراء، عراقيين!".

اتّجه نَحوَ غرفتِه، نَظرَ إلى وجهه في مرآة الحائط، انتبه إلى علامات التعب والإرهاق والحنق والإحباط، "ليش كل هذا الأذى؟ آني ما أسأت لهم ولا مرَّة في حياتي! إشحال لو كنت أشتغل عندهم؟ إشراح يسوّون بي؟ أكيد راح يقطعون رزقي ورقبتي، غلاظ القلوب وقساة، ويدّعون "قطع الأعناق ولا الأرزاق"! عدوانيون، يبدو أن الشر متأصل فيهم، هذوله العراقيين ينراد لهم واحد قوي ومتسلط".

أخذ قلماً وورقة، أراد أن يكتب شيئاً ما، نقل بصرَه مرّةً أخرى من خلال زجاج النافذة الكبيرة نحو الخارج متطلعاً إلى الأشجار والثلوج، والغراب، أين الغراب والشحرور؟ تذكّرَ الشحرور الذي لم يميزه من بين العصافير الأخرى، قال لنفسه معاتباً "تكتب عنه القصائد ولا تعرفه! تبّاً لك"، أين الكلاب؟

حتى الكلاب عملة نادرة، لا بد أنها تنعم بدفء جمعية الرفق بالحيوان وحنانها! ضحك للأمر تفو، بصقَ على الأرض، هامت روحه، أخذ سيجارة، بدأ التدخين، بدأ ينفخ الدخان وينفخ وبدأت القصيدة "تمخر عباب دوائر الدخان"، تَدفّقَ الدم إلى وجهه، ضاقت عينُه أكثر فأكثر، أخذ ينفخ الدخان، تَصاعدَت دوائره مكونة أشكالٍ مختلفةٍ، تمعنها الفطحلُ، ودَّ لو يرسمها أو يكتبها.

ضاق ذرعاً بالغرفة، ودّ لو يُكسّر الزجاج، يهشم رأسه، يخرج، لو يسافر، لو يلقي القصيدة بصوته الجهوري الخطابي لو يرتجلها، لو تسمعه أمه، لو يسمعه هذا الذي اتصلَ به توّاً، لو يكلّمه أحد، وَدَّ أشياءً كثيرةً، كتبها كلها في القصيدة، غربان، غابات، ثلوج، دببة، أُسُود، فِيَلَة والروح حبيسة الحزن والسَوادِ.

اتصلَ به أحدُهُم شامتاً، فاجَأه التِلِفون والصوت محدّثاً إياه بدون تحيات أو مقدمات على الطريقة الشبابية العراقية:

- هاي شنو إحنه تصوّرناك مسافر، قلت للشباب كلهم انتَ بالمستشفى، قالوا لي: انت تكذب علينا، هو مسافر للمهرجان الأدبي، تصّوّرْ، ما يصدقون انت مريض، المهم إن شاء الله مرتاح.
- طبعاً، مرتاح، تَصوّر، هَسَّه كتبت قصيدة، يا أخي الروح حبيسة والتحليق ضروري، تَصوّر، الروح تحلق حتى في الحَبْس.

قاطعه صديقه راغباً في الاختصار:

- المهم، أي يوم راح تطلع من المستشفى؟
- بعد أسبوعين، الدكتور قال لازم أعمل عملية، تَصَوَّرْ! قلت لهم: ما أريد عملية، قالوا: لا، لازم تسوي العملية، اهتموا بي جدّاً لأنهم عرفوني شاعر، الدكتور رجل مثقف وطيب القلب وقرأ أشعاري، العملية تكلّف ستين ألف ولكن مع ذلك يريدون عملها.

قاطعه مرة أخرى:

- طيب آني راح أقنع الكل انت في المستشفى، يعني لا مسافر ولا هم يحزنون، مع السلامة، ومرّة ثانية لا تجيب التُهم لنفسك، بالشفاء العاجل.
- شكراً

قالها بصمت وحسرة. أطرق برأسه إلى الأسفل، كانت نظراتُه شاخصةً إلى بلاط الأرض الأبيض اللماع، غاب قليلاً عن العالم

سارحاً فـــي خياله، كأن شخصاً يقول له بصوتٍ مسموعٍ: لن يسأل عنك أحد، لن يزورك أحد، حقراء، كلاب، كان هذا التافه الشـــيطان يسخر منك فـي مكالمته الهاتفية.

كان الفطحلُ يناجي نفســـه مفكراً: وَمَنْ يدري، يجوز هو قاعد مع مجموعة صـعاليك سـمعوه يحكي وإياك ويضـحكون عليك. "طبعاً هو يغار مني، يحســـدني على موهبتي التي لم تجلب لي غير الهَم والغَم والآلام، يغار مني لأني أكتب الشعرَ ومتميز عنه والدكتور أُعجبَ بي وبقصـــائدي، ولكن هل كان من الضـــروري أن أخبرَه بهذا الأمر"، ثم أكمل متمتماً بين نفسه: "أنت طيب القلب. أنت ساذج!".

عاد الفطحل إلى غرفته يبحث عن ورقته، قلمه، غاباته، روحه، غربانه، كلابه، "أين الكلاب والأوغاد؟" بصـــقَ على الارض، الآن عرفتُ معنى الحياة، "القوّة!" قال لنفسه.

***

الفطحل وأمّه الشمالية

فـــي هذا الشمال الجميل لا ينقص الفطحل شيء غير الأم الشمالية، تخيّل نفسَـه له أم من هذه البلاد يناديها على طريقتهم: ماما، أو: مامي، أو: ميمي، أو: مُوّا.

- تصـــوّرْ، هي مو مجرد قارئة لأعمالي، هي أمي وهي مطّلعة على الحكايات والأساطير الشعبية القديمة وعلى عظام الأدباء العالميين. هي فـي الحقيقة تذكرني بمربيّة بوشكين، تصورْ!

هكذا كان دائماً يتحدث لأحد أصـــحابه عن امرأة عجوز، ردَّ عليه هذا متهكماً:

- يا ريت لو ما حكيت هذه "الاكتشـــافات" لواحد غيري، يا مغرم بزُرقةِ البحر الّلي ما شفتها ولا مَرّةً بحياتك.
- هي عالمة بالأدب، أُعجبتْ بشعري وقِصّتي، كتبتْ لي رسالة عبّرتْ فيها عن إعجابها، تصــوّرْ، الموضــوع طبيعي وســهل الفهم بكل بَســـاطة، طلبتْ مني اللقاء والتقينا ودامتْ العلاقة الأدبية الروحية وصـــارتْ هذه العالمة أمي. ثم تابع قائلاً وهو يقف إلى جانب مجموعة من أصدقائه قبل بدء حفل خاص:
- هي معجبة للغاية بقصيدتي عن البحر، هل قرأتها؟ إذا كنتَ ما قرأتها اسمعْها:

أنا

والبحر

كَسِيرٌ هو ذو الأمواج الحزينة

فهل تقبّليني فهل

من فمي وتقبليني تقبّليني

بعلاً لك من أذني
ياحورية البحر؟ وتقبليني بعلاً لك يا زهرة المدائن.

بعد أن أنهى الفطحلُ قصيدَتَه، قال وهو يفرك أرنبة أنفه بأصابع يده اليمنى:

- هنا الناس اللّي فعلاً يقرأون، مو مثل جماعتنا، ما عندهم كل تقدير للشعر، تصوّرْ آني بعثت مجموعتي الشعرية لكل الأدباء والنقاد، لكن مع الأسف... على أية حال ما أريد الدخول في التفاصيل، وأقول باختصار شديد: هناك مؤامرة كبيرة تُحاك ضدنا وكلّ رموز الثقافة الوطنية الأصيلة. هذه حرب غير معلنة كبيرة ومنظمة من قبل النظام الدكتاتوري وعملائه العرب في كل مكان.

بالمناسبة آني بعثت رسالة للدكتور حميد النقدي، عاتبته وقلتُ له بالحرف الواحد: ليش ما تكتبون عنا، عن نتاجاتنا؟ إذا أنتم الأكاديميون ما تكتبون عنا، وإحنه بأمسّ الحاجة لآرائكم، من راح يكتب عنا إذن؟ إلى متى راح نبقى إحنه المبدعين نكتب عن بعض؟ هذا غير صحيح. تصوّرْ، أن أغلبهم ما رَد على هذه الرسائل ما عدا الشاعر المرحوم أحمد الحيدري، اللّي كتبت له في لحظة يأس بأني راح أستقيل، راح أترك الشعر. شوف هذه رسالته يقول لي فيها نصّاً وبالحرف، اقرأ: "لا تترك ساحة الأدب للمدّعين والإمّعات، يجب أن تواصل العمل الدؤوب والجهد والمطالعة والتثقيف الذاتي، وإذا ثابرت فإنك ستجد ذاتك في عالم الفن الرحب. أنت مطالب بالقراءة والقراءة قبلَ كلّ شيء".

ثم قال الفطحلُ صارخاً بحماس وعصبيةٍ وشفتاه ترتجفان من فرط الانفعال:

- أكو أكبر مِنْ هذه الشهادة بربكم؟ وهذه رسالة، شهادة ثانية لِي من

شـــاعر الحداثة زيوس، خُذْ، اقرأ، يقول: "الأدب جهاد، والدخول في محرابه صعبٌ، عليكَ إن أردتَ الدخولَ إليه أن تُكوى بسَعيره، ونارُ الأدب أكثرُ حُرقةٍ من جهنم، لكنها خاصـــة لا يَشـــعُرُ بحلاوة حُرقتِها إلا الذين آمنوا، أصحاب الأحاسيس العميقةِ، وما أتمناه لك أن تذوقَ لسعةَ النار، فَمَنْ ذاق عرف، كما يقول الصوفيون. اقرأ، اقرأ، ثمّ اقرأ كثيراً قبل أن تكتب، واندمجْ بالحالات الشـــعرية العظيمة بدءًا من هوميروس مروراً بامرئ القيس وانتهاءً بشـوقي والسياب، عندها ستفهم الحداثة بشكلٍ جيد".

لم يكمل الفطحل قراءة الرسالة، لكنه اكتفى بالقول:

- هذه شهادة رهيبة من أكبر شاعر عربي، أبو الحداثة.

قال له أحد الواقفين كانوا يلقبونه "أبو براطم" من المشـــاكســـين الحقودين، مقاطعاً إياه، خازراً إيّاه في عدوانية واضحة:

- لكن ليش ما كتب شـــاعر الحداثة هذا عن مجموعتك بمجلته، التي يصـــدرها، انت يبيّن عليك ما تقرأ ما بين الســـطور؟ انت الظاهر فهمت رســـالته خطأ، هو يطلب منك القراءة والاطلاع العميق يا أستاذ قبل الكتابة.

- هَسَّه تريدنا ندخل بالتفاصيل؟ وبالمناسبة آني أنشر كتبي وبَسْ، و ما أسأل عن التفاصيل الأخرى، يَلّه يا جماعة، أستأذنكم، خلّونا نسلّم على الحضور.

انصـرفَ الفطحل إلى مكانٍ آخر من الحفلة بينما أخذ الحاضـرون أماكنهم، قال عنه أبو براطم المتجهّم متهكماً مبرطماً شـفتيه والشَـرَرُ يتطايرُ من عينيه متطلعاً إلى جلســـائه بنظرات متســـلطة وكأنه الأخ الأكبر:

- يا أخي هذا مشـــكلته انّه ما يفهم لغة التلميح، صـــلف، يريد الدكتور النقدي يكتب عنه، كم مرة قلت له: لازم تثقّف نفســـك، لازم تطور

شـخصـيتك قبل الكتابة والنشـر، تريث شـويّة قبل النشـر، لكنه ما يسمع كلامي!

أجابه جليسه، كان فـــي الأربعين من عمره، نحيف البنية يلقبونه "أبو بريص"، قال له بهدوء مدخناً سيجارته:

- ليش لا؟ يقدَرْ الناقد يعطي رأيه به بموضوعيّة.

ردَّه أبو براطم متبرماً:

- يا أخي انتَ إشـلون عقلك يقبلها واحد مثل الدكتور النقدي يكتب عن أشياء تافهة، الكتابة نوع من التواصل، لازم تكرّس لأعمال راقية، هي المسألة مو مجاملات بالنسبة له.

- خلّينه من هذا الكلام، لازم يكتبْ عنهم، ينتقدهم إذا يريد، شـنو يعني دكتور وثم ماذا؟ لازم يقيّم كل الأعمال الأدبية.

قال له صـاحبه أبو براطم مماحكاً بحدّة وملل وهو يسـتنشـقُ نَفَسـاً عميقاً من الدخان:

- أَهُوو، انت أبو بريص اليوم من الصبح لحد الآن بَسْ تشاكس وتعاند لمجرد العناد، النقد اسـتمرار للعمل الأدبي الفني الجيد مو السـيء. صدّقني آني ما عندي شيء ضدّه بَسْ هو مشكلته أنه مفتعَل، مليء بالادعاآت، يحكي عن نفسـه وبس! يحب الظهور والشـهرة ويريد الآخرين يكتبون عنه حتى لو سلباً، أهم شيء بالنسبة له هو انشغال الناس به. والله آني أتمنى له كل الخير بَسْ لازم يطوّر نفســه ويهتم بشخصيته.

- طبعاً، تعتبرني شـــاكســـتك، لأن اختلفتْ وإيّاك، هذا طبعنا إحنه العراقيين، إن لم تكن معي فأنت ضـدي، ماكو عندنا حلول وسـط. تساهل وإيّاه وخلّيه يجرّب حظَّه.

حضرتْ المرأة العجوز هذه الأمسية الخاصة، لبّت دعوة الفطحل، كانت امرأةً طيبةً وخيّرةً، ولم يكن هو بالنســبة لها أكثر من إنســان

طيب يسعى إلى الخير محاولاً تقديم البهجة للآخرين.

كان الفطحل يستعد لهذه الحفلة منذ شهور، لا عَمَل ولا وظيفة، لا هَمْ ولا تفكير لديه غير الأمسية وطريقة الظهور بقامته الطويلة ومحيّاه الأسمر الجميل وشعره الفاحم الكث الأشعث أمام الحضور المتلهف له رغم قلّتهم.

كان شاعرُنا، والحقُ يقال دقيقاً في عمله، يرسم أدق التفاصيل ويهتم بها ويستعيدها ويستعد لها بكامل جاهزيته وكأنه عسكري متوجه إلى ساحة الوغى. يجرّبُ ويتدرّبُ ويتمرّنُ على الإلقاء بعدة أشهر قبل هذا الاحتفال، يذهب يومياً إلى إحدى معارفه، يبقى هناك يقرأ لها وتقرأ له، يقرأ لها وتقرأ له، يقرأ لها وتقرأ له حتى يصلا إلى درجة نضج الإلهام. هو يقرأ كلمة بلغته بينما تقوم هذه المرأة الطيبة بالأمر نفسه بلغتها. بقيا على ديدنهما هذا عدة أيامٍ وليالٍ حتى اكتمل التدريب يوم الحفل.

قال عنها أبو براطم، جاحظ العينين، وكان يشرب ويأكل بشراهة، والسيجارة لا تفارق شفتيه:

- شوف الخزعبلات: هو يقرأ كلمة وهي تقرأ أخرى. لو كان هناك إلقاء أو خطابة وقافية لتفهمت الأمر، يضحك على الناس، وَهُم لا يفقهون ما تلقي عليهم! أرملة وحدانية تعيش لوحدها بين هذه الجدران، لا مَنْ يسأل عنها ولا مَنْ يكلمها، الحياة هنا صعبة، التلفون غالٍ والتلفاز ممل، العمل غير متوفر والدراسة متعبة ومملّة، فلا بد من الخروج إلى الشارع والذهاب إلى المدرسة يومياً، التحضيرات والدراسة اليومية صعبةٌ ومزعجةٌ. تعال إذن أيها الفطحل دعنا نستأنس بأشعارك، انت الغطاء وأنا القِدر، وافق شَنٌّ طَبَقَه!

أكمل جملته الأخيرة غاصًا في ضحكة خبيثة غير ودية وهو يسعل وصدره "يخرخش" كسيارة قديمة.

كان الفطحل بطبيعة الحال يعاقر الخمر، صار يشربه ويشربه، ينفخُ الدخان من سيجارته ولا يستنشقه. الجميع كان يلاحظه ينفخ وينفخ، ازداد نفخ الدخان بل نفثه وشرب الخمرة قبل يومين من الاحتفال بالذات استعداداً له، يشتري قناني النبيذ والعصير، يوزع الدعوات، ويقوم بالأشياء الأخرى بنفسه. يلتقي بالبنات، يسلم عليهن، يحتضنهن بطريقة أهل البلد، لا يتجاوبن معه بحرارة، يستمعن إليه بملل واضح، يجدن صعوبة في فهم كلامه، يحاولن أن يصغين بانتباه ليفهمن ما يريد أن يقول. الغرباء هنا يتحدثون عن انتقاص أهل البلد لهم إلا هو:

- مَنْ قالَ هذا الشيء، هذا الكلام الفارغ؟ هراء!

يُريد أن يثبتَ أشياء لا وجود لها كما يقول خصومه. هؤلاء الناس من أهل البلد مؤدبون للغاية، لا يفصحون عمّا في دواخلهم وما يفكرون عنك وعن ثقافتك لكنهم يحبون تلبية الدعوات وقضاء الوقت خارج بيوتهم، جَرّبْ أن تدعوهم إلى حفلة عامة وسترى السعادة تغمرهم، كيف لا وأنهم سيشربون النبيذ ويجلسون حول مناضدَ وضعت عليها شموع، لا شك أنهم سيَرَوْنَ أشياءً مختلفة عن تلك التي اعتادوا عليها في أيامهم العادية.

هؤلاء الناس طيبون، جميلون للغاية صريحون في الكثير من الأشياء العامة بعض الأحيان، متحفظون ومجاملون في الأمور الخاصة أو المثيرة، هكذا هي طبيعتهم وهم يقولون عن أنفسهم "نحن ناس مؤدبون" ومنهم من يقول "نحن نخاف الآخرين، نحن نخاف كل شيء، نخاف أن نتحدث إلى الآخرين ونخدش مشاعرهم، قد نقول شيئاً غير صحيح، ينافي تقاليدهم أو عاداتهم إن كنا لا نعرفهم، قد نجلب مشاكل لأنفسنا وهناك الآلاف من الاحتمالات و"قدات" قَدْ، وقَدْ وقَدْ، وقَدْ. ألا يحق لنا أن نأخذ بقول سقراط: "تحدّثْ قليلاً كي لا تخطأ كثيراً" نجامل ونبتسم. هل هناك أفضل من كل هذا؟

العصـبيون والعصـابيون والمتوترون والموتورون من بلدان الحر والأحزاب والاحتراب والانقلابات والقتل والدمار والحروب والحقد والحسد والقيل والقال من العرب والكرد والترك والعجم يقولون: "هذه ابتسـامات نفاق" وقليل منهم يقول "يا ناس على الأقل الابتسـامة بداية لحوار جميل، أو على الأقل تُطمئِن الإنســـان" لكن كل هذا لا يقنع المتشـــنجين والموتورين ممّن يشـــعرون بـالتهميش والمعـانين من أمراض نفسـية أبداً، هؤلاء سـيبقون طوال عمرهم زعلانين حزنانين وحردانين، كل واحد منهم يتصور نفسه أفضل من الآخرين بل من كل البشر.

***

هؤلاء الحسّـــاد فعلاً غريب أمرهم! كيف ســـيتخلص الفطحل من الناقمين على المجتمع وكل شـــئ، كيف سـيواجه هذا الإنســان، طيب القلب هؤلاءَ العدوانيين؟ ماذا ســـيعمل لهم إن حاولوا اســـتفزازه أو الســـخرية منه وهو الرجل المســـالم الذي لا يقوى على إيذاء نملة صغيرة؟

كانت إجراءات الحفلة قد تمت وانتهت الاستعدادات، جَلَسَ صديقُ الفطحل إلى جـانـب تلـك الأم الطيبـة هو ومجموعـة أخرى، كـانوا أصـــحاب طربٍ وكيفٍ غير حاقدين، كانوا مازحين متعاطفين معه، أراد الجميع أن يتحدث إليها عن أمور الأدب والثقافة.

لم تُظهِرْ المرأة العجوز أيَّ اهتمـام، حـاولوا وحـاولوا، جربوا كل اللغات، لم يجدوا لغة مشتركة.

كانت المرأة الطيبة تجيد الابتســـامة الهادئة، جلس معهم "حميد روسيا"، كما كانوا يلقبونه، كان هذا مغرماً بروسيا، يذكرها فـــي كل مناسبة أو غير مناسبة، همسَ لصديقه بخبث محرّكاً أصابعَه الطويلة الرفيعة إلى الأعلى:

- هذه الجدّة ينطبق عليها المثل الروسي: لا سمكة ولا دجاجة، ماسخة.

رمقَه صديقُه "نعمان كآبة" بنظرةِ تأنيبٍ مستاءً منه:

- عيب عليك، اختِشِ هذه مثل جدتك، امرأة عجوز، كبيرة السـن، انت عشت في روسيا بَسْ سنة، إشخبصتنا بيها؟ إشحال لو عشت بها سنين طويله؟ كافـي عاد طلّعتْ أرواحنا، خلينا اليوم بلا روسيا الله يخليك.

دارت بينهم مُجاملات ومَدارات والمرأة العالمة لم تتفوه بشيء عن الشعر، لم تقل شيئاً عن كتابه الجديد. يا ترى ما الذي حدث؟

احتار الجميع لهذا الأمر، توقعوا منها أن تحدثهم عن الأدب وعن انطباعها عن كتاب الشاعر الهمام، لكن لا شيء من هذا القبيل.

بعد لحظات جاءت فتاة شـرقية جذابة، لبقة ومحدّثة جيدة، باسـمة الأسـنان، جلسـت إلى جانبها ويبدو أنهما اندمجتا فـي حديث ممتع، أخذتا تتحدثان عن أمور الصـحة والأكل المغذى والفيتامينات والسـفر والشمس والطقس.

حميد روسيا، ويبدو عليه من الذين أفنوا حياتهم فـي قراءة جريدة أنباء موسـكو، ذكرَ آراء شـيخوف عن النسـاء عندما يتحدثن عن موضوعات السياسة والفكر والمطبخ.

قال حميد روسـيا متثاقفاً مُرتّباً نظارته باليد اليسـرى بينما كان يحرك سـبابته اليمنى بين لحظة وأخرى حركاتٍ متناسـقةً مع حركة عينيه النرجسيتين الواسعتين:

- المرأة "تتقّعر" عندما تتحدث عن السياسة.

صـديق آخر للفطحل "نعمان كآبة"، كان هو أيضـاً يبدو عليه أنه أفنى حياته فـي قراءة الصفحات الثقافية للصحف والمجلات، إلا أن عينيه كانتا سـتة على سـتة ولا يسـتعمل نظاراتٍ ولا هم يحزنون، وأصابعه ليست رفيعة ولا طويلة وعيناه صغيرتان عسليتان، قالَ:

- بالمناسبة "تتقعر" هذه أكيد من بهاراتك، هل صحيح أن تشيخوف قال مثل هذه الكلمة؟

لَمْ تُعِرْ المرأة متذوّقةُ الشعرِ، مربية الفطحل لكل هذه الأحاديث أهميةً، لم تحاول أن تسألهم عمَّ يتحدثون مثلاً، كانت تنظر ساهمةً في الوجوه والجدران واللوحات المعلقة وقلادة الشابة، الجالسة جنبها.

رآها أحد المتحذلقين تتلّمس القلادةَ وتسألها عن نوع الذهب، ازداد التعقيد بالنسبة لبعضهم وكَثُرَ اللغطُ واختلفت الأقاويل.

قررَّ أحد الحضور الفضوليين من الكتّاب الهائمين والمدّعين بالوَلَهِ، أن يقطع "شكّه" باليقين، سألها بأدب متصنع متطلعاً إلى الآخرين:

- يا ترى ما هي الموضوعات الأدبية التي تكتبين عنها، وما اسم المعهد الذي تعملين فيه؟

- ماذا؟ ماذا تقول؟ عم تتحدث؟

وأردفت مبتسمةً:

- أنا امرأه عجوز متقاعدة، لم أكتب شيئاً ولم أعمل في كل حياتي، كنت مشغولة بتربية أطفالي الستة!

صُعق الجميع وبدت علائم الدهشةُ على وجوهِهم جليةً، راحت تحدثهم عن عوائل أيام زمان، وكيف كان الناس يحبون تربية الأطفال رغم صعوبة الحياة، كانت العوائل كبيرة والناس لم يكونوا مدلّلين وأنانيين كما هو الحال في الوقت الحاضر رغم توفر كل شيء لديهم لكن الشعور بالإنسان يتناقص يوماً بعد يوم والأبناء يتركون ذويهم مبكراً مهتمين بأنفسهم وحياتهم الخاصة ويعانون من مشاكل وأمراض لم تسمع بها عندما كانت شابة مثل الإيدز وغيره، ويعيشون حياة شبه بوهيمية ويتزوجون ويطلّقون بسرعة، ولا يبالون لذويهم في آخر سنواتهم فيتركونهم يموتون لوحدهم في دور العجزة.

كانت الأم النرويجية هادئةً، تبدو على وجهها الدائري الوردي

ملامح الورع الديني والطيبة. لم يفارق الحزن والشـــفافية نظراتها وبريق عينيها أبداً، ازدادت حدة الحزن عندما صارت تتحدث عن دار العجزة الذي تسكن فيه منتظرةً ساعتها الأخيرة. قالت بألم:

- بعض هذه الأمور غير موجود عندكم، أنتم مختلفون عنا لكنكم لستم أفضل منا ولا نحن أحسن منكم، أعتقد أن لديكم أشياء جميلة، هذه حقيقة نعترف بها نحن جميعاً ولكن القليل منا من يود أن يعلنها ويتعلم منكم، إنه مجرد خوف من الآخر، مثل الطعام الغريب، وبالمناســـبة حتى الأكل الغريب كان الناس لا يعرفونه قبل مجيء الأجانب إلينا، لكن على أية حال فالطبخات الغريبة لا بأس من التعوّد عليها أما التقاليد فهي شـــيء آخر والناس عندنا يخشـــون العادات الأجنبية ليس لأنهم متعلقون بتقاليدهم، فهناك مئات الآلاف منهم من لا يبالي على الإطلاق لا بالعادات ولا بالدين، لكنه مجرد فراغ وخوف من المســـؤوليات الجديدة وتحديد الحريات ورَدِّ فعل ليس إلا.

ثم أردفت قائلةً: أذكُرُ لكم مثالاً بَســـيطاً، وهو الذبح الحلال، والدي كان فـــي السابق يذبح بنفس الطريقة، ولم يكن الناس يطلقون رصاصة تخدير فـــي رأس الخنزير أو البقرة والخروف، بل كانوا يذبحونها كما يفعل المسلمون واليهود اليوم، لِمَ هذه الضجة الإعلامية، هل هو خوف من هذه العادة التي أصبحت جديدة علينا أم حساسية من الآخر؟

انســـجم الحضـــور معها أي انســـجام، أدرك الجميع أن هذه المرأة الطيبة ما كان يمكن الانســـجام معها لو كانت مليئة بالتعقيدات وعلوم الأدب والفلسفة.

نظر الجلســـاء بعضـــهم إلى بعض نظراتٍ مليئةً بالدهشـــة، قال أبو براطم ساخراً من الفطحل:

- عقدة نقص! يلتقي مع إنســـان عادي، يقول لك "عندي موعد مع فنان"، يلتقي مع شـــخص آخر من هؤلاء الناس يقول لك "هذا عالم

فـي الأدب والفلسفة".

قال له حميد روسيا، الشاب المثقف ذو الأصابع الطويلة الرفيعة مبتسماً:

- انتَ بصراحه، تحمّل الأشياء أكثر من حجمها، يا أخي تَساهلْ.

ردَّ عليه أبو براطم، مكشراً عن أنيابه بينما عيناه جحظتا والسجارة تهتز بين إصبعيه:

- مَنْ قال لك هذا الكلام؟ شِنو قصدك؟ انت تحكي عن شيء ما عندك علاقه به، أنت تعرف الموضوع؟

قال حميد روسيا مبتسماً محركاً كعادته يديه الطويلتين إلى الأعلى كأنه يتبارز بهما، مدافعاً بحدّة:

- إي، نعم، أعرف الموضوع، انتَ تبالغ فـــي التفسير وتشكّك كثير، يا أخي انتَ تضخّم الأمور وتعطيها أكثر من حجمها، انت مفخّخ!

- سِدْ الموضوع، ما لي مزاج أناقشك، باچر أحچي ويّاك.

قالت البنت ذات القلادة الجميلة فـي لهجة شاميّةٍ:

- شُو عَمْ تحكو؟

قال لها الشاب السمين مبتسماً، ذو الأصابع المتينة والقصيرة وكان يتميز بالهدوء ويلقبونه "عدنان السمين أو الدخو" وبدتْ الخمرة تصل إلى رأسه والنشوة فـي عينيه الغائرتين:

- نحكي عن الحب. فـي شيء أحلى من الحب؟

- شو به الحب؟ شو قلتم عليه؟

- قلنا عليه الحب هالحرفين مش أكثر.

- ومين هي الحبيبة، مين هو الحبيب؟

صاح الجميع مرةً واحدةً:

- الفطحل، وهل يخفى القمر؟

فُوجئتْ البنت، التي أعجبتها لعبة الحديث عن الحب، كانت عيناها

متسائلتين، غرقت معهم فـي قهقهات، فرحتْ لها مربية بوشكين. كانت المرأة العجوز، مربية الفطحل تتطلع إلى وجوههم الضـاحكة مبتسـمةً. لم يَسلمْ الفطحل من تندراتهم الطريفة وسخريتهم الوديّة.

أطلَّ عليهم الشـاعر الولهان بوجهه البشـوش بعد انتهائه من الإلقاء لأناس لم يصـغوا إليه. جاءوا للتسلية وقضـاء الوقت فـــي زمان يهتم الناس فيه بكرة القدم لا بالشـعر، نظَرَ هؤلاء الحضـور إليهم وابتسـامة طفولية تغطي وجهه قائلاً:

- ها، إشلون الأمور؟ رائعة؟ محتاجين شئ؟

ردَّ الجميع ضاحكين مرة واحدة مثل الفرقة:

- كلّه تمام، وهذه العالمة حكتْ لنا كل قصص الأدب.

- العالِمة؟! تساهلوا، لا تعقدوا الأمور، يجوز يكون خطأ مطبعي!

قالها صـاحبهم والطفولة بدت واضـحةً فـــي ملامح وجهه، غرق الجميع فـــي الضـحك وأياديهم متشـابكة وروح الدعابة والود والألفة تطغى عليهم.. ها.. ها..

كانت العجوز ذات الملامح الإنســانية النورانية، ســعيدةً لمزاج الشـباب وهم يضـحكون، تنظر إليهم بعينين مبتسـمتين، ورعتين نظرةً يمتزج فيها الفرح بالقلق كأي أم تراقب من بعيد أطفالها أثناء لعبهم.

النفاق

ممرٌ طويلٌ، معتم، يَفصلُ بين قاعاتٍ دراسيةٍ. مجموعاتُ الطلبةِ تَتَجمّعُ هنا وهناك. قالَ الضعيفُ للسمين "الدخّو" المشهور بِبَساطته وطيبته:

- واحد حقير، لا تصدقه، يا أخي قبل مدة أخذ مني فلوس ولحد الآن ما رجعها.

ردَّ عليه السمين مهدئاً أعصابه:

- مو مشـــكلة، يجوز يرجعها لك بعدين، ممكن ما عنده حالياً يا أخي تساهل وإياه.

ردَّ عليه الضــعيف بعصــبية رامياً عقب ســيجارته على الأرض. دعســـها بقدمه كأنها ذبابة أو شـــيءٌ ما أزعجه، كان يبدو عليه القوه والعزم رغم نحافته:

- انتَ طول عمرك "أبو خطية"، بشــرفـــــي انت أكبر "زوج" والله آني تعرفني ما عندي لحية مسرّحة، عند الضـروره أفرك خشم أكبر واحد بهذي الدنيا. يمعوّد ذولة العراقيين ما يفيد بيهم غير العين الحمرا.

- على كيفك، الدنيا ما تسوه، كل شـيء بالتفاهم. وبالمناسبة تقدر تقول لي ليش نسمي الإنسان البَسيط "زوج"، والعجيب هذا موجود عند العراقيين بَسْ؟

- أهووو... أنت بعدك بهذه الكلائش، رُح، رُح الله وياك، من رخصتك أريد أروح للتواليت.

فـي طريقه إلى التواليت استوقفه اثنان من الطلبة، قالا له ضاحكين:

- تعال، سمعت الأخبار والمصائب والطلايب والشعّار؟

- لا، شنو صار؟

- معقولة ما تعرف؟ صاحبك العبقري الشعّار؟

- من صاحبي؟

وغرق الثلاثة فـي قهقهات عالية، انتبه الآخرون إليهم.

- مَنْ هناك غير غوني؟ أبو اللّلي، تسوّي نفسك ما تدري بالقضية؟

- طيب، خير إن شاء الله، شصار بغوني؟

- صاير شاعر آخر زمانه!

- وشنو العجيب بالموضوع وشنو دخلكم؟ ليش كتابة الشعر لكم بَسْ؟

- لا، من قال لك هذا الكلام، إحنه ما قلنا أي شيء، كل ما فـــي الامر إحنه استغربنا للأمر.

- وليش عيني تستغربون؟ لو مـــگـــدّي ما يحب مـــگـــدّي؟ موتوا يا مـگـاديه من القهر.

ثم أردف بسُخرية وبالعربية الفصحى:

- شـــحاذ لا يحب شـــحاذاً. ها ها ها! هذا الشـــاعر غوني حتى اســـمه غريب! مَرَّة يقولون روني، ومَرَّة ثانية يسمونه عتبار ومَرّة أخرى قرندل والله ما افتهمنا.

غرق الجميع فـي الضحك من جديد، وقال أحدهم مقهقهاً:

- بَسْ بشرفك شنو رأيك بقصائده؟

- مثل شِعركم، وشوية أحسن، يا عواذل فلفلوا.

وختم حديثه بقوله:

- "من رخصتكم رايح للتواليت. مستعجل".

قبل أن يدلف الســـمين إلى الزاوية حيث التواليت اســـتوقفه أحد الطلبة، كان عريض الوجه، واسع العينين، مبتسماً قال له:

- تعال، تعال أخبرك قصة جديدة و...

- اسمعْ، من فضلك خلِّها بعد التواليت أفضل!

- لا بالله عليك خلّني أحكي لك إياها قبل ما تروح للتواليت.
- ليش عيني حتى تسد نفسي، يا رجل آني أصلاً طول عمري بطني إمساك! وآني ما عندي مزاج!
- لا، من هذه الناحية اطمئنْ، راح أفتح شـــهيتك بَسْ مو للتواليت، لكن لقضايا أخرى.

غرقا فـي الضحك ممسكين ببعضهما بِودٍّ وبروح شبابية.

***

كان السمين يجلس على كرسي عتيق مهمل فـــي الحديقة، لم يكن يفكر بشيء غير أولئك الذين يشغلون مشاعره فـي غربته التي لم تتبدد لا بالدخان ولا بأشـياء أخرى، لا شـيء غير الانتظار. كان يجلس إلى جانبه صـديق آخر يتصـفّح بعض الأوراق، اسـمه أحمد، هادئ الطبع، يميل إلى الصـــمت والتعليقات المقتضـــبة، وكان أصـــحابه كثيراً ما يسمونه "أبو الهول" مازحين.

يدٌ تربتُ على كتفه، فزّ للحظة ثم عرف صاحبها الذي بدأ يسأله:

- شـنو القصـة؟ ليش كَاعدين هنا لوحدكم؟ إشـلونك أبو الهول؟ أشـوفكم مو على بعضكم! الدنيا ما تسوه زعل.

قبل أن يتم حديثه بكلمات أخرى أجابه السـمين بهدوء مشـيراً إلى كرسي آخر إلى جانبه:

- أهلاً قاسم، أقعد، استرح.
- شكراً.
- تأخذ سيجارة؟
- لا، شكراً، ما عاجبني، ضايق خلقي.
- اللّي خُلقَه ضايق لازم يحرق صدره، احرقْ يا رجل.
- هيجي تشوف؟ يَلّه خلّنا نحرق صدورنا.

كأنه يود أن يقول له شيئاً، بادره السمين:

- أشوفك مو على بعضك؟ متضايق من شيء؟

زفر قاسم زفيراً عميقاً، قال وكأنه يتمتم مع نفسه:

- والله يحتار الإنسان شِيقول عن البشر، يا أخي انعدمت الأخلاق والأصالة وما بقي غير التفاهات.

قال له أحمد أبوالهول مهدئاً إياه:

- اصبرْ إن الله مع الصابرين.

بينما قال السمين:

- تساهلْ يا قاسم، لا تعقّد الأمور، كلها غمامة وتزول.

- أُوفْ، انتَ دائماً هيك، إنسان طيب وقلبك نظيف، لكن يا حيف وألف وَسفَه، الناس ما يقدّرون هذه الطيبة ولا يحترموها، ويسمونها سذاجة وغباء و...

وقبل أن يكمل قاطعه السمين قائلاً بهدوئه المعتاد في لهجة متسائلة:

- أشوفك تحكي بالألغاز يا قاسم! احكِ بصراحة!

- والله شنو أكثر من هذه الصراحة يا عدنان؟ انت فعلاً مثل ما يقولون نايم ورجلك في الشمس!

اندهشَ عدنان المتين، زاغت عيناه أكثر، مَرَّرَ يدَه اليمنى على شاربيه وشفتيه الغليظتين، أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، قرّب وجهه إليه متسائلاً:

- شنو قصدك من كل هذه الألغاز؟

- والله في الحقيقة آني بقيت متردد كثير قبل أن أفكر بنقل القصة لك، ولكن الصداقة والزاد والملح بيناتنا يجبرني أن أنقل لك كل شيء أعرفه.

- طيب من دون مقدمات ومجاملات، احكِ لي باختصار، لا تمرمر

قلبي، تره آني بلا شيء قلبي محروق، وقسماً بالله، أُوف.. أُوف..

- والله فـــي الحقيقة آني مقهور كثير والمرارة بقلبي، وبشرفـــي لولا العيب لعملت له سالفة كبيرة ومشكلة عويصة و...

- يا أخي من هذا الّلي انت لهذه الدرجة متضايق منه؟ قُلْ لي بالله عليك!

- هو انت تعرفه زين!

- تقصد مَنْ؟

قال أحمد أبو الهول مدارياً الموقف راغباً في الخروج منه، موجّهاً كلامه إلى عدنان:

- لا تدوّخ نفسك عزيزي عدنان، تساهلْ أخ قاسم، تساهلْ بالله عليك!

قال عبارته الأخيرة ناظراً بعينين معاتبتين غامزتين إلى قاســـم. تململَ قاسم، بدا الحرج فـــي عينيه، نظر إلى الخلف مَرَّرَ أصابع يديه على شـــعره الكث ممشـــطاً إياه، ضـــرب الأرض بقدمه اليمنى، فَركَ عينيه الصـــغيرتين بإصـــبع يده اليمنى، حكَّ أنفه بقوة، جالت نظراته المكان هنا وهناك قائلاً بارتباك ملحوظ، تجنّبَ نظراتِ الآخرين:

- يعني، خلينا بلا فضـائح ولا ذكر أسماء، ثم آني مجرد ما راح أحكي لك القصة انتَ راح تفهم المقصود.

- طيب، احكِ لي الموضوع، أقلقتني يا رجل!

- طيب، على كيفك، وإلا آني ما أردت أن أدوخك بالمســـائل الطايح حظها. باختصـــار، هذا صـــاحبك الّلي دائماً تهتم به، كَاعد يحكي كلام كثير وما عنده كل شـــعور بالمســـؤولية، يعني أقول لك مرة ثانية هو واحد تافه وجاحد و"بذّات" أناني وحرام الواحد يساعده.

قبل أن يكمل قاسم حديثَه قاطعه عدنان قائلاً بملل:

- فهمت قصـــدك. صـــدقني الموضـــوع كله تافه وما يحتاج كل حرق الأعصـــاب، ولازم تعرف آني فاهمه وعاجنه وخابزه، بَسْ تقدر

تقول متساهل وإياه، مَرَّة أقول لنفسي "هذا واحد مسكين" ومرّة أقول لها "هذا واحد... والله ما عندي مزاج أحكي عنه، شنو تريدني أسَوّي له؟ ثم هذه الأمور تافهة وما تستحق نشغل نفسنا بها لأنها صغيرة، يا جماعة والله عيب علينا نضيع وقتنا على أمور تافهة وآني قلق على الأهل ببغداد، جماعة الأمن مروا على زوجتي وهددوها وحققوا وإياها يسألوها عني، الظروف هناك صارت لا تطاق وآني خايف عليها وأطفالي ولازم أسحبهم بأي ثمن والمشكلة هي مريضة.

- يا أخي آني فاهمك وأعرف ظروفك وكلنا نتعاطف وإياك، وبالحقيقة كلنا بالهوى سوا، أنت تعرف آني عندي نفس الهموم، لكن ما أريدك تحكي عن هذا الشخص بهذه الطريقة الساذجة لأني ما شفت إنسان جاحد وناكر جميل مثله، وآني شنو داخل بجيبي حتى أحكي لك هذه الأمور لولا محبتي واحترامي لك واعتزازي بك، بصراحة وبدون مجاملة أنت فخر لنا كلنا ونحن ما نقبل أي واحد يأخذ غيبتك أو يحاول يتمسخر عليك أو يتصور طِيبتك الزائدة سذاجة لو غباء، وعلى أية حال آني أترك كل الأمور لك وما أتدخل بشؤونك، عساه يأخذ غيبتك أو يشتمك.

آني من الآن فصاعداً لا أتدخل ولا أنقل لك أي خبر، سواءً شتمك أو طرح اسمك قدام الناس يستهزأ بك.

تغيرت ملامح عدنان، تغضن وجهه، احمرّت وجنتاه، بشرته انقلبت إلى حمراء، جبهته بدت كأنها مرسومة بخطوط حمراء، كأن الدم احتصر في كل رأسه، عيناه لم يبدُ منهما شيء، تغير شكله تماماً، تحول إلى إنسانٍ آخر، صرخ بقاسم كالوحش قائلاً:

- وصلت لدرجة أن هذا الطفيلي التافه العايش على الآخرين يسخر مني أو يشتمني، لازم تعرف آني عارف كل شيء، آني أعرف أنه أخذ غيبتي أكثر من مرة، تصور قبل مدة قال لصديقنا كريم الأسوَد آني أهتم به

حتى أتقرَّب منه، على أساس هو شخصية عظيمة!

قال عبارته الأخيرة بلهجة خطابية. كان كريم الأســـوَد قد ظهر متجهاً نحوهم وهو يسمع حوارهم، بادرهم قائلاً:

- الله، الله، شــنو هذه القدرة المســرحية والخطابية يا عدنان؟ أشــوفك اليوم عصـبي؟ السـلام عليكم، إشـلون أمورك يا قاسـم؟ تحياتي لك أبو الهول!

- تحياتي لك عزيزي كريم.

أجاب قاسم محبطاً متعكر المزاج:

- وعليكم السلام، تعال أُقعد وشوف هذا التافه إشلون لسانه طالع، فعلاً "إن أكرمت اللئيم تمردا".

رَدَّ كريم قائلاً محني الظهر، مطأطأ رأسه:

- تحكي لي آني عن هذا التافه ال بي عار؟ آني آخر من تحكون له عنه لأني أعرف كل ســوالفه ولَفّه ودورانه وتمســكنه "تمســكن حتى تتمكن" وباختصار أصلاً آني ما أحب أسمع عنه أي شيء لأنه واحد خائن وجاحد وناكر جميل وما عنده كل مبادئ. تَصَـوّرْ هو آخر مرة قال عنك إنك طماع وبخيل ورجل أمي، لا عندك عِلم ولا فهم. وإذا تتصـورني كذاب أو منافق! إذا عجبك، قُلْ لَه: كريم الأسـوَد نقل لي هذا الكلام، وآني مستعد فـي أي لحظة أن أواجهه.

انت لو تعرف الحكي الكبير الّلي يقوله عنك تجن، هذا لا عنده قيم ولا أخلاق، لا احترام للشـــرف ولا العرض ولا التقاليد، يا رجل هذا يشـــك حتى بأمه، وآني ما شـــفت بحياتي مثله بخيل ومدّع، يدعي السياسـة والحب والنسـوان والفقر والمَسكنة، وهو مجرد إنسـان فاشل عايش على الناس، تصـوروا بعد كل صـداقتي وإياه، لما وصـلت لهذا البلد اتصلت به هاتفياً وأردت أشوفه، جاء لي بعد كم يوم من وصولي لهذا البلد وبقيت لوحدي ولا "أحد ولا ماحود" قولة أمي الله يرحمها.

يا سيدي، قُلْ تساهلنا من هذي الناحية، قلنا مو مشكلة، يمكن يكون الرجل مشغول، كل شيء يصير بالدنيا، وفي النهاية المثل يقول: الغائب حجته وإياه، على أية حال جاء بعد مدة وقال: يعجبك ننزل للمدينة؟ قلت: ليش لا، آني محصور يا رجل هنا بين الحيطان مثل السجن، طلعنا ووصلنا للشارع، انتظرنا سيارة النقل العام، ركبنا الباص وفاجأني قدام السائق يقول لي: الناس هنا يدفعون الأجرة للسائق، ادفعْ له أُجرتك"!

ضحك كريم، رفع يده إلى الأعلى كأنه يشير إلى غراب أسوَد حَلّقَ فوقَهما، أخذَ سيجارةً جديدة من علبته، أشعلها، وضعها في فمه، كانت شفتاه ترتجفان، مَرَّرَ أصابعَه على شاربيه، فَرَكَ راحتي يديه، صمت قليلاً، شعر بالألم، حَسَّ الآخرون بحزنه، رمقوه بنظرات متعاطفة، كأنه كان يهم بالبكاء، التقت نظراته بعيني عدنان، انتبه الأخير إلى الحزن في ملامح وجهه وعينيه العسليتين المدورتين الطفوليتين.

كان أبو الهول يتصفح كتابه وعيناه تتطلعان إليهم بين الفينة والأخرى. ساد صمتٌ قصير، لم يعلق أحد على كلامه، قَطَعَهُ متممًا حديثه، ساهمًا بنظراته إلى الأمام كأنه يسترجع ذكرياته وكانت ابتسامة ساخرة مرتسمةً على شفتيه:

- على أساس أنه دَ يعلمني إشلون يدفع الركاب للسائق أجرتهم في هذا البلد! تتصورون هذه التفاهة؟ أصلاً آني ردت أدفع أجرته وأجرتي، آني طبعاً خجلت و"تعالي يا أرض انشقي وابلعيني"، ردت أنزل، لكن السائق شغّلَ الحافلةَ، ردت أمسح الأرض به، أرزله رزالة وأذكره بكل شيء لكن عيب، كان طول عمره يشكي ويبكي، "الظروف صعبة، الظروف صعبة، أمورنا تعبانة"، بوقتها قلت لنفسي" هذا مسكين راح يموت من الجوع.

آني ما أحب الشكوى وآخذ بالمثل اللّي كان جدي الله يرحمه دائماً يقوله: صِيت الغِنى ولا صِيت الفقر! هيچي يعني كانت طبيعة جدي،

كان من جماعة: أُصرفْ ما في الجيب يأتيك ما في الغيب!

قال له أحمد أبو الهول بهدوء مواسيًا إيّاه محاولاً تهدئة الخواطر:

- يا أخي هذا مسكين ومسالم ويا ريت لو كل الباقين مثله، والله أحسن من غيره بكثير، وبالمناسبة مو مشكلة إذا ما دفع عنك أُجرة الباص.
- حَكى أبو الهول، أنت خلّيك بأوراقك أحسن لك، سامحني أبو الهول، بَسْ والله يا أخي ما اختلفنا هو إنسان مسالم على عيني وراسي بَسْ مو يهيننا ويقول علينا إحنه أميين لا نقرأ ولا نكتب، لكن خلّيني أكمل لكم القصة باختصار، فجأة قال لي لما كنا ف الباص: ننزل هنا، راح أعرّفك على متحف يجنّنك، تصور المتحف جنبك وأنت ما تدري. شمّيت، أو شممتُ حتى ما يزعل أبو الهول، بكلامه ريحة غريبة: المتحف جنبك!

آني شنو علاقتي بالمتحف؟ آني والمتحف شنو؟ كُجَه، مرحباً؟ على قولة العراقيين، آني رجال هلكان، تعبان نفسياً، الأمن صادروا محلي، حطّوني بالسجن، هربت من الحَبس وما أعرف وين مَرتي وأطفالي راحوا، وبعدين رحت للشمال وعبرت الحدود والدول والمطارات والمحطات وسلّمت أمري ومالي وحلالي للمهربين بَسْ حتى أخلص من الموت وأنقذ عائلتي وآني ما أفهم لا إنكَليزي ولا سنسكريتي حتى وصلت لهذه البناية داخل هذا المكان الّلي شفت به نمايم تعيسة وخليط غريب عجيب عمري ما شفت مثله. آني وين والمتاحف وين؟! يريدني أطلع للمتحف!! بالله عليكم شايفين هيچي واحد مدّع ٍ وكذاب؟ باختصار اللعبة ما عبرت عليَّ، آني أخوكم وأعرف هذه النماذج التافهة، لا عندها أخلاق ولا قيم ولا مبادئ وضيعتْ المشيتين لا حرفة ولا مهنة وما بقي عندهم غير اللف والدوران والتجارة بالمبادئ ولا تعرف العيب، لكن قلت: خَلّينا نشوف وين يوصل أمره هذا، وفي النهاية طلع لا متحف، لا تاريخ ولا أدب ولا بطيخ، كل ما في الأمر

المكان عبارة عن دكان أو محل بيع كتب قديمة، أقصـــد مكتبة فيها كتب، سـجادات قديمة، مثل هذه المكتبة تقدر تشـوف بقد الزبل، كل ما فــي الأمر راد يتخلص مني، فعلاً تمشينا، ما سمعت منه غير الشكوى والفقر والجوع وادعـاءاتـه ولفّـه ودورانـه، فهمت أنـه كـان خـايف من شـيء، قلق، كان مرّة يقول: التِلِفون هلكني، ومرّة يقول: تكاليف الحياة غالية. أُسكتوا وخلّوها آني صبرت عليه لمجرد أنه حتى لا يتصورني "حاسده على خر.." عفواً مثل ما يقول المثل.

قَهقَه الجميع، قال عدنان مشجّعاً إيّاه وكرشه يتحرك لوحده من شدة غرقه فـي الضحك:

- هذا المثل، إشلون ذكرته؟ هذا مثل عراقي فظيع!

شَـعَرَ كريم بالحماسـة والرغبة فـــي مواصـلة الحديث بعد إطراء عدنان له، أردف قائلاً:

- والله لو مـا هذه التفاهة لمّـاعرفت هذا المثل! آني أعرفه هذا واحد فارغ و"لصقة جونسن"، دبق و"يدوّر على حَبْ رَقِّي بالخره" مثل ما يقولون عنه، عفواً يا جماعة على هذا المثل القبيح.

غرق الجميع مرة أخرى فـي الضحك. واستمرَّ قائلاً:

- مثل ما قلت لكم ردت أمسح به الأرض لكن قلت لنفسي خلّيني أسكت وأفوّتّها لـه بهذي "المنقطعة والجلهيمة" والدنيا الغريبة، وبعدين شنو فائدة الحكي مع هيـچـي إنسان "يأخذ ما يعطي".

وقبل أن يكمل حديثه، نهض عدنان السـمين، الذي كان هو وقاسـم يصـغيان وكأن أبو الهول غير موجود بينهم ويشـاركان كريم الضـحك والسخرية من غوني. قال عدنان مصمّماً:

- هَسَّـه تشـوفون إشـلون أمسـح الأرض بهذا التافه، أريد أعلّمَه معنى البخل، آني أصير بخيل بنظره، عن إذنكم آني رايح.

مَسكَ أبوالهول بيد عدنان تلقائياً، قال له مهدئاً:

- أُقعُدْ، الله يخليك، وين رايح؟

تركهم عدنان ماشياً بخطوات ثابتة وسريعة وكأنه يقدم على حرب، صاح به كريم وقاسم:

- تعال، عدنان وين رايح؟ يا معَوَّد لا تغُثْ نفسك، الأمور ما تستأهل كل هذه العصبية.

رَدَّ عليهم من بعيد ملوّحاً لهم بيده اليمنى:

- ويأتيك بالأخبار مَنْ لَمْ تُزود.

رمق أحمد أبوالهول صديقيه كريم وقاسم بنظرة عتاب وتأنيب وساد الصمت جلستهم.

الشِجار

كان الفطحل غوني يجلس بهدوءٍ على أحد كراسي المطعم يشرب القهوة، يكتب على دفتر صغير بعض الكلمات متلفتاً بين الفينة والأخرى، كأنه ينتظر أحداً ما، يبحث عن أشياء مفقودة، ينظر مرة في الهواء، وأخرى في السقف، في زواياه، يبدو أنه يبحث عن فكرة ما. كانت أمامه بعض الأوراق المكتوبة بخط اليد، يبدو أنها قصة قصيرة يراجعها.

أخذ غوني يشطب بعض المقاطع، كتبَ ملاحظة على جملة في النص: كانت البنتين حبيبتين إلى القلب. "أعتقد المفروض أن تكون الجملة: كانت البنتين حبيبتان، لأنها من أخوات كان فهي حسب ما أتذكر تنصب الأول ويسمى اسمها وترفع الثاني ويسمى خبرها. النحو بالنسبة لي غير مهم. الصورة الأدبية أهم عندي بكثير".

قال لنفسه متمتماً بصوتٍ مسموع "النحو تدمير للأدب".

مَرَّ شاب متوسط القامة، أسمر اللون، سَلَّمَ عليه بلهجة شامية:

- أهلا أبو الشباب شو عَمْ تعمل هون؟

- أهلا حبيب قلبي، والله قاعد أراجع قصة قصيرة كتبها أحد الكتّاب الشباب الجُدد، طلب مني أصححها.

لَمْ يَسمعْه الشابُّ الأسمر، أومأ برأسِه سائلاً إياه وعيناه شاردتان كأنهما تبحثان عن شيء في أرجاء المقهى:

- إي، منيح، يدفعون لك كم قرش؟ دخلك ما شفت لي غسّان؟

- لا، شو يدفعون لي؟ هذا شغل مجّاني! مين غسّان؟ لا والله ما أعرفه. يجوز..

قبل أن يتمّ حديثه سأله الأسمر:

- اسمعْ، ما بدّك تطلع تشتغل معي بدل غسان؟ تحصل لك كم قرش، شغلة بَسيطة، تقشط الحياطين قبل الدهان يعني الصبغ بالعراقي، شو قلت؟ شايفك تتطلع فـــيّ وتضحك؟ شو ما عاجبك؟ لك الناس تتمنى تطلع تشتغل معي.

- لا عفواً مو هذا قصـــدي، بَسْ انت تعرف آني كاتب وما أدبّر هيك شغلات.

- **وشو** يعني كاتب؟ قال "كاتب"! أصلاً الصباغة هي فن التعامل مع الألوان، وبعدين الكاتب لازم يشوف شي آخر غير الّلي عايشه، شو تتصورني ما أعرف أكتب وما أفهم بهذه الأمور؟ لكن، والله أنا لما كنت فـــي البلد كان عندي رفقات كتّاب وشعراء، لَكَن؟ بَسْ كتّاب من هذوله الأصـــليين الّلي يعجبوك، كتّاب عليهم العمل والأمل مِشْ أي كلام، أصحاب شهادات ومن الجامعات مِشْ مثل ذول الّلي هنا، كل واحد صار يعمل حاله كاتب، ويا ريت لو كتّاب متواضعين يحترمون حالهم، كل واحد منهم شايف حاله ومناخيره طالعة للسماء، قال إيه، قال الكاتب لازم يصير سلوكه مو طبيعي، لك ما غريب إلا الشـــيطان، ذولاك الكتّاب عندنا غير نوع، فيهم أصالة وتحدّ وفاهمين ومليانين وعندهم شيء جوّاتهم بدهم يحكوا عنه، يشتغلون كل شيء، كل شيء، بس هذول الّلي هنا فارغين ومتصنعين ونافخين حالهم عالفاضي مثل الطواويس، معليش والله مش قصـــدي، بَسْ ما تفتكرنا بلا ثقافة، لمعلومك أنا تعلمت لحد السنة الثالثة بالجامعة بَسْ يا حرام ما كملت الدراسة، إي والله مع الأسف.

كان غوني يستمع له بأدب مكتفياً بالابتسامة وفـــي كل مرة يحاول أن يقول له شيئاً يقاطعه الأسمر، قال له:

- لا، والله آني مو هذا قصـــدي، الشـــغل مو عيب، بَسْ آني ما أعرف

شغلة الصبغ.

- معلوم الشغل شرف، أنا حبيت أفيدك وما فـــي شغل ما يقدر الإنسان يتعلمه، وهذا غســـان ما بعرف ليش ما إجه ولا تلفن لي، صـــدقني الشـــباب كلهم يتمنون يشـــتغلوا معي، وبعدين وينك، الشـــباب اللّي يشتغلون معي كلهم يعجبوك ثقافة ومزاج وعلم وأدب، ما بتفكر انّه هذه شغلتهم، أصلاً فـــي واحد دهّان يشتغل معي كان يشتغل فـــي لبنان مدرس عربي، بَسْ شـــو مدرس من هذا اللّي يعجبك، عليّ الطلاق ما بتقدر تقعد معه أكثر من ربع ســاعة لأنه يطيّر لك عقلك بالشعر العربي اللّي حافظه، لا مؤاخذة مش مثل الشعر اللّي نسمعه هنا، هذا رغم التعذيب اللّي أكله فـــي السجون الإسـرائيلية، بَسْ حبيت أخبرك، أنا والله أحترمك لأنك إنســـان مؤدب وهادئ، قلت خلّيني أفيدك، ما تفتكر شيء آخر؟

- لا، وَلَو! شكراً.

هنا ظهر غسان من بعيد يدخل المقهى، ودّعه الأسمر قائلاً مبتسماً:

- بخاطرك، شِدْ حيلك، هذا البلد ما يفيد به غير الشغل اللّي يوكّل خبز، ويجيب لك المصـــاري واحترام الناس والله ما بينفع هيك تعملوا بحالكم، لك شـــو فيكم أنتم إخوتنا العراقيين كلكم عاملين حالكم شـــعراء وكلكم بدكم تصـــدروا الصـــحف والمجلات وكلكم بدكم تصـيروا مسـؤولين سـياسـيين وكلكم تسـبون الطاغية لكن كلكم تكرهون بعض وعم تتخاصـــموا مع بعض وما بتحبّوا بعض، لك هذا البلد هنا ما بينفع به غير الشـغل الحلال اللّي يشـبع البطون، لك ما اختلفنا الشعر شـيء عظيم بَسْ إشلون عيني تصـير شـاعر وأنت ما بتحب أصـحابك ولا هم يحبوك، لا وفوق هذا تسخر من الشـغل، وصـــدّقني لو يكون عندك شـــغل وأمورك تصـــير مبحبحة، الناس تصير تناديك باسمك الحقيقي مِش روني ولا غوني، لا مؤاخذة شو هالاســم غوني هذا؟ وبالمناســبة أنا لِسّــاتني ما عرفت شــو اســمك

الحقيقي، مرّة واحد قال لي إنّ اسمك قرندل وواحد آخر قال عِتبار، وواحد قال اسمك محمد وهذه بصراحة أسماء معتبرة ومحترمة ليش غيّرتها؟ أنا ما بأفهم.

شعرَ غوني بالاستفزاز، نظر إليه مندهشاً، فتح فاهه ليردّه بشيءٍ، تمتم بصوت مخنوق، بينما ودّعه الدهّان متجهاً بخطىً مسرعةٍ نحو زميله غسان.

- بخاطرك حبيب قلبي أبو الغون!

عاد غوني إلى أوراقه ويساوره شعور بالحزن، فكر قليلاً بما قال له الشاب الأسمر، كان يكتب شيئاً ما بعد كل نظرة أو نظرتين وديعتين متوسلتين إلى الأعلى أو إلى شباك المطعم العريض، وكان ينقر على المنضدة بين لحظة وأخرى ينظر بِودٍّ للقادمين والغاضين من زبائن المقهى مبتسماً محيياً إياهم دون أن يبالوا له أو يردوا على تحيته بحرارة، كان يفتح حقيبةً مهترئةً ، عُرف بها، كان دائماً يعلقها على كتفه كالعليجة أثناء مشيه في شوارع المدينة، كانت الحقيبة جلديةً تبدو خاصةً بالكتّاب والمثقفين لكنها قديمة تتناسب مع ملابسه، سماه الناس الفارِغون والعاطلون والمشاكسون والمنافقون والمناكفون والعابثون "غوني عليجه"، وبآخر مشابه لها، لم يكن مستاءً من هذا الاسم ولا شهرته.

انتشرَ الاسم انتشارَ النار في الهشيم، وصاروا يتندرون به. كان غوني عليجة معتزا بحقيبته المهترئة وبشهرتها، يفتحها ويغلقها بين الحين والآخر، أخرجَ منها بعض الأوراق، قرأ قسماً منها، تصفّحَ البقية الأخرى، أعادها إلى الحقيبة وعاوَدَ الكتابةَ والنقرَ على المنضدةِ والالتفات إلى الجهات الأربع، كانتْ نظراتُه التي تبدو من خلف نظارته المعتمة قليلاً تَنُمُّ عن حالةِ طيبةٍ ومسالمة يشوبُها قليل من القلق، كانت شفتاه تبدوان كأنهما تتمتمان بكلام غير مسموع. شاب ممتلئ، عريض المنكبين، كبير الوجه، وجنتان ممتلئتان. فجأة التقت نظراته بشخص

قادم من مدخل المطعم، بادره غوني بابتسامة وعفويةٍ:

- أهلاً، إشلونك أبو الشباب؟

فوجئ غوني ببرودِ القادم وتَجَهُّم وجهه، لم يردْ على تحيته لا بمثلها ولا بأحسن منها، يبدو أن الرجل زعلان، عندما يغضب الإنسان يفقد صوابه، يضيّع السيطرة على نفسه أو يخرج عن طوره.

احتار غوني للأمر، ليس من عادات هذا السمين الدُخّو أن يخرج عن طوره، يا ترى ماذا حدث لهذا الإنسان الطيّب " الفطير"؟

وقف غوني في مكانه والارتباك بادٍ عليه، ماذا عساه يفعل له وهو لا يعلم سبب تَجَهّمِ وجهه، ابتسم له مرة ثانية متسائلاً:

- خيرك أبو العدون؟ هذي مو من عاداتك، أشوفك عصبي إن شاء الله ما حصل إلا الخير.

- لك أنت صُدق لو قالوا عنك غاسل وجهك ببولك!

- ما أسمح لك، شنو هذا الكلام؟

- أيّبَاخ، خوش ططط...يز.

- شنو القصة شصار؟ والله ما دا أفهم أي شيء منك.

كانت نظراته تتسم بالخجل والخوف من كارثة ستحصل، من أين جاءته هذه المشكلة الجديدة، لماذا يراقبه الناس ويتهجمون عليه باستمرار؟

- اسمعْ باختصار، إذا مرّة ثانية تجيب اسمي على لسانك أقصّه، مفهوم!

- لا لا لا، انتَ الظاهر عليك زوّدتها اليوم، وآني ما أسمح لك تهيننني بهذه الطريقة.

- والله آني، لو ما أقول انت واحد مسكين لكان هَسَّه خبزتك خبز، بَسْ أقول خَطيّة، وبعدين الناس راح تلومني وتقول عني ما لقى غير هذا الطايح حظه، الحايط النِصَيّصْ، وأكيد أنت راح تستغل

الموقف وتعمل قضية اعتداء! أو محاولة اغتيال! وانت عايش على هالخزعبلات والمثل يقول رزق البزازين على المعثرات.

- يا أخي انت فعلاً طولت القضـية وضـخّمت الأمور وتريدني أَخرج عن طوري.

- أيّباخ. "أخرج عن طوري" قال لك، "أَخرج عن طوري" أشُو جَرّبْ بالله عليك وأُخرجْ عن طورك! شِترِيد تسوّي لي يعني؟ تأكلني؟ ها والله آني نسيتْ، يجوز راح تكتب عني حتى تضيفها لأكاذيبك، إن شاء الله راح تقول هذه معلقة امرئ القيس، لك حمار روح شوف لك شغلة شريفة تعيش من وراها، إلى متى تدّعي؟

من الآن فصاعدا لازم تفهم الّلي أريده منك، إحمدْ ربّك آني وافقت، يا بذّات ناكر الجميل، وما عندك كل حصانة على لسانك.

وجد غوني المسالم، المسكين الفرصة لينفذ منها، كانت ملامح وجهه تتسم بالبراءة والطيبة والوداعةِ والخجل والارتباك، قاطعه:

- يا أخي آني ما نسيت الموضوع، بَسْ آني أحس أكو شيء بالموضوع، شنو تقصد حصانة اللسان؟ والله آني ما ذكرت اسمك إلا بالخير، انت إنسان شهم ومناضل وطني وصدقني يجوز ناس يعجبهم المشاكل والنفاق والقال والقيل نقلوا لك عني كلام مو بالمستوى المطلوب، ثم انت تعرف آني مشغول بالثقافة ولا دخل لي بالأوساط الّلي ما عندها لا هَمْ ولا غَمْ غير الأكل والشرب والنوم وغيبة الناس وحسدهم وخاصة الناجحين مثلي والطيبين مثلك وأنت تعرفهم أحسن مني.

- لكن فعلاً انت إنسان صلف وما عندك لا حيا ولا تعرف العيب، انت تدّعي الثقافة وما تعرف تحكي مع البشر، آني شنو علاقتي بهذوله الناس الّلي ما عندهم شغل وعمل غير الغيبة والنميمة، ومن اين أعرفهم؟ شنو شفتني يومياً قاعد بالقهوة، فارغ؟ تتصورني مثلك

عطّال بطّال أذرعُ الشـــوارع يومياً وكل الناس تطالبني؟ خلص، الحكي ما يفيد بعد، انتهى أي كلام وإياك. وجربّ ما تسوي الشيء الّلي طلبته منك!

- انت زوّدتها أكثرمن اللازم، إذا ما أقدر شـــنو تقتلني؟ انت إنســـان تقدمي ووطني من عندنا وبينا وتعمل معي هيـــچـــي، انت حزام ظهرنا! ثم ليش تهيننني، تقبل أقول لك حمار؟

حدق به عدنان "وقفت عيناه" بالحق، "خرج عن طوره" فـــي هذه المرة عن حق وحقيق كما يقال، هَجمَ عليه ماســـكاً إياه من "خوانيقه" ضـــارباً إياه ضـــربًا مبرحًا، بينما أخذ أحد أصـــدقائه يصـــرخ "أُتركه، أُتركه عدنان، الله يخليك، هذا إنسان ما يستأهل، راح يموت وتبتلي به، يحطّوك بالسجن والله، حياتك تصير جحيم".

لم ينفع الكلام بعدنان، نظر الصـــديق المفازع المحايد حوله، وجد خشبة صـغيرة، مسكها، نظر إليها، قبل أن يخنق عدنان ضـحيتَه حتى الموت بادره بضـربة قوية على رأسـه، سـقط صـارخاً، تنفس الفطحل غوني الصـعداء ناظراً حواليه إلى منقذِه وبعض المتجمهرين، تفحّصَ جهاتِ المكان من جديد، لم يقوَ على قول أي شـــيء، كان لســـان حاله يقول: لِم كل هذه القسـوة؟ ومن أين؟ من جماعتنا الوطنيين! هذا شـــيء غير معقول! لِمَ هذا الظلم، ماذا فعلتُ لأسـتحق هذه الإهانة؟ نهض من مكانه، التقطَ نظّارتَه من الأرض واعتمرها بسرعة قبل أن يسرق أحد ما النظر إلى عينه، رتّبَ ملابِسَـه، هيئتَه مَررّ أصـابع يديه على شـعره الأســود الفاحم الأشـــعث، مســـح أنفه بكفه الأيمن، مَسَـــحَ وجهه مرة أخرى، أخذ حقيبته وأوراقه ماشياً كأي مهزوم فـــــي حرب لم يخطط لهـا، نظر إلى عدنـان الممدّد على الأرض، رقَّ قلبـه عليـه، فكّرَ بمـا حدث لـه، أراد أن يرفعـه من الأرض، يـا ترى مـاذا حدث لـه، ازداد الاهتمام به بعد أن اطمئنْ لحاله، قال له شابان واقفان متجهمان:

- يـا أخي امشِ، ارجعْ لبيتك بســـرعـة إلى أن تهدأ الأمور، قبـل أن

يتصلوا بالشرطة.

وجلسا يعتنيان بعدنان، يمسحان عنه بعض الدماء، بينما مسكَ شاب آخر غوني وأخذه بيده جانباً بطريقةٍ وديةٍ، مهدئاً من روعه:

- تعال يا أخ غوني، اغسلْ وجهك هناك في التواليت، اطمئنْ، عدنان راح يفيق وكل شيء تمام، أنتم أخوة، آني أعرفك انتَ إنسان طيب، بَسْ...

قاطعه غوني متمتماً بكلمات مبتورة:

- عجيب، غريب، هو صديقي وآني أحبّه، يا أخي، صعبة، قساة، عدوانيين، عراقيين، الظاهر ذوله نافقوا بيناتنا، هم يغارون مني لأني ناجح ومتميز عليهم ولأن هو نفسه يفضلني عليهم بعلاقاته الخاصة بي.

قال له شاب أشقر طويل القامة، نحيف الجسم، كث الشعر واللحية، كان يتطلع إليه متعاطفاً بعينين زرقاوين دائريتين مكحلتين، يقود كلباً صغيراً أليفاً، بني اللون، أملس الجلد، يشبهه كثيراً:

- عليك الاتصال بالشرطة، هؤلاء وحوش الغابة لا يفهمون أننا نعيش في دولة القانون، هؤلاء برابرة! أنت إنسان مسالم لَمْ تؤذِ أحداً، أعرفك كل هذه السنوات تأتي إلى هذه المقهى يومياً، تجلس بمكانك، تشرب القهوة أو تكتب، أعتقد يجب أن تتصل بالشرطة.

***

دَقَّ جرسُ المنبّه. الساعةُ السابعةُ والنصف صباحاً، ضغط عدنان البدين على زر الجرس وعاود النوم.

عيناه مغمضتان، رأسه يؤلمه "يا إلهي مَنْ ضَرَبَني! ليش كل هذا الألم؟ آني إشسوّيت له؟" لم يستطع مواصلة النوم، نَهضَ من فراشه، كل شيء في غرفته كما هو، لم يتغير شيء، تذكّر أنه لم يَخنقْ إنسانًا، لم يَقتلْ أحداً، لم يضربه أحد.

بعد لحظات من التذكر، ابتسمَ قائلاً لنفسه "الله يكون فـــي عونك يا غوني، بَسْ الله لا يقولها وتأكلها فـــــي يوم من الأيام قتلة حقيقية من الصدق، بَسْطَة عراقية أصلية وتروح سبعة ماي، نَظَرَ إلى يديه، شعر بالسعادة، لم تقترفا جريمة.

هَمَّ بالدخول إلى الحمّام، رنَّ التلفون:

- نعم عدنان معك، من؟ صـباح الخير غوني. لا، مو مشـكلة، بَسْ آني هَسَّه قعدت من النوم ورايح للحمّام... آني شخصيّاً ما عندي سيوله، أموري المادية تعبانة نحكي بالموضوع...زين؟

طَيّبْ، طَيّبْ، أحاول أدبر لك من الشـــباب...ها؟ ما تريد منهم؟ ليش؟.. ما عندك علاقة طيبة بهم؟..لا قاسم ولا كريم؟ طَيّبْ هذوله مو أنت كنت تقترض منهم إذن ليش ما تطلب منهم؟.. ها، ها... طيب، طيب مع السلامة.

وَضَـــعَ الســـماعه قائلاً: العادة الّلي بالبَدَن ما يغيرها غير الكفَن! الطباع أقوى من التطبع!

الأمسية الشعرية

تَوجّهَ عدنان السمين نحو الحمّام مغنياً: "أنا مَنْ ضيّعَ فـــي الأوهامِ عُمرَه"، توقف أمام المنضـــدة متصـــفحاً بعض أوراق قصـــةٍ بعنوان "أمسـية شـعرية" كتبها صـديقُه أنيس، أصـرّ عليه أن يقرأها، أرادَ أن يعرفَ رأيه بها أو ردَّ فعلِه بعد قرائتها كما قال. أجل، تذكّرَ أن أنيس قالَ له:

- آني ما أريد اسـمع آراء الكتّاب والمثقفين بهذه القصـة، أريد اسـمع وجهات نظر ناس عاديين أقصـــد اعتياديين مثلك يا عدنان حتى أشـــوف فيما إذا يقدرون مع ذلك قراءة مثل هذا النص لأني أريده يوصـــل للكل، آني ما أكتب للمثقفين ويهمني رد فعل الآخرين، أرجوك حاول تفهمني، آني ما أريد تصـحيحات أو شـيء آخر من هذا القبيل.

كانت عيناه المبتسمتان تسرعان متطلعتين إلى النص الساخر، أراد أن يتوقف، لم يتمكن، اسـتمر يقرأ والابتسـامة تغطي شـفتيه متمتماً "الظاهر هذا عبقري يكتب عن عبقري آخر كل واحد يتصـور نفسـه هو العبقري والفطحل وبَسْ".

استمر عدنان يقرأ قصة "أمسية شعرية":

"... فـــي إحدى المرات أقام الشاعر الهمام أمسيةً أدبيةً وقال فيها شعراً عظيمًا جهنمياً:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل

بهانوي وحيفا وأرض بابل

وفـي قصيدة أخرى قال:

أرضُ الجزيرةِ عاقرٌ عاقرٌ عاقرٌ.

وفـــي رواية أخرى لأحد الثِقاة قِيل: إن الشاعر الفطحل ألقى فـــي إحدى الامسيات مرتجلاً أحد الأبيات الشعرية الجريئة المشاكسة، كاد أن يهلكه بِسَـــبَبِ غضـــب أهل المدينة عليه، لكنه لم يَنجُ مع ذلك من الضرب وتقريع المدرس وسخريته به واضطراره فـــي النهاية إلى الهرب من الأمسية:

"أخرجتُ قضيبي وتبولتُ على سيد نور".

أستغفر الله سيد نور من الأولياء الصالحين وكان الناس يترددون على مزاره كلما ألَمّتْ بهم الحاجة أو شعروا بالضيق أو بالخوف من هذا العالم المليء بالغش والدجل واللف والدوران، فمن يجرؤ التطاول عليه ومكانته؟

شَعَرَ مدرس اللغة العربية بالحرج والقلق وراودته مشاعر الخوف، كان حاضراً أثناء إلقاء القصائد، حاول أن يمسك زمام الأمور، خشي من انفلات يمكن أن يحدث، تطلع فـــي وجوه الطلبة، رفع يديه مشيراً إلى عدة جهات، مسح وجهه، بدت علائم التعب عليه، استجمع قواه، انتظر قليلاً، يبدو أن الأمور تسير نحو الأسوء، خشي من الفوضى، كان طويل القامة، عريض المنكبين، طويل الوجه، متين الرقبة، ذا رأس كبير يتوســطه أنف مســتقيم غليظ الشــفتين يعلوهما شــاربان مسترسلان، كث الشعر، أسمر الوجه، هبَّ كالمارد الجبار منتفضًا "ماســحًا الأرض" بالطلبة منظمي الحفل، قال موجهاً كلامه إلى أحدهم:

- قُل لي بالله عليك، انتَ من أين جايب لي هذا الشاعر الجايف الأجوف وهذوله العِفطية؟ واحد يحط هانوي المحتلة من قبل الأميركان والخونة الجنوبيين مع أرض بابل فـــي نفس الدرجة والمكان. بابل وين وهانوي وين؟ ثم هو ليش راح على هانوي ونســي فلســطين والله عجيب غريب أمرك ابني أنتَ؟

والثاني يعتدى على الأراضـي المقدسـة، ليش عيني الجزيرة عاقر؟ تقدر انتَ يا فطحل الفطاحلة تجاوبني ليش مكة المكرمة عاقر يا عريف الحفل؟ تقدر تقول لي ليش أرض الجزيرة عاقر؟ ها أشـو سـكتت؟ ذيك الساعة كان لسانك إشطوله، أشو هَسَّه لا حيص ولا بيص. يجوز يقصد عاقر لأنها لم تنجب شـعراء جهابذة مثله؟ كل شـيء يصـير بهذه الدنيا. ومع ذلك، السؤال موجّه له ولك واللّلي نظموا الأمسية.

توجه الأستاذ إلى المستمعين قائلاً:

- يا شباب آني ما أريد يجي واحد فـــي يوم من الأيام يتفلسف براسي ويقول: الحق كان مع الشـــاعر وأن الأســـتاذ علوان مدرس اللغة العربية ظلمه، آني أريد أناقشـــه بالأفكار الجمالية اللّلي تبنى عليها قصـيدته، قولوا لي: أين الجانب الجمالي فـــي فكرة التبول على سـيدنا، أسـتغفر الله العظيم، ما أريد أن أذكر اسـمه، هو واحد ولي من الأولياء الصـالحين، ثم لو أننا ذهبنا اليوم إلى مزار السـيد نور ماذا سنجد؟

بصـراحة، السـؤال موجّه إلى الشـاعر قبل أي إنسـان، وبالمناسـبة وينه هذا الشـاعر العبقري الفطحل المخضـرم فحل الفحول اللّلي يتجرأ على إهانة ضريح السيد؟ يبيّنْ اختفى!

كان المدرس يتلفت رافعاً رأســه، ينظر إلى المقاعد الخلفية، كانت أصوات تتعالى هنا وهناك، قال أحدهم "فص ملح وذاب"، بينما صاح ثانٍ "بال على روحه"، ونطق ثالث مقهقهاً إنسـان فارغ، راسـه متبّن، "شـــمط"، وســـخرَ رابع: "الهزيمة كالغزال" وكان الضـــحك يَتَخلّلُ أحاديثهم، بينما طغت تندّراتهم على كلام الأستاذ.

راح المدرس يتكلم بصـوتٍ عالٍ ضـاحكاً ولسـانه يملأ فمه وكأنه قطعة لحم كبيرة، وجد أحد الطلبة الرومانتيكيين الفرصـــة ســـانحة ليقول:

- العفو أســتاذ، بَسْ الجماعة قســوا عليه وضــربوه، العفو هذا مجرد رأيي الخاص بي يجوز آني غلطان ولكن هذه قسوة وعدوانية.

طغى السكون على القاعة، قال المدرس بصوتٍ مسموعٍ:

- مَنْ منكم يقدر يروح ويصــيح لنا شــاعرنا حتى يجي مرة ثانية يقرأ القصــيدة ونعطيه فرصــة النقاش مرة ثانية حتى ما تتهموني بالعدوانية أو التقليدية أوالرجعية أو أي شيء من هذه الكلائش الّلي تعودنا على ســماعها لكن أنتم قاطعتوني وما أجبتم على ســؤالي التالي:

طرح الأستاذ سؤاله بطريقة خطابية وصوت إذاعي عال:

- إذا رحتم الآن إلى ضريح السيد إش راح تشوفون؟

-.....

- أشوفكم ساكتين؟ ليش ما تجاوبون؟ السؤال صعب؟

أصَرَّ الأستاذُ على الطلبة بأن يجيبوا مشجعاً إياهم، قال أحدُهم:

- طبعاً راح نشوف القبر، أقصد ضريح سيدنا نور...

- هذا صحيح، وبعد شنو نشوف؟

قال آخر من المعروفين بالاهتمامات الأدبية والنقد، وكانوا يقولون عنه: لسانه أكبر من عمره:

- أشياء ورموز قديمة ذات ملامح رومانسية وأمور لها نكهة خاصة وعلاقة بالطقوس الدينية والتراث وعمق التاريخ والإنسان الصغير وأصالته.

وقبل أن يكمل قاطعه الأستاذ:

- عظيم، وماذا بعد؟ أنت وصلت إلى صلب الموضوع.

تشجع الرومانتيكي قائلاً:

-أكيد، أســتاذ، راح نشــوف المســاكين والفقراء والعجائز وغيرهم من الزوار الّلي جايين من كل العالم.

ثم أردفَ ضاحكاً:

- والســـفرطاســـات والملبَّس والحامض حلو وغيرها من المناظر الشعبية.

توقف قليلاً ثم اختتم حديثه ضاحكاً:

- وكلشي وكلاشي.

أراد أن يُكملَ، توقف عن الحديث، غرق الجميع فـــي ضحك على "كلشي وكلاشي"، ارتاحَ الأستاذ على تلطيف الجو، قال مبتسماً:

- أنتم وصـلتم للإجابة، ولكن آني كنت أقصـد أن وجود الناس هناك أكثر بكثير من حضور هذا الحفل، صحيح أم خطأ؟ شنو رأيكم؟

أجاب الجميع بمختلف الطرق:

- طبعاً، هذا أكيد، هذا ما يحتاج إلى تفكير.

- إذن كيف يبول عليه الشـــاعر؟ كيف يبول على هؤلاء الناس الّلي يدّعي الانتماء لهم؟ ثم لِمَ لَمْ يصفْ الجوانب الرومانتيكية والصور الشعبية، بشرفكم أيهما أجمل التبول أم السفرطاسات على قولة صاحبكم الرومانسي الوجودي السارتري.

ضـــحك الجميع، تنحنح الطالب المثقف أبو لســـان أكبر من عمره، مطَّ شـــفتيه، لاحظ الآخرين يراقبونه، شـــعر بالحرج والخوف والقلق والفخر مرة واحدة، قال الأستاذ مهدئاً إياه:

- مو مشكلة، كل واحد معروف مَن هو ومستواه، كل لشّـه معلقة من كراعينها، لا تخَف أنت عندنا من أحسن الطلبة.

تشجع الرومانتيكي مرة أخرى ليقول:

- أستاذ كل شيء نسبي، أنتَ نفسك قلت هذا!

- نترك موضوع النسبية إلى يومٍ آخر والسلام عليكم وسلموا لي على شـــاعرنا فطحل زمانه، وديروا بالكم عليه ليروح ياكل بَسْـــطة

عراقية أصلية مرة ثانية من زوّار السيد نور المتعصبين.

غرق الجميع فـــي الضحك متذكرين طريقة زميلهم فـــي الإلقاء، وردِّ فعلِهم عندما سخر المستمعون منه، منهم من قاطعه أثناء القراءة، منهم من اكتفى بالقول "كافـــي، أُقعد بمكانكْ"، أكرِمنا بسكوتك، الله يخليك ويعطيك الصحة والعافية، ما نريد منك غير سلامتك وسكوتك، يا أخي أُقعدْ وأكرِمنا بِســكوتكَ. ومنهم من "عَفَطَ عليه" ومنهم من قال له: يا أخي كافـــي، ما نريد نسمعك، خلاص انتهى الحفل، كل هذا لم يُجدِ به حتى نهض أحدهم وهَمَّ بِصفعه على خَدّه، بِضَربِه بـــ"عِجِلْ، محمودي أصلي"، يعني ضَرَبَه "قلم" بالمصري قائلاً له:

- يا جماعة بعد ما أتحمّله، هذا شَق قلبي، راح أشق زيقي!

بدأت الفوضى واختفى الشاعر في وسط الزحام.

كانوا يقرأون بعض مقاطع قصـــائد زميلهم ويقلدون حركاته والضحك يملأ أشداقهم ساخرين متجهين فـــي مسيرهم إلى بيوتهم، متطلعين إلى المارّة، عسى ولعلهم يلتقونه فيواسونه".

انتهى عدنان من القراءة غارقاً فـــي الضحك، متذكّراً هذه الأمسية في حياة الفطحل عندما كان تلميذاً في المدرسة. لم يتمالك نفسه حينما وجد الأوراق تتضمن ديواناً شعرياً بقلم الشاعر غوني الملاّخ بعنوان "أشـعار فطحلية". تصـفّح بعض الأوراق، رغب أن يستمر بالقراءة لكنه أجلها، أغلق الملف، توجه إلى الحمّام.

1994 - 1990

عودة الفطحل إلـى ربوع الوطن الشامخ

دَخَلَ الفطحل شقّتَه متعباً، خَلَعَ ملابسه فـــي الحال، فتح قنينة بيرة وبدأ بشـــربها، بعد برهة من الوقت نهض من الأريكة متجهاً نحو الثلاجة، فتحها وأخرج قدرين صغيرين فـــي الأول رز والثاني مَرَق من يوم أمس ووضـــعهما على الطباخ ليســخنهما، ثم فتح التلفاز وبدأ يغيّر بعض المحطات الفضـــائية واقفاً وعينه على الطباخ منتظراً أن يســخن الأكل، ما هي إلا لحظات حتى نقل وجبته إلى منضــدة الطعام وبدأ بتناولها مستمراً فـــي البحث عن الفضائيات العربية، شعر بالملل والقرف منها والمظاهرات المعادية للحرب متمتماً فـــــي نفســه "كل شـيء ما يفهمون، يدافعون عن دكتاتورهم!"، انتهى من تناول طعامه، أطفأ التلفاز، وضع هاتفه المنقول جانباً فـــي الصالة وتوجه نحو غرفة النوم، خلع ملابسه الباقية وارتدى دشداشته السورية، أغلق باب غرفة نومه ورمى جسده المنهك على فراشه لينام.

فـــي النوم حلم حلماً سيفرح به كثيراً عندما يستيقظ وسيحكيه إلى معارفه وأصدقائه رغم ندرتهم أو انتفائهم كما يصرح دائماً.

كانت أمه المســكينة تنتظره، لكنها لم تقم بذلك كعادتها أيام زمان واقفةً فـــي الشارع مرتديةً عباءتها السوداء الطويلة، بل فـــي بيتها معززّةً مكرّمةً، كل شـــيء تم فجأة وبدون تخطيط أو علم مســبق من أحد، سنحت الفرصـة وطلبوا منه التوجه إلى العراق، اتصـلَ بأمه من هاتفه المحمول، أخبرها بأنه ســيأتي محمَّلاً بالهدايا والدولارات وما عليها وأخواته إلا انتظاره فـي البيت وأن تدعو الجميع ليأتوا إلى بيتها كي يلتقي بهم حيث سيراهم بعد هذه الغربة الطويلة.

عندما وصـل بسـيّارة عادية مع اثنين من المرافقين بملابس مدنية

وسائقهم إلى دارهم القديم الذي تركه منذ أكثر من عقدين دون أن يراه ولو مرة واحدة، كان أهله مستعدين للاحتفاء به واستقباله استقبال الأبطال، ذبحوا له الخروف أمام عتبة الباب قرباناً له بينما أطلقَ بعضُ الشباب النارَ في الهواء مستعرضين عضلاتِهم محذرين بذلك المنتقمين وشَعَرَ هو بالزهو والفرح ولأول مرة في حياته بأن له قيمة واعتبارا وأنه اليوم وسط عائلة يحبه جميع أفرادها ويتمنون له الخير ويساندونه في كل شيء، هؤلاء أهل وأقارب وليسوا معارف أو أصدقاء وأعدقاء عقارب يحسدونه على نجاحاته يهمشونه ويهشمونه ويشتمونه ويشمتون منه وكان بعض الصغار من البنات والأولاد ينادونه فرحين بوصوله "خالو طايع، خالو طايح"، وآخرون! "عمّو طايع، عمو طايح!" متطلعين إلى هداياه وعطاياه السخية فرحين أينما فرح. وكان هو خجلاً من سماع اسمه القديم متذكراً زملاء المدرسة الذين كانوا ينادونه بـ"طايع الطايح، وطايح الحظ" سخريةً منه، تنكّرَ له منذ ثلاثة عقود، أرادَ أن يحذّرَهم من ذِكرِه لكنه تراجعَ عن فعل ذلك وسط الفوضى والصخب لا سيما وأنه سبق وأن أخبرهم قبل مجيئه بتغيير اسمه ولكن دون جدوى.

لم يكن يعرف كيف يداري حرجه من سماع هذا الاسم القديم ولا من دموع الفرح التي اغرورقت بها عينُه الحقيقية مما اضطره أن يرفع نظارته الشمسية السوداء عنها كي يمسحها وشَعرَ أن أمه كانت تراقبه بطرف عينها، رمقته بنظرات كسيرة ولسان حالها يقول العين الثانية لا تزال مجرد زجاجة لا تتحرك كثيراً ولا تدمع.

كان يقدم لهم الهدايا بكل سرور وسعادة معتذراً عن التقصير سائلاً إياهم فيما إذا كانوا يريدون أشياء أخرى، الجميع ردَّدَ عبارات المجاملة من هنا وهناك "أنت جَيْتَك لنا أكبر هدية"، "إحنه ما صدقنا أنت راح تجي، قلنا أنت مِتِتْ، قالوا لنا انت خلاص مِتِتْ عند الأكراد، بعدين قلنا هذا شيطان يمزح ويّانه". ولكن بعد لحظات سمع طفلاً

صـغيراً يقول بصـوتٍ بريءٍ عن جدّتِه "بيبي تريد منك تِلفون جوّال" غرق أغلبهم فـــي الضحك بينما سمعَ صوتَ أمّه تنهره "لَكْ اسكت، عيب، خالك بعده أول يوم عندنا، خالك تعبان"، بينما تشـجع طفل آخر ليقول" مو بَسْ بيبي، أمي هَمْ تريـد تِلِفون جَوّال وخـالاتي كلهن". وتعالت الضـــحكات وَعَمَّ الجو العائلي، منهم مَنْ قالَ "إحنه نريدك سالم" وأخرى قالت "آني فرحتي بيك لما وصلت لنا بسلامة، بَسْ فعلاً أريد، ها، مو هَسَّه، بعدين أحكي لك الّلي بقلبي" بينما قالت امرأة شابة يبدو أنها أخته الصـــغيرة "بعدين، بعدين، الله كريم خلينا نشـــبع من شـــوفتك حبيبي، أكيد جوعان، يَلّه يا أولاد، يا بنات اطلعوا منا لا تدوخونه" وجهت عبارتَها الأخيرة إلى الأطفال.

بدأ بالتعرف على وجوه أخواته الثلاث اللاتي كبرن وقســم من أبنائهن وشَكَتْ له أختُه الوسطى من تعبها مع ابنها المريض ولم تكن تريد أن تقول المتخلف عقلياً وتمنَّتْ عليه أن يساعدها فـــي المستقبل، أن يحصـــل له على فيزة إلى الخارج للعلاج أو يجد له مكاناً فـــــي مدارس المعوقين مرددة بحزن وتواضـــع واســتحياء "مُو هَسَّــه، مُو هَسَّــه، بعدين، أهم شـــيء جيتك لنا حبيبي، والله نريدك ســالم، إحنه ما صدّقنا أنت راح ترجع لنا حَي وسالِم، بينما شَكَتْ له أخته الكبرى بعد أن ســقطت المجاملة بينهما "أنتَ ما حسّـيت بيّه، آني ســمعي ثقيل"، قاطعها أحد الأطفال قائلاً: خالو خالو، خالتي طرشـا ما تسـمعك، لازم تحكي ويّاها بصوت عالٍ، لازم تصرخ وتهدّم الحياطين حتى تسمعك" وغرق الجميع فـــي ضحك بينما كانت والدته تغطي أسنانها بكف يدها قائلةً له: "ابني تَرَه كلها تريد، كلهم يطلبون منك أشياء، الحصار هلكنا وما عندنا كل شيء".

كان أخواه الاثنان يكبرانه فـــــي السِـن ويبدو على وجهيهما تعب العمر، وأن مآسي الحياة قد خطَّت دروبها على ملامحهما، كانا يبدوان وكأنهما فـــــي سباق نحو القبر، كان أخوه الثاني يبدو أكبر من عمره بكثير بِسَبَبِ الرصاصة التي أصابته فـــي شبابه ومرضه، إذن فإنه لا

يزال حيّاً يُرزق ولم يَمتْ قبل أكثر من عشـرين عاماً، هذان الأخويان لم يطلبا منه شيئاً، ولا صـهرهم رجل الأمن، الطويل القامة، الذي كان يمسـك الكلاشـينكوف بطريقة اسـتعراضـية متباهياً مراقباً كل شـاردة وواردة، إلا أن لأولادهما طلبات كبيرة وكثيرة وصـــلته تباعاً على شـــكل دفعات واحدة تلو الأخرى، كانت لا تحصـــى ولا تعد بدءًا من ماكينة الحلاقة حتى القروض المالية لفتح مشـــاريع اقتصـــادية وكان عمهم الفطحل المغترب العائد يلبي رغباتهم كلها مردداً "ولا يهمكم، إن شاء الله".

إلا أن الفطحل لم يفهم أفراد عائلته فـي أمر واحد حيث ظلوا يلحّون عليه مستفسرين منه فيما إذا كان حصل على شهادة جامعية فـــي هذه البلاد الأخيرة التي يقيم بها وأصـبح مهندسـاً ولِمَ لَمْ يَختَرْ الطب مثلاً؟ عبثاً حاول إقناعهم بأنه درس الإعلام فـي صوفيا بينما كانت أمه تردد بسـذاجَة "يُمّه ليش ما صـرت طبيب كان هَسَّـه عالجتني"، كان يبتسـم بينما كانت أخواته يقلن لـه: كنا نتوقعك صـــرت دكتور أو مهندس. وأخيراً وبعد أن شـــبعوا من الأكل والقصـــص الكثيرة حاولت أمه أن تنفرد بـه مســـتغلـة خروج أخويـه مع أبنـائهمـا وزوج ابنتهـا حـاملين رشاشات الكلاشينكوف يطلقون النار فـــي الهواء بين الحين والآخر تحســـباً لأي طارئ يحدث، أرادت أن تســـأله عن أمر يخص عينه الكريمة لكنها لم تجرؤ. سـألته أخته الصـغرى بإلحاح وعفوية "عيني عيونك إشـــكَد حلوة، كأنما حاط عدســـات"، لكزتها أختها الكبيرة كي تصـمت بينما حاولت الكبرى الطرشـاء أن تسـأله عن سـمَّاعة أذن، إلا أن أمها لم تتحمل الانتظار فسألته:

- يُمّه صُدُق عُودْ هاي عينك سوّولها عملية تشوف بيها؟

نهرتها الأخت الكبيرة:

- يُمّه أســكتي إشــبيج؟ خليني أحكي ويّاه، طيب أخويه حبيبي، قُلْ لي باچِرأي طبخة تريد أطبخ لك؟

بينما ردَّدت الأخت الكبرى الطرشاء:

- إي والله اشوِ له سمكة، آني أعرف هو يحب السمك.

قالت الصغرى مناكفة أختها الطرشاء الكبرى بدلع:

- الحكي اللّي يخص الأكل تسـمعه، تلقفه وهو طـاير، أُوُه يـا ربّي، السمك صـار لنا مدّة ما ماكليه لا هُوّ ولا اللحم، ألعن أبو الحصـار، أقول أخويه حبيبي صحيح اسمك روني لو غوني؟ غوني أحلى من روني، عفيه خليه غوني.

ضحك الكبار والشباب، هنا تشجعت الأم لتسأل ابنها نائحة:

يُمّه صـحيح غيّرتْ اسـمك، يُمَّه طايع اسـم حِلو، سـمّيتك على اسـم أبوي، جَدّك، كان شـهم، ها، وآني كنت أدلّلَك وأسـمّيك طايح هَم لأن آني ولدتك قبل ما تتم التسعة شهور وطحت مني و...

قاطعتها الصغرى تحكي كعادتها بدلال:

- يُمّه هذا مو مهم، المهم هَسَّه اسمه غوني، آني قرأت له قصيدة بتوقيع غوني.

استغل الفطحل الفرصة ليردَّ عليهم مبتسماً بهدوءٍ مدارياً خجله:

- هذه كلها أسماء مستعارة، بَسْ هَسَّه اسمي الحقيقي والرسمي وثّاب، يُمّه أنت تذكرين آني كنت أحب هذا الاسـم من كنت صـغير، وكان أصدقائي يسموني بهذا الاسم؟

- إي يُمّه، إي يُمّه، بَسْ أنتَ من كنت صـغير كنت مشـيطن وتحب النكات والمزاح، واحد شَقَنْدَحي ماكو مثلك، كنت تقول على نفسك وتغني: آني مو طايع آني ما أطيع أكبر واحد بالدنيا، بَسْ آني طايح جبر، من كُ ... س (تغرق الأم في ضـحكتها) أمي للقبر، آني طايح الحظ والبخت وإحنه كنا نضحك، نقول لك: عيب، أُسكُتْ.

وغرقت الأم فـي الضحك مغطية أسنانها وما لبثت مسحة الحزن أن عادت إلى وجهها بينما راح أحد الصبية من أبناء أخته الكبرى يقول له:

- خالو، خالو صـحيح أمي كانت تعلمك حسـاب بَسْ انتَ ما كنت تفهم وبعدين تقول لك انتَ مو طايع لأنك ما تسـمع كلام، انتَ طايح يا طايح الحظ! اسم على مسمىّ!
- وغرق الجميع فـي ضحك عائلي وغمرتهم البهجة والفرح.

***

رنَّ الهاتف، استيقظ من قيلولته ثقيل الرأس مكتئباً.

- ألو، إشلونك أبو الشباب؟
- ألو، الحمد لله، هَسَّـه قعدت من النوم وحلمت كأني مسـافر للعراق والتقيت بأهلي.
- آه طيّب، اسمعْ، باچر، لا عفواً بعد باچر راح محطة أي دوبليو سـي تبث مقابلة مهمة مع الدكتور أمجد.
- صحيح؟ بشرفك، هَسَّه تشوف إشراح أسوّي بيهم.
- أرجوك لا تقاطعني، خلّيني أكمّل لأني لازم أتصـل بعشـرات إن لم أقل المئات من الأخوة.
- طيب، عفواً.
- اسـمعْ أريدك تتصـل برقم المحطة وتسـاند الدكتور أمجد وطروحاته ويكون كلامك باعتبارك ممثل لجمعيات أو منظمات، أخبرهم أي شـيء مثل منظمات حقوق اللسان عفواً أقصد الإنسان، وبالمناسبة إحنه ندفع لك تكاليف التلفون، إذا تريد هَسَّـه مُرْ عَليّ حتى أدفع لك الفلوس أو فـي وقتٍ آخر.
- لا، لا، لا تفكر، بـاچر نلتقي ونرتـب الأمر، راح أطلع من البيـت وأشـتري كارت تلفونات، ولا يهمك أخي، بالمناسـبة ممكن أتصـل بأكثر من شخص وأشجعهم على الاتصال بالفضائية؟
- طبعاً، طبعاً، بَسْ إحنه ندفع التكاليف لكل شـخص يشـارك ويؤيد آراءنا ويظهر اسمه على الشاشة، طيب؟ يَلّه مع السلامة.

- مع ألف سلامة وشكراً على التلفون.

ما أن أنهى الفطحل حديثه حتى وضـعَ سـماعة تلفونه ونهض نحو الثلاجة وفتح زجاجة بيرة ثم عاد ليجلس على الكرســـي قبالة التلفاز، أخذ هاتفه وبدأ بالاتصال بأحد معارفه:

- ألو، ألو آني وياك، عرفتني؟ ... إشـلونك عيني؟ عندي إلك بشـارة حلوة وكبيرة، اتصلَ بي الدكتور أمجد رئيس البرلمان الوطني وأخبرني أنه راح يطلع بفضائية "أي إي دوبليو سي" المركز العربي العالمي.

- إي وشنو يعني؟

- معلوم، راح يلعب بهم طوبَه، إشـــبيك انت؟ هذا مرشّـــح لرئاســـة العراق، انـت مـا تفهم؟ أريـدك تتصـــل بمحطـة التلفزيون وتؤيد طروحاتـه ونحن ندفع لك أجور التلفون، فَكّرْ مرة واحدة بحياتك بشكل عملي.

- يبيّن انت بعدك عايش بهذه الترهات، من قال لك آني أؤيد هرطقات الدكتور أمجد، انت فعلاً أمرك غريب!

- يا أخي انتَ الّلي أمرك عجيب، انتَ تريد هذا الطاغية يبقى فـــــي الحكم لو نتخلص منه؟ إحنه نحضّـــر كل شـــيء حتى نزيحه من السلطة، هذا دمّر الشعب العراقي والعراق كله.

- أخي وعزيزي آني ما إلي علاقة بهذه المسـألة وما أريد أدخّل نفسـي لا مع الأمريكان ولا غيرهم، هذه مشـــاريع لها أول ولا تالي وآني صـــغير على مثل هذه الألاعيب وباختصـــار آني غير مســـتعد أن أدخل أو أرتبط مع أي أجنبي ضد بلدي.

- إذن انت تريد يبقى صدام فـي الحكم؟

- أخي انت ليش كل شـــيء عندك أما أســـود أو أبيض، تخيرني أما دكتـاتور أو لص ومحتـال مع الأمريكـان، آني مـا أريـد دكتـاتور عِفطي ولا أدعم الحرب ولا الأمريكان ولا الأجانب.

- طيب، طيب، عفواً على الإزعاج مع السلامة.

فكّرَ الفطحل بأمر هؤلاء الناس بعد أن عبَّ في جوفه جرعة كبيرة من الجعة قائلاً لنفسه "عجيب أمرهم هذوله العراقيين، شيريدون بالضبط؟ ما أعرف". احتارَ كيف يفسر الأمر، أغلب هؤلاء لا يريدون الحرب ولا يريدون سقوطه بهذه الطريقة ولكن كيف يسقط هذا الطاغية بدون الحرب؟ ثم فكر بالاتصال بشخص يعرفه ويؤيد فكرة الحرب على النظام العراقي "خلّيني أتصل به، إن وافق خير على خير وإن رفض فلن أفقد شيء". مرّرَ يدَه على بطنه التي صارت تكبر وشعر أن جوفه صار أكبر من أي شيء في جسمه وأنه أخذَ يستوعب المزيد من كميات الجعة.

- ألو، إشلونك؟ أبو الشباب إشلونك، عرفتني؟

- طبعاً، وَلَو، إشلون صحتك؟

- الحمد لله، آني أتصل بك بصدد موضوع مهم، والله لولا معزتك الغالية عندي كان ما اتصلت بك، انتَ تعرف الدكتور أمجد صار يظهر علناً على الفضائيات وبكره راح يطلع، فيا ريت لو تتصل بمحطة تِلِفزيون أي إي دوبليو سي وتنتقد المجرم صدام، وبالمناسبة تكاليف التِلِفون مدفوعة.

قاطعه بهدوء ورزانة:

- هذه الأخيرة ما إلك حق بها، شفتني يوم أتسوّل، أدوّر فلوس؟ وآني مع احترامي للدكتور أمجد أختلف معه وممكن أتصل بالمحطة وأعبّر عن اختلافي وإيّاه.

- طيّبْ، ممتاز، عظيم، إحنه ديمقراطيين نتقبل النقد.

- أنتم منو؟

- إحنه جماعة العراق الحر والبرلمان الوطني، وبالمناسبة آني صرت الناطق باسم البرلمان العراقي في الشمال الأوروبي، شنو رأيك تشترك وإيانا؟

- إن شاء الله، انت إشلون أمورك بشكل عام؟ حاول تشتغل وتستقر، انت ما تعبت من هذي الحركات؟ أقصد نشاطاتك الموسمية.

- والله ماشي الحال وآني حالياً مشغول ونكثف تحركاتنا وحملاتنا ونستعد لدخول العراق مباشرةً، العراق ينراد له زلم خشنة وإحنه إن شاء الله كَدها وكَدود وآني أشد على إيدك، نريدك تتعاون ويّانا.

- بَسْ لازم تشتغل وتستقر، والله آني أتمنى لك الخير بَسْ أختلف ويّاك بأسلوب حياتك ومستعد أساعدك.

تشجَّعَ الفطحل قائلاً:

- طيب تعال عندي اليوم المساء، تفضل نشوف برنامج حوار في قضية ملتهبة.

- طيب، راح أمر عليك خلال ربع ساعة.

نهض الفطحل من مكانه، بدأ بترتيب الصالة مستعداً لاستقبال ضيفه، رتّب الكراسي وحمل طفّايات السجاير ثم عاد ومسح المنضدة الزجاجية وبدت أكثر لمعاناً. توجه نحو الثلاجة ليتأكد من وجود قناني البيرة. فكّرَ أن يعدَّ الشاي بعد القيلولة والحلم الجميل إلا أنه تراجعَ مفضلاً الجعة عليه. خلع دشداشته وارتدى قميصاً وسروالاً، ما هي إلا لحظات حتى رنّ جرس الباب، فتحه لصديقه، أخذا بعضهما بالأحضان وكأنهما لم يلتقيا منذ فترة طويلة، كان الضيف يبدو أكبر منه في العمر وأطول منه قليلاً، عريض المنكبين، كث الشعر مليء بالشيب، يتحدث إليه بطريقة الأخ الأكبر إلى أخيه الصغير. كانا واقفين في مدخل الشقة الصغير، قدّم له كيساً مليئاً بقناني البيرة قائلاً له بتواضع "هاي بيرة بلجيكية جبتها ويّاي، طعمها طيب، يجوز تعجبك؟". رَدَّ عليه الفطحل ضاحكاً "كل شيء من إيدك حلو، أكو بيرة ما أحبها؟" جاملَه ضيفه مبتسماً وهو يجلس على الأريكة الجلدية السوداء. تطلع الضيف إلى أرجاء الصالة منتبهاً إلى الستائر الرصاصية المعتمة متسائلاً بطريقة ودية:

- بعدَك ما غيرت لا الستائر ولا القنفات، غيّرْ الألوان، الدنيا بَرَّه كلها مظلمة وأنت معتمها بالبيت!

ابتسمَ الفطحل حاملاً قناني البيرة وجلس إلى جانبه وهو يقول:

- أهم شيء الروح تكون منوّرة.

قالها وهو يسكب البيرة في قدح ضيفه ثم كأسه، رفعها قائلاً "يَلّه صحتك". ردّ عليه ضيفه "صحتك". ما هي إلا لحظات حتى بدأ الإعلان عن بدء برنامج "حوار في قضية ملتهبة".

أطلّ المذيع بوجهه العريض، ذي البشرة البيضاء والشاربين الصفراوين قائلاً بلغة منمقة مقعرة مصطنعًا لفظ الحروف كعادته:

- سيداتي سادتي أعزاءي المشاهدين، نقدم لكم اليوم برنامجنا الأسبوعي المعتاد "حوارٌ في قضيةٍ ملتهبةٍ" متناولين المسألة العراقية بالتحديد لا سيما وأن التصريحات الأمريكية في الأيام بل الساعات الأخيرة باتت تشير إلى هجوم محتمل بأقرب وقتٍ. نستضيف هذه اللّيلة ضيفنا هنا الأستاذ مرعي عبيد الذي سيحدثنا عن الأزمة العراقية واستعداد القوات العراقية لمواجهة الهجوم الأمريكي المحتمل بينما سيكون معنا أيضاً رئيس مركز الدراسات القومية سفير جامعة الدول العربية السابق في الأمم المتحدة الدكتور عبد القادر دعيبِسْ والآن ليتفضل الأستاذ مرعي عبيد.

كان الأستاذ مرعي عبيد عريض الوجه مستطيله ذا عينين واسعتين كحيلتين، حليق الذقن يتحدث متلعثماً قليلاً لا يربط بين جمله إلا أنه يحاول أن يصبغ حديثه بصبغة أكاديمية. قال: إن القوات العراقية المتمترسة في كل شبر من أراضي العراق كما يبدو للدارسين أنها ستفاجئ الأمريكان، ففي هذه المرة لن تكون نزهة لهم كما يتوقعون وأن العراقيين لن يكونوا لقمة سائغة و...

قاطعه مقدم البرنامج سائلاً:

- ولكن يا أستاذ هناك من يقول إن العراقيين لم يقاوموا الأمريكان في حرب الخليج الثانية وخرجوا من الكويت وهم يعانون منذ ذلك الوقت من حصار مرير وتجويع فمن أين لهم هذه القوة؟

كان الفطحل جالساً مع صديقه يقاطع المذيع بين الفينة والأخرى قائلاً:

- إي، معلوم، هذا السؤال الصحيح، هذا المذيع رغم أنه عميل المخابرات العراقية لكنه بهذا السؤال منصف، بَسْ هو يريد يبيّن نفسَه للمشاهدين أنه موضوعي.

ردَّ ضيفُه معلقًا بثقةٍ عاليةٍ بالنفس:

- انت إشبيك؟ هذا شغله، هو صحفي، طبعاً لازم يطرح أسئلة مختلفة، ولعلمك معد البرنامج هو الذي يكتب له أسئلة إضافية.

ردّ الفطحلُ نافخاً دخان سيجارته كعادته:

- ها، لا تصدق، هذا حقير، هَسَّه تشوف إشلون وإشراح أسوّي بيهم؟ راح أشُرهُم على الحبل، هَسَّه تشوف (قهقه ضاحكاً) هَسَّه تشوف، راح أقلبهم على البطانة، بَسْ خلّينا نشرب شويّة، يَلّه تعال، انت وينك؟ أشو ما دَتشرب؟ اشربْ، يَلّه نخب العراق الجديد، والله راح يصير طشّارهم ماله والي... ها ها ها ها.

- والله شَأقول لّك؟ آني خايف على العراق، كل شيء ولا الحرب، الحرب ما تجيب غير المآسي.

تَمتَمَ صديقُه بصوت حزين، هازًا رأسه على الطريقة الهندية وكانت عيناه الصغيرتان تبدوان وكأنهما شبه منغلقتين.

ردّ عليه الفطحل متسائلاً مقطباً جبينه ناظراً إليه بعينين قاسيتين بدتا هذه المرة متشابهتين طبق الأصل ككرتين زجاجيتين صلدتين.

- شنووو؟ والله أريدها حرب وبَسْ، هذا طاغية ما يروح إلا بالحرب، خلّيه يطلّع شطارتَه على الأمريكان، مو بَسْ قادر على العراقيين.

- هذا صحيح، بَسْ هذي الحرب ضد الوطن، وصدام هو مو العراق كله، وراح تصير كارثة على المنطقة كلها، أنتَ تعرف.

كان الفطحل منتشياً بفعل الخمر وبدا أنفه أكثر احمراراً، قال:

- اسمعْ خلّينه ننتبه على هذا البرنامج، نشوف هذا إشلون يدافع عن صدام.

كان ضيف البرنامج يستمر في الحديث ولكن في هذه المرة بِلُغَة مشوبة بالخطابة والحماسة على عكس بدايته، التي حاول أن يبدو فيها رابطَ الجأش:

- هذه المرة لن يكون العراق البطل نزهةً للأمريكيين، بل ستكون بالنسبة للنظام وحزب البعث عليّ وعلى أعدائي، أما بالنسبة للشعب العراقي فستكون حرب دفاع عن الكرامة العربية والعراقية وستجد فوق كل سطح بيت عراقي مدفع رشاش وتتحول إلى حرب عصابات وسيدخل المتطوعون العرب إلى العراق عن طريق سوريا.

ردّ عليه الفطحل بعصبية موجهاً كلامه إلى ضيف البرنامج ناظراً إلى جليسه:

- أُسكت حقير، يريد يسوّي العراق محرقة ثانية والشعب العراقي وقودها، أي كرامة يدافع عنها العراق، الشعب جائع تحت الحصار، كل شيء ماكو بالعراق لا أدوية ولا مواد غذائية، بالأحرى كل شيء موجود بَسْ الناس ما عندها فلوس تاكل.

حاولَ صديقُه أن يعلّقَ بشيء إلا أن الفطحل قاطعه ناهضاً من مكانه قائلاً:

- انتَ ابقَ هنا وآني راح أتصل بالمحطة حتى أرد على هذا التافه الحقير الّلي يدافع عن طاغية يجوّع شَعبه!

- أُتركه، معقول راح تحصله؟ وتكاليف التلفون غالية عليك، وانت شويّه شربان، يعني منتشي وعصبي. أصلاً آني جيت عندك حتى أحكي ويّاك عن حياتك ومشاكلك وهذا الفراغ الّلي تعاني منه، آني

جاي أصلح بعض الأمور.

- لا، بالعكس، ولا يهمك، أما تكاليف التلفون فمن الآن فصـــاعداً كلها مدفوعة، وآني اتصـــلت بالمحطة وأخبرتهم عن الموضـــوع وهم ينتظرون مكالمة مني.

بقي صديقه وحده فـــي الصالة بعد أن غادره الفطحل إلى غرفة صغيرة أخرى، عيناه مصوبتان إلى الشاشة وأذناه تتنصتان إلى كلام الفطحل على التلفون، سمعه يقول:

- آلو، أبو شـــهاب، كيفك حبيب قلبي؟ وينك أســـتاذي؟ أنا بدّي أقدم مداخلة... ها؟ تريدني أطرح ســـؤال وبَسْ؟ ممنوع عليَّ أقدّم مداخلة؟ ليش؟ ما أنت وعدتني بأن تعطيني شـــوية وقت للمداخلة وتقدمني كمنسق للجمعيات العراقية لحقوق الإنسان فـــي الشمال الأوروبي... انتَ نفســـك وعدتني، ليش تقلب وتخلف بوعدك؟ ها، أي ظروف؟ الحكومة العراقية تضـغط عليكم؟ لا، لا، لا العفو انت ما قلت الحكومة العراقية، آني أســتفســر منك بَسْ، لا، عفواً أنا ما أقوّلك، أعتذر والله، انت تقصـد المشـاهدين يضـغطون عليكم كقناة عربية، فهمتك، فهمتك، بَسْ شـو علاقة المشـاهدين بِكم؟. لا، عفواً أنا ما قلت لك لازم تؤيدوا احتلال الدول العربية من قِبَل الأمريكان، لا مِش هيك، آه مفهوم، مفهوم، مشـــاعر قومية عربية ضـــد أي احتلال أجنبي، المشـكلة أن المشـاهدين العرب ما يعرفون حقائق العراق ولهذا يؤيدون الحكومة ضد الأمريكان، طيب فين كانوا لما كان المجرم ولا يزال يقتل العراقيين؟ الدكتاتور قتل كل العراقيين ودمّر وو.... ها؟ آني؟ آني، طبعاً، الطاغية ما سـجنّي لأني هربت، وهَسَّـــه عايش برّه، ها؟ آني ســافرت بطريقة رســمية بالباص من العراق عن طريق سوريا؟ يبين عليك أبو شـهاب تعرف كل شـيء عن حياتي!... لا، عفواً، لا، أنا ما قلت عندك علاقة بالمخابرات العراقية، لا ما قصدي هذا، طبعاً انت صحفـــي ومن حقك تعرف كل شـيء، طيب، طيب أنا أقدّم نفسي كمشاهد، ما عندي مانع، ولا

يهمّك، بَسْ أرجوك خلّيهم لا يفوتوا الفرصة عليّ...

أنهى الفطحل مكالمته وعاد إلى صـــديقه الذي كان يجلس متململاً يفرك عينيه تارة ويمسد شعره بأصابعه تارةً أخرى، قال له صديقه مباشرةً مستاءً من طول الانتظار:

- وينك؟ تركتني وحدي، طوّلتْ عليَّ. لو كنت أدري هيـــچـــي القصة كان ما إجيت عندك.

- العفو، العفو، صبرك عليّ، هَسَّه تشوف شراح أسوّي بيهم، قال لي أبو محطة التلفزيون: وينك؟ إحنه ننتظرك، البرنامج كلّه متوقف عليك، ليش ما اتصلت بي؟ قال لي: انت أهم حلقة بالسلسلة، يقصد آني أهم فقره بالبرنامج، آني ما قلت له قاعد أشـــرب بَسْ هو يعرفني، عن إذنك راح أتصـــل بمحطة التلفزيون، أرجوك حبيبي أول ما آني أتّصـــل بهم، أُضـــغطْ انتَ على ريكورد حتى الفيديو يســـجّل مداخلتي، أوكي؟ آني ما راح أروح لغرفتي، راح أبقى هنا حتى اسمعْ صوتي وأشوف البرنامج، أوكَي؟

- بَسْ انتَ وين رحت؟ آني أريد أحكي ويّاك، إلى متى تبقى شـــاغل نفسك بهذه الأمور اللّي ما تفيد؟ عموماً ولا يهمك، آني أنتظرك.

قال له صـــاحبه بصـــوت خافت ويائس وبدا عليه التعب والنعاس متمتماً بين نفسه وكان جفنا عينيه مغلقين "كم قناع عندك يا أبله؟".

أعلنَ مُقدّم البرنامج مكالمةً هاتفيةً جديدة من أحد المشاهدين ليطرح سؤاله على ضيف البرنامج لكن بعد الفاصل. وقف الفطحل ماسكاً سمّاعة الهاتف اللاسلكي بيده متمتماً:

- ليش بعد الفاصل؟ ليش؟ هَسَّه تشوف إشراح أسوّي بيهم؟ آه، بدأ البرنامج، انتَبِه على التلفزيون، الله يخلّيك، ألو، نعم، ألو، أنا الأستاذ المنسق العام لمنظمات حقوق الإنسان و...

قاطعه مقدم البرنامج قائلاً:

- عزيزي المشاهد، أرجوك أخفُضْ صوت التلفزيون أو أطفأه أو انتقلْ إلى غرفة أخرى كي لا يطغى صوته على صوتك، أرجوك أخبرنا اسمك وسؤالك، تفضل وبسرعة رجاءً.
- طيب، طيب أنا السيد المندوب العام والمنسق الجماهيري لمنظمات حقوق الإنسان العراقية في الشمال.

قاطعه المذيع سائلاً بسُخرية مبطنة:

- أي شمال حضرتك تقصد؟ شمال العراق الذي يسيطر عليه الأكراد؟
- لا، لا، أنا أقصد الشمال الأوروبي، وأرجوك أن تعطيني حقي بالكلام ولا تقاطعني.
- طيب، سأحاول ولكن توجّه بسؤالك مباشرةً لأن وقتنا قليل.
- أقولُ لضيفك أن الشعب العراقي ذاق **الأمرّان** من طاغيته الذي تدافع عنه محطتكم أما العراقيين فلن يدافعوا عنه إذا أراد الأمريكان إزاحته لأنهم ملّوا الحروب وتعبوا منها ونحن نناضل من أجل عراق جديد يضمن الحرية لهم.
- طيب يا أخي أنا أعطيتك الوقت الكافي وأقول لك إننا لا ندافع عن أحد بدليل أنك ألقيت خطبة عصماء ضد النظام العراقي ولم نقطع البث، نحن ضد احتلال الدول العربية من قبل أية دولة أجنبية أم عربية مهما كانت الحجج، رفضنا غزو العراق للكويت، ما هو سؤالك؟ باختصار. وبلا أخطاء نحوية مثل الأمرّان بدل الأمرّين!
- أخي آني عراقي وأعرف أن العراقيين لا يؤيدون صدام ولن يحموه.

انقطعَ الاتصال، أدار مقدم البرنامج وجهه إلى ضيفه:

- ماذا تقول يا أستاذنا، هل صحيح أن العراقيين سيقفون ضد صدام؟
- بالتأكيد هذا ما ستفعله المعارضة المرتبطة بأمريكا والأحزاب الكردية وبعض المنافسين للحكم سيستغلون الفرصة وهذا سيؤدي إلى انشقاق داخلي كبير ولكن دعني أقول لك إنه حتى وإن احتل

الأمريكان العراق فسيكون من الصعب استتباب الأمن فيه بِسَبَبِ وجود إيران وسوريا، وبالمناسبة أن الأمريكان يعرفون ذلك أفضل مني ومنك.

- عفواً جاءنا اتصال هاتفي جديد ولكن بعد الفاصل.

***

قال الفطحل لجليسه في صالة الشقة وهو يحتسي قليلاً من البيرة:

- شفت! دَمّرتهم، بالمناسبة، كان اسمي واضح على شاشة التلفزيون؟

لم يسمع جواباً من جليسه، لم يُعره اهتماماً متظاهراً بمتابعة البرنامج مما جعل الفطحل يعيد السؤال:

- كتبوا اسمي بوضوح؟ كتبوا موقعي الشخصي؟ كتبوا: المنسق العام؟

ردَّ عليه صديقه قائلاً بصوتٍ خافت متثائباً متململاً ومعاتباً:

- إي، إي بَسْ مرة كتبوا: المنسق العام، وأخرى: المندوب الجماهيري، انت السبب لأن كل مرة تعطيهم صفة أو صفتين، وصرت ترفع المنصوب وتنصب المرفوع، الله يسامحك! يا أخي فعلاً انت ما عندك هَم، عندك وقت فراغ كثير، انت شنو؟ رأسك ما به هموم؟

- مو مُشكلة، كُلّه يَك حساب، المهم اسمي مكتوب واضح. بَسْ بشرفك شفته إشلون يدافع عن النظام العراقي؟ شفته إشلون حقير؟ يطلب منّي أوطّي صوت التلفزيون! انت شنو دخلك بيَّ؟ بَسْ بشرفك إشلون مسحت الأرض بيهم؟ فضحتهم.

قال له صديقه باستحياء:

- والله آني أشوف كل هذه الشغلة ما تسوه.

ردَّ عليه الفطحل قائلاً بحماس:

- أبداً، هَسَّه بدأ اللعب الجدّي، راح العراق يصير كلّه بروجَكترات، كلّه بروجَكترات، يعني لا وزارة إعلام ولا تخطيط، ماكو أحسن

من البروجَكترات، هَسَّه تشوف شغل البروجَكترات على الطريقة الأمريكية.

- انت إشدَتِحكي؟ انت تعرف شنو يعني بروجَكترات؟ يعني مصابيح قوية، كل مرّة تكررها وما أعرف شنو قصدك، يجوز تقصد الأمريكان راح يملأون العراق بهذه الأضوية؟

قال له الفطحل بثقة عالية وكأنه مسؤول كبير:

- معلوم، عندك مثلاً وزارة الإعلام، راح يلغيها الأمريكان، حضّروا طاقم كامل وهم هَسَّه بواشنطن، ذاك اليوم اتصلَ بي صديق لي بعدين أقول لك اسمه، قال لي أشياء كثيرة، قال وزارة الإعلام مثلاً راح تصير فيها عدة بروجَكتَرات وجماعتنا المثقفين العراقيين راح يستلمونها.

قاطعَه جليسُه ضاحكاً وكأن نشاطاً جديداً دبَّ في جسده:

- آه، هَسَّه فهمتْ، تقصد بروجَكتات، يعني مشاريع، هاي إسطوانة يضحك الأمريكان بها على المثقفين العراقيين الّلي بالخارج.

- **المهم** مشاريع يدخّلون بها المثقفين العراقيين، العراق راح يصير جنَّة.

- أنت تتصوّر الأمريكان يسوّون العراق جنّة على سواد عيونك هاي الّلي ياكلها الدود؟ هم يعرفون القصة كاملة من أولها إلى آخرها، راح يجيبون المثقفين الّلي لفظتهم المنافي وتعبوا منها بلا شغل ولا عمل ويحطّونهم بالواجهة، يعني بَسْ ديكور، وانتَ بالذات أحسن لك ما تتدخل بمثل هذه القضايا الّلي ما إلك بيها شيء لأنك إنسان طيب القلب ومسالم وغايب عن العالم وراسك مليان تِبِن ما تميّز بين بروجَكتَر وبروجَكت. هُمَّه الّلي أكبر منك ما دبروا رؤوسهم ويّا الأمريكان، يعني زين إذا خلّوك فرّاش عندهم.

تقبّلَ الفطحلُ المزاحَ وازدادت خفقات قلبه عندما ذكر صاحبُه عينَيه، خاف أن يقول شيئاً آخر يذكّره بعورها، وغرقا في ضحك وهما يشربان

القدح الأخير، لكن الضيف تساءَل قبل أن يخرج من شقة الفطحل:

- بالمناسبة سمعت أنت متزوج من هاي صاحبتك الأخيرة البولونية الّلي كانت تتردد عليك، صحيح؟ يا أخي انت إشجابك عالبولونيات؟ يعني انت لو تشوف لك وحدة بلغارية مو أفضل لك؟ على الأقل تفهم لغتها. والله انت عجيب أمرك، صحيح البلغاريات قليلات هنا بس لا بدّ وأن تحظى بواحدة.

- ها، من قال لك؟ طيّبْ مو مُهِم، صحيح آني تزوجتها قبل مدة، البلغاريات ما موجودات هنا وبعدين آني طلعت روحي منهن ولا تنسَ السفر من هنا لبولونيا أسهل من لبلغاريا والطريق أقصر وأرخص.

- إي ألف مبروك، بلكي هالمرة تكون أفضل من السابقة الّلي شُمْرَتْ ملابسك برّه البيت، حاول هالمرّة تكوّن عائلة ويّاها وتستقر، هذا من صالحك وصالحها، لا تفكر بالفلوس، فكّر بالمستقبل، تَرَه انت صحيح أصغر مني لكن انت دخلت الخمسينات وبعد مدة راح تحس بالوحدة بدون زوجة طيبة.

ارتبك الفطحل وقال متلعثماً معاتباً:

- هاي شنو أبو الشباب؟ ليش تقلّب المواجع؟ هذيك قصة قديمة وانتهت وأرجوك لا تجيب السِيرة لأحد آخر مرة ثانية، هاي صديقتي الحالية تعيش في بولونيا وراح تجي باچر، هي بصراحة بنت طيبة ومن عائلة محترمة، أبوها كان جنرال في الجيش من جماعتنا، يعني أقصد سهل السفر عليها إلى هنا وتدفع إيجار البيت معي، ذيك الأولى جاحدة.

- الواحد ما صار يفهم منك من هي الصديقة الأولى ومن الثانية والثالثة، الله يساعدك ويهديك، حاول هالمرّة تكوّن عائلة ويّاها وتستقر. طيّبْ، مبروك، مع السلامة.

- بَسْ انتَ من اين سمعت؟ أصلاً آني حتى نفسي ما خبرتها، يا أخي

العراقيين ما يغيب عنهم شيء ولا يتخبى عنهم سر.

- معلوم؟ انتَ ما تعرف العراقيين؟ حتى النغل يدورون على أصـــله! مع السلامة.

***

فـــــي اليوم التالي جَلسَ الفطحل مســاءً بعد قيلولته المعتادة أمام منضـــدته، تناول بطاقة الهاتف، أخذ رقماً وبدأ يفتح البطاقة ثم اختار رقماً إلى واشنطن.

- ألو، ألو، ألو، ها؟ إنجلِش؟ نو إنجلِش، ها؟ أوكي، آي وَنْتْ ســـبيك دكتور أمجد، ها؟ انت سكرتيره؟ أوكَي، آي وَيْتِنْجْ، أنتظره، أوكي، ألو دكتوري إشـلونك؟ إشـلون صـحتك؟ عفواً، شـفت اليوم برنامج العرب؟ لعبت بهم طوبة، قلت لهم الشـــعب العراقي ما راح يدافع عن طاغيته.

- جاءه من هناك رد هادئ:

- دكتور أمجد غير موجود، آني سـكرتيره، البرنامج ما شـفته بَسْ هذه المحطة إحنه نعرفها.

قاطعه الفطحل:

- إي صـحيح، بَسْ آني البارحة فضـحتهم، والله يا ريت لو تسـلم لي على الدكتور أمجد وتبلغه تحياتي وتخبره بأني اتصـــلت بهذه الفضـــائية وبالذات ببرنامج حوار حول قضية ساخنة وأوصلتهم رسالتنا.

- طيب، شكراً لك ولجهودك الطيبة.

- مع السلامة.

بعد ذلك أخذ قلماً وورقةً وبدأ كما يبدو يكتب فيها مقالاً بعنوان: محطة ع. والقضية العراقية. فـــــي يوم الجمعة قدمت محطة فضـائية عربية معروفة برنامجَها الأسبوعي المعتاد متناولاً هذه المرة القضـية العراقية واســـتضـــافَ شـــخصـــية معروفة بولائها للنظام العراقي

ومخابراته... وقد اضطر مقدم البرنامج إلى إعطاء فرصة المشاركة للمندوب العام والمنسق الجماهيري العام للجمعيات العراقية لحقوق الإنسان في الشمال الأوروبي السيد... كانت مداخلة المندوب العام والمنسق الجماهيري بلسمٌ للجرح العراقي رغم مقاطعة مقدم البرنامج حيث فضح نظام الطاغية ورغبة العراقيين في التحرر منه.

ثم أخذ الهاتف وبدأ يختار الرقم التالي:

- ألو، مساء الخير، معاكم... ها عرفتني من صوتي؟ شكراً، إشلون الصحة، شنو أخباركم إشلونها؟ وين أبو عبد الله؟ ممكن أحكي وإيّاه؟

- عندنا اثنين أبو عبد الله، أي واحد منهم تريد، السمين لو الضعيف؟ الأول محرر الاقتصادية والثاني محرر الثقافية.

- والله أريد أحكي مع السمين.

- هذا هرب، سرق المال والحلال، "قِلَبْ بالدَخَل"! سرق قاصة الفلوس وراح، اختفى، فُصْ ملح وذاب.

- معقولة؟ أي كلام هذا؟ أنت تمزح؟

- الّلي سمعته، إحنه باقين بدون رواتب.

- هاي قصة غريبة، انَت تحكي جديات؟

- كلّه جديّات وما أمزح، أقول لك باقين بدون رواتب، هذوله جماعتنا كل واحد لسانه طويل في التنظير السياسي والوطني لكن بَسْ تصير الفلوس بيدهم يتغير كل شيء، والله الناس هنا زعلانين.

قاطعه الفطحل متسائلاً:

- طيب ما عندك تلفونه، أريد أحكي ويّاه؟

- أنتَ غريب أمرك، ما تفهم عراقي؟ آني أقول لك قِلب بالدَخل، يعني نهب الخزينة وهرب بها، ومع ذلك انتَ تطلبْ مني رقم تلفونه!

أصــلاً ماكو واحد يعرف مكانه حتى خارج هذا البلد، وبالمناســبة انت شتريد منه؟

- أريد أبعث لكم مقالاً عن برنامج حوار حول قضية ملتهبة.

- إي مو مشكلة ابعثه لنا بالفاكس أو الإنترنت.

- إي صحيح، بَسْ ردت أحكي ويّاكم، فـــي الحقيقة شاركت بالبرنامج وفضحتهم.

- طيّبْ، عظيم، ابعثه وراح ننشره.

- طيّبْ، راح أبعثه، أكتب اسمك؟ إذا ممكن تعطيني اسمك؟

- لا، مو مهم تكتب اسمي، أُكتبْ عنوان الموضوع وخلص.

- طيب، مع السلامة.

- مع السلامة.

وَضَعَ الفطحلُ سماعةَ الهاتفِ مندهشاً مرعوباً مصدوماً من هول الخبر الذي ســمعه، لا يدري ماذا يفعل بِسَــبَبِ الصــدمة الكبيرة التي هزّت بدنه "حرامي بغداد، سـرق الرواتب، "قَلَبَ بالدَخَل" قال لنفسـه ثم أردفَ متمتماً بين نفســـه "يعني هيجي أبو عبد الله، بعدنـا بـأول الطريق وأنـت انهزمـت بـالفلوس! قلبـت بـالفلوس مثل الطير وعلّقت فوق، طرت بها للسما، أكيد أنت هَسَّه تستمتع بها!

بدأ بترتيب بعض الأشـــياء، نقل الأقداح إلى المطبخ وفجأة توقف عن كل شيء، أخذ السماعة وبدأ يختار الرقم ثم تحدث بالبولونية:

- ألو، ألو، سوشَي، اسمعي.

- ألو، ها، بدأت تتعلم البولونية؟ ماذا تريد؟

- متى ترجعين؟

- لماذا أرجع؟ أنتَ إنسان سطحي وأنا لا أثق بك.

- أنتِ تعرفين أنا صرت أحبك وأريدك.

- أنتَ تعرف زواجنا على الإقامة يهمك بس استلام إيجار البيت مني!
- لا، هذه المرة أريدك، أريد أكوّن عائلة معك.
- على العموم أنا سآتي بعد أسبوع، الطبيبة قالت إني حامل.
- ها، ها، ماذا تقولين؟ ها، أنتِ تمزحين؟
- لا، أنا لا أمزح، هذه الأمور لا يمزحون بها. أنا لست هوائية مثلك.
- أنتِ تسخرين، سأكتب عنه قصة أو قصيدة.
- القصة لا تعيشني ولا تغنيني، فكّر بأشياء أكثر جديّة من هذه.
- ها... ماذا تقولين؟
- هيك، لا شيء.

فَكّرَ في نفسه بعد أن وضع سمّاعة الهاتف، يا ترى هل سيكون له فعلاً طفل بعد هذه الزيجات الكثيرة والحياة العائلية غير المستقرة، يا ترى هل هذا طفله حقاً؟ فهو أول وأحسن من يعلم أن علاقتها به هوائية وسطحية ولم تبادله الحب برغبتها الحقيقية مرة واحدة، كل شيء تم على مضض ولم يأخذها يوماً برغبة في نفسها، ورغم أنّ عدد المرات التي جمعته وإياها قليلة لا تزيد على أصابع اليدين، لكن هل يعقل أن تكون هذه البولونية الحاقدة المتنكرة المتكبرة حاملاً منه؟ إنه لا يعرف إن كان عقيماً أم لا لكن لم تحصل معه هذه القصة في علاقاته السابقة، وهل تم هذا "الحمل" برغبتها الشخصية أم بالصدفة والخطأ في الحسابات والاحتياطات، هل حصل ذلك رغماً عنها أو أن القصة كلها مفتعلة وكاذبة؟ ولكن ما هو قصدها من هذا الكذب إذا كانت حقّاً تُلَفّق؟

لا يستطيع الفطحل الثقة بهذه البولونية الجاحدة وكان غالباً ما يقول لنفسه "لازم عليّ دائماً أشكك بكل تصرفاتها ولا يمكن لي أن أثق بها أو بأي بولونية بعد اليوم وبعد اللّي حصل لي منهن" وكان يتذكر بألم ما حصل له مع مواطنتها البولونية السابقة، فهل يمكن له أن ينسى كيف رمت صديقته السابقة، تلك العاهرة البولونية، ملابسه وحاجاتِه

فـــي الشارع وفـــي وضح النهار وأمام مرأى الجيران فـــي المجمع السكني كلّه؟ يا لها من فضيحة لن ينساها طوال حياته. انتشرت هذه القصة المخزية كما تنتشر النار فـــي الهشيم بين مواطنيه العراقيين الذين كانوا يتربصـون له ويريدون سـماع كل صـغيرة وكبيرة عنه، وتذكَّرَ كيف تألم وتأثَّرَ لما قال عنه أحد العراقيين "انت هشيم ولا شيء ينفع ويّاك غير النار".

وكان يلوم نفسـه على علاقته بتلك البولونية ويتمتم مع نفسـه "كم مرة قدمتُ لها المساعدات واستضفت أهلَها وأقاربها وسكنوا عندي مقابل أجور بَسيطة ولكن ما حسّيت مرة واحدة باحترامها لي".

أما هذه الحامل منه فلم يرَ منها غير الاحتقار والعنجهية والحقد الكبير على كل ما له صلة به. حاولَ الفطحلُ أكثر من مرة أن يفهم سرَّ هذا الاحتقار واحتار كثيراً كي يدرك السبب إلا أنه كان يشعر بها تكنُّ احتراماً أكثر لزملائه الآخرين ممّن يجيدون لغتها، هؤلاء تمتدحهم باستمرار لشـهاداتِهم العليا ولكونهم أطباءً ومهندسـين تخرجوا من جامعات بلدها، وكان يقول لنفسـه "ولكن شـنو ذنبي آني إذا ما تعلمت هذه اللغة اللعينة وهل هي شرط حتىّ أكسب معاملتها الحسنة.

كنت ألاحظ كيف يسخر منها هؤلاء الذين يتقنون لغتها، يهينوها أو يمزحون معها بالبولونية، كنت أحس بهذا الشيء، وأفهم شويّة ومرّات هُم أنفسـهم يخبروني هذا الأمر بالعربي، وكانت تنتقم منهم من خلال احتقارها لي والصراخ بوجهي، شيء مؤلم، آني ما عندي حظ".

شَعَرَ الفطحل بالغَصة والألم والأسى من سوء طالعه عاضاً شفتيه بأسـنانه. قال له مرة أحد معارفه ناصـحاً إياه: "يا أخي انت ليش ما تتعرف على امرأة عربية، تسـترها وتسـترك وتكون مثّلك وبيك ومن مستواك، لا تزعل، انت شنو علاقتك ببولونيا؟ لا انتَ درست فيها ولا تخرجت منها ولا اشتغلت فيها ولا تعلمت لغتها، صحيح لو لا؟ بشرفك جاوبني على هذا السـؤال. آني يا أخي، والله أقول لك ذلك حبًّا فيك أشعر انتَ مهووس بالأجنبيات، ليش؟". أشار الفطحلُ بيده رافعاً إياها

إلى الأعلى علامة على عدم الاقتناع ولا ضرورة لمثل هذه الأحاديث.

تجهّمَ وجه الفطحل، تمتم بشيء غير مفهوم، تلعثم قليلاً وكأنه يلوك بالكلمات ولم تُسمع منه في حقيقة الأمر غير أصوات مثل "لا، لا" وكأنه يخفي شيئاً ما في دواخله النفسية، وكان كعادته في مثل هذه الحالات ينظر إلى الأفق بعيداً صامتاً، شارداً عن محدّثيه. لم يأخذ الفطحلُ طبعاً وكعادته بنصيحةِ هذا المتطفل المتدخل في حياة الآخرين الشخصية بحجة الصداقة والأخوة والطيبة ولا يدرك الهموم والمعاناة النفسية الداخلية.

لا يدري هذا الصديق الناصح النصوح أن الفطحل يعاني من سلب الذات منذ طفولته وأنه يريد أن يردَّ على كل هذه النواقص التي ظَلّ يعاني منها. هو بحاجة إلى امرأة أوروبية يفتخر بها أمام الناس إذا سارَ في الشارع وأهله إن رجع قريباً إلى العراق. ماذا سيقول للناس إن سألوه هل حصلت على شهادة عليا؟ هل تزوجتَ امرأةً أجنبية من تلك االبُلدان التي أقمت فيها؟ هذا الصديق الناصح النصوح المجاني يتظاهر بأنه رجل خيّر وطيب القلب لكنه لم يعانِ من هموم الفطحل وأنه لا ينصح لوجه الله، قد يفكر بتسويق إحدى النساء اللاتي يعرفهن. ماذا يعمل الفطحل بامرأة عربيةٍ؟ هل هو بحاجة إلى مشاكل جديدة؟ وطلبات لن تنتهي، بل فضائح كبيرة ستغدو على كل لسان، وهناك شيء آخر كبير وخطير وهو العداوات والمعارك والحروب ليس معها فحسب، بل مع أهلها وأخوتها وكلِّ عشيرتها. ومرّت في خياله صورة زوجته العراقية الأولى وحبها الحقيقي له وسفره معها إلى بيروت ومن هناك إلى بلغاريا وطلاقه منها، لكنه تَذكّرَ أنها لم تحمل منه وتذكر أنها كانت تطلب منه بعض المرات عرض نفسه على الطبيب مستفزة إياه بمزاح وود، والآن وهو قد تجاوزَ الخمسينات من عمره بدأ يشعر بوحدة كبيرة بعض الأحيان متذكراً قول صديقه اللبناني: أبو الأبناء يعيش مثل الكلب ويموت مثل الملك أما الأعزب يعيش مثل الملك طوال حياته ويموت

مثل الكلب!

لكنه فـــــي هذه اللحظات غمره شـــعور بالحنين الكبير أو الرغبة الجامحة للّقاء زوجته البولونية متمنياً قدومها إليه بأسـرع وقت "عســى ولعل الله يهديها ويهديني ونرسو على البَر ونتفق على حياة عائلية هانئة ومســـتقرة"، تخيلها أمام ناظريه، امرأة لم تبلغ الثلاثين من عمرها، أصغر منه بأكثر من عقدين، فارعة مثل غصن البان، شقراء الشعر، رشيقة. سيتباهى بها أمام أصحابه وعائلته. تذكّر تلك اللحظات التي كان يقوم هو بكل شـــيء بدون تفاعل من جانبها "لكن عســـى ولعل تهدأ وتستقر وتكف عن مناكفتي وإهانتي، عسى ولعلها فعلاً حامل مني مو من شخص آخر غيري، يا رب تكون حبلى مني، يا ترى لازم عليّ أن أسألها عن هذا الأمر، أستفسر منها عن أب الطفل، أقدر أقول لها آني عقيم؟ هل هو طفلي حقّاً أم من شـــخص آخر؟ أوه، يا الله بالتأكيد راح تثور وتزعل من هذا الســـؤال وراح تعتبره اســـتفزاز وراح تكيل لي الإهانات وتقول لي آني عربي متخلف! لكن ماذا إذا أبدت اســـتعدادها للتحقق من أبوة الطفل؟ إذا فعلاً تم التأكد من أن الأب شـــخص آخر؟ إشراح أقول للناس؟ يا الله آني فعلاً بائس ومسكين".

أخذ يرتّب آخرَ الأشياء، جمعَ الأقداح ووضعها فـي حوض مغسلة المطبخ ثم أسـدل سـتائر الصـالة الرمادية المعتمة متوجهاً إلى غرفةِ نومِه، وما هي إلا لحظات حتى غطّ كعادته في نومٍ عميقٍ.

في النوم حلم بأنه يتسلق شيئاً مرتفعاً، في البداية كان نخلة سامقة رفيعة مائلة، بل تبدو آيلة إلى السقوط، تسلقها حتى وصل إلى قمتها، إلا أنه شعر بأن كَرَبَ السعف الذي يمسكه بيديه مهترئ وغير قوي مما جعله يرتبك ويشعر بالخوف. فجأة تغير المنظر ووجد نفسه واقفاً مستعرضاً عضلاتِه على شيء مرتفع وصلد لا يمكن النزول منه ببَساطة، شيء يشبه منصّة القفز فـــي أحواض السباحة لكنها عالية ومرتفعة للغاية وكان بعض أصحابه يتطلعون إليه رافعين رؤوسهم

واقفين على الأرض لا يعرفون كيف يساعدونه، خائفين أن يحدث له خطب، شيء مخيف، خطير ومكروه شاعرين أن أقل حركة منه قد توقعه على الأرض ويروح "سبعه ماي" كما يقول المثل العراقي. لكن لم يحصل أي شيء من هذه الوساوس والمخاوف، فاجأهم بالقفز من تلك المنصة الشاهقة كما لو أنه يرمي بنفسه إلى حوض سباحة صغير أو شاطئ البحر، أغمض أصحابه الواقفون الواجمون أعينهم ولم يتحمل أحد منهم النظر إلى هذا المشهد المؤلم أو يجرؤ على تلقي الصدمة المتوقعة، إنه الموت بلا أدنى شك. لا بد أنها نهايته الحتمية وكان هو يشعر بأن موته محتوم وأن جسده وعضلاتِه ستتمزق حالما يسقط من علٍ.

لم يتجرأ أحد الذهاب إلى المكان الذي سقط فيه، إلا واحد منهم توجه إليه مباشرةً مهرولاً نحوه كالطلقة، وجده مرمياً في حوض صغير مربع الشكل، صغير الحجم مبني من الإسمنت، كان مغمض العينين، يلبسُ ملابسَ الكشّافة التي كان تلاميذ المدارس العراقية يرتدونها، أراد أن يتلمّسه لكي يتأكد من أن المنيّة فعلاً وافته، أو أنه لا يزال على قيد الحياة. بينما كان صديقه يجس نَبَضَه، فتح الفطحل عينيه مبتسماً قائلاً:

- عايش! اطمئنْ آني عايش، آني بزّونه(قطّة) أم سبع أرواح.

فرحَ صديقُه وصار ينادي الجميع بأن يحضروا ليروا أن صاحبهم لا يزال حيّاً يرزق!

رنَّ هاتفه، فتحَ عينيه متوجهاً نحوه، نظر إلى الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، شعر بثقل جسده وصعوبة المشي، تناوله بيده اليمنى.

- ألو، ألو، لا، غلطان بالنمرة.

تألم كثيراً لهذه المكالمة المزعجة، التي حرمته متعة نوم الصباح، كان دائماً يقول لأصحابه "أحلى شيء في الحياة هو النوم وبالذات نوم

الصباح" الذي يمتد عنده حتى الثانية عشرة أو أكثر، وكانت كل النساء اللاتي تعرّف إليهن وأقامَ علاقاتٍ معهن يتضايقن من نومه الكثير على عكس أصحابه ومعارفه الآخرين حيث كانوا يستيقظون مبكراً كالديكة متجهين إلى أعمالهم ووظائفهم لكنهم في الوقت نفسه يشكون بودٍ ودعابةٍ من نسائهم بِسَبَبِ نومهن العميق والكثير وكان منهم من يقول له الرجل يبكّر صباحاً كالديك أما المرأة المدللة فهي نؤوم الضحى. إنها معادلة غير مفهومة لدى هذا الفطحل.

عادَ إلى فراش نومه مرة أخرى، أغمض عينيه متحدياً ضوضاء المدينة وضوء النهار محاولاً النوم، وضع سماعة الهاتف اللاسلكي على المنضدة المجاورة لسريره. ما هي لحظات حتى رنَّ الهاتف مرة ثانية:

- ألو، ألو.

كانت زوجته البولونية تتحدث إليه من السماعة الأخرى بلغة بولونية اعتيادية عليه أن يركز كثيراً كي يفهمها:

- **ألا زلتَ** نائماً أيها الأمير؟ إلى متى تبقى على هذا الحال؟ أَفِقْ لنفسك أيها الطفيلي؟ أُخرُجْ يا فارغ وابحثْ لك عن عمل يفيدك، ستصبح أبًا عما قريب، هل تفهم؟ حاول أن تفهم قليلاً ولو أنا يائسة منك يا أبله لأنك طوال عمرك هائم ونائم كأنك محنّط.

قاطعها مرتبكاً، لم يفهم كلَّ حديثها، شعر بالحرج أكثر من السابق قد يكون لأنها في هذه المرة تُذَكّرُه ببطالته وقرب ولادة طفل، كأنها تريد أن تشعره بصغر حجمه وعاره. وكان هو يخلط المفردات السطحية من تلك اللغات التي يعرفها ولا يجيدها ليكوّن جملة مفيدة، بينما تسخر هي منه كعادتها.

- ألو، ألو، اسمعي، انت تعالي هنا، أنا ينتظرك.

قاطعته ساخرة:

- "انتِ تعالي هنا، أنا ينتظرك!"، اسمعْ، اسمعني جيداً، أنا كنت عند الدكتورة فقالت لي إني حامل، تفهم؟ أنا حامل منك واحتمال أنا أرجع إليك بعد أسبوع أو أقل أو أكثر وأريد أعمل إجهاض إذا لم تبحث عن عمل لك.

- **ها**، ها، ها؟ ماذا تقولين؟ أي شغل هذا؟ أنا سياسي! أي شغل؟ أنا شاعر! أي شغل هذا؟ أنا معارض للنظام! أنا ضد صدام! هذا شغلي! أنا شاعر! أنا كاتب!

- نعم، ضد صدام بَسْ هذا لا يمنعك من العمل في الصباح والنضال ضده في المساء (ثم أردفت ضاحكة) الشعراء لا يعيشون من قصائدهم، يكفيك لهاثاً وراء الآخرين، فهمت؟

- طيب، طيب، أنت تعالي هنا.

- "نعم أنت تعالي هنا"، أنا فعلاً سآتي إليكَ بعد كم يوم وسأتصل بك من بولونيا قبل المجيء ولازم تنظف الشقة كلها وتهوّيها فلم أعد أحتمل رائحة الدخان.

- طيب مع السلامة.

فركَ الفطحل وجهه براحتَي يديه متوجهاً إلى الحمّام، غسل وجهه بالماء البارد متطلعاً إلى المرآة، تذكّرَ بمرارة أنه لم ينظف عينه الزجاجية منذ فترة طويلة، أسدل ستارةَ شباكِ الحمامِ الصغير، أغلق بابَه بإحكام أحنى رأسه إلى حوض المغسلة، فتح صنبور الماء وأخرج الزجاجية بحركة سريعة ثم أعادها مكانها بعد أن شَطَفَها بالماء. انتبه إلى ذقنه وتيقّنَ بأن عليه حلاقته الآن، وَضَعَ غَلاية الماء ليعد الشاي وبدأ يفرّش أسنانه، ما هي لحظات حتى صار الشاي جاهزاً ثم تناول قطعة جبن ملفوفة بالخبز وشرب الشاي، فتح التلفاز وجهاز التسجيل ليشاهد ما سجله يوم أمس، فرح كثيراً لسماع صوته الأجش العالي ولاحظ أن اسمه مكتوب بوضوح إلا أن صفته مكتوبة في المرة الأولى المندوب العام أما الثانية فكانت بشكل مختلف عن المرة الثانية

(المنسق العام)، تألم قليلاً لهذا الاختلاف، لكنه قال لنفسه مواسياً إياها "مو مشكلة"، وشعر بمرارة أكثر لأن صورته لم تعرض على الشاشة رغم أنه أرسلها إلى المحطة أكثر من مرة وتضاعفَ شعوره بالحسرة لقصر وقت مداخلته متمتماً بين نفسه "آه لو أعطوني شويّة أكثر من هذا الوقت". أطفأ التلفاز غاضبًا من سوء الطالع متذكراً زوجته البولونية، "كانت تحكي بلغتها الأصلية بسُرعة، وهي تعرف حق المعرفة آني ما أفهم عليها إذا حكت بهذه السرعة وكأنها تعمدت ذلك، يا ترى هل أرادت الإساءة إليّ؟ ليش كانت تريد تغيظني؟ لا، ومو بَسْ هذا، كانت تستهزئ بي، قالت لي أشياءَ لم أفهمها كلها حتى لم أستطع الإمساك بخيط الموضوع، لكن عموماً آني أعرف قصدها خير المعرفة، هذا هو مغزى حديثها دائماً، هي تعني ما تقول، أعتقد هي قالت كلمة مو حلوة آني سامعها منها أكثر من مرة تقولها على اللاجئين، نعم قالت بارازايت، بوروزيت أو شيء من هذا القبيل، خَلّيني أكتبها وأسأل المترجم هذا أكيد راح يعرفها. تناولَ دفترَ أرقام الهواتف، وجدَ اسم مترجم يجيد العربية والبولونية، تريّثَ قليلاً، أراد أن يتأكد من عدم معرفة زوجته بهذا المترجم، "لا، هي ما تعرف هذا المترجم، هذا بعيد عليها وطول عمره مشغول وما عنده وقت للآخرين كأنما مو من أصل عراقي، غريب طبعه!"، اختارَ رقمه وبدأ الحديث معه بهدوء.

- ألو، إشلونك؟

- يا هلا ومرحبا.

- إشلونك أبو الشباب؟ تذكرني؟

- أقول لك حبيبي سامحني آني ما أتذكر كل الأسماء، حالياً أنا عندي ترجمة هاتفية، يا ريت لو تخابرني المساء أو تقول لي طلبك بِسُرعة، أَمر؟ خدمة؟ تفضل بَسْ بِسُرعه.

- إي، أخي أنت شبيك طول عمرك مستعجل؟ أنتم المترجمين إشبيكم طول عمركم بَسْ تتراكضون؟ ما راح أطوّل عليك، قل لي شنو

معنى كلمة بوروزايت أو بارازايت.

- طفيلي، يعني طفيلي، بـارازيـت، يعني الّلي عـايش على فتـات الآخرين، مَن قال لك: بارازيت؟

قال عبارته الأخيرة ضاحكاً.

- شكراً.

- تدلَّل عيني، مع السلامة.

أغلق الفطحل سـماعة هاتفه ماسـكاً حنكه بكف يده اليمنى سـانداً عِكسها بيده اليسرى "هيجي يعني؟ آني طفيلي؟ وانتِ؟ انتِ يا بولونية يا ساقطة، انتِ وأهلك كلهم ما بقي شيء عندكم ما بعتوه، آني طفيلي؟ ها آني الّلي تسـاهلت وإياك بكل شـيء، على الأقل آني ما سـرقت أي شـيء من أي شـخص لكنكم البولون كلكم حرامية، آني آخذ حقي من المجتمع هنا بكل احترام، آني مريض وغير قادر على العمل لكني ما أسرق السيارات وأهرّبها لبولونيا، آني أعيش على الإعانات بكل فخر واعتزاز واحترام" هنا توقف قليلاً وشعر بانقباض صدره وحسرة ثم تنهد بعمق متمتماً بين نفسه "أي شعور بالاعتزاز هذا الّلي تحكي عنه يا غبي، خلّيها مسـتورة، أكو واحد يحترم نفسـه ويقبل أن يعيش على الإعانات الاجتماعية ولكن هذا الموجود والظروف تضـطرني للقبول وإلا شـنو الحل؟ هو الشـغل موجود وآني رفضـته؟ طبعاً لا، هذا البلد مليء بالعاطلين، ناس عليها العمل وعندهم شـهادات عليا ومع ذلك عطّالين بطالين يذرعون شـوارع لو مرضـى نفسـياً لو متقاعدين لأسباب نفسية وصحية، قابِل بَسْ آني، شنو هي بقت عليّ؟ إن شاء الله نخلص من صدام ونرجع للعراق".

توجّه نحو مرآة الحمّام مرّةً أخرى، وتذكّر نصـيحة الصـديق الناصِح النَصـوح "الطيب" بالزواج من امرأةٍ عربية متطلعاً إلى عينه الكريمة مقارناً إياها مع الأصلية متمتماً بين نفسه بألم وحسرة "صورة طبق الأصـل، ولا اختلاف ملحوظ". ومرّت فـي خياله تجاربه مع العراقيـات المتعجرفـات اللاتي يخفين كبريـاءهن وطلبـاتهن لمجرد

الزواج والحصـول على الإقامة فـــــي هذا البلد ولكن بعد ذلك يريدن الاستحواذ على كل شيء: المال والسلطة والجاه والمعرفة والشهادات، وإعالة أهلهن وأخوتهن ورَدّدَ مع نفسـه "جَرّبْ أن ترفض أبسَط طلب من طلباتهن فما أسـهل أن تسـمع منهن كلمة "فارغ، فاهي، باهت بلا طعم ورائحة ولا لون، أعور"، لا، لا كل شـيء إلاّ العراقية، إبعدْ عن الشر وغَنّ لَه"، الباب اللّلي تجيك منها ريح، سِدْها واسترِح". تعززت ثقته بنفسه قليلاً وشعر بالراحة النفسية، مرّرَ يديه على وجهه، تحسّسَ ذقنه مرّةً ثانيةً، قرر حلاقته، حلق ذقنه بسُـرعة وعطّرَ وجهه برائحة طيبة، مشّـطَ شـعرَه الكث ناظراً إلى عينيه، وضـع نظارته عليهما، ارتدى ملابسه، جَمَعَ بعضَ الأوراق فـي عليجته العنتيكة.

خرج من البيت، تَذكّرَ صـندوق البريد، فتحه، لَمْ يجد أي رسـالة فيه، أغلَقَه متحسّراً قائلاً لنفسه "صارت الرسائل قليلة بِسَبَبِ الإنترنت".

كان الجو بارداً والناس يبدو عليهم الانشـغال حد الهوس والمعاناة من الضـغط، يبدأ يومهم منذ الصـباح الباكر يعملون فـــي المصـانع والورش والمحلات والمدارس والســوبر ماركتات الكبيرة ورياض الأطفال والنوادي والمكتبات والبنوك وشـركات التأمين، عليهم أن يقضـوا حاجاتهم الخاصـة ويبتاعوا مأكولاتهم وأشيائهم المنزلية حالما ينتهوا من أعمالهم. بعد فترة العمل تكاد المدينة تبدو مغلقة والشـوارع خالية من المارة فهم فـــي بيوتهم يتناولون وجبة العشـاء السـاخنة ويستمتعون بمشاهدة الأخبار التِلِفزيونية المعروفة.

توقف عند كشك لبيع الصحف، قرأ عناوينها الرئيسة: وقوع حرب وشـيكة، تحرير العراق، السـطو على آبار النفط العراقية، الضـربة الذكية، الهجوم الكاسح بأقل خسائر ممكنة، الأمريكان يريدون خروج صدام من العراق ومبادرة زايد تفشل.

قال لنفسـه "يبدو أن سـاعة الصـفر قد حانت" وهذه هي آخر أيام صدام. توجه نحو الشارع الرئيس فـــي المدينة وكعادته قطعه مشياً على الأقدام من بدايته حتى نهايته. التقى بأحد معارفه ودار حديث

بينهما، بدأه الفطحل:

- شنو رأيك بالأخبار؟ قربت ساعة الصفر، نضالنا ضد الطغاة راح يجيب نتيجته ويصل إلى نهايته، كل طاغية وله نهايته، خلينا نرجع للبلد، نبنيه، نسويه جنّة مثل البلدان الأوروبية.

قال له محدثه ساخراً:

- والله زمان صـــرت تحكي بلغة "نحن" بيش نبني الوطن؟ بقملاتنا؟ شِستفدنا من إقامتنا بهذا البلد؟ بقينا فيه لا شغل ولا عمل ولا فلوس، طول عمرنا عايشين على الإعانات الاجتماعية، انت راح تبقى بهذه القضايا؟ انت إشلون تبني الوطن؟ ومن راح يخليك تبنيه؟ انت أصلاً ما عندك خبرة عمل وأهل الوطن راح يســألوك إشــدرســت وإشحصلت وشِشتَغلت بأوروبا؟ وشنو هي خبرتك؟ تصور، قبل فترة حكيت مع أهلي بالتلفون ســألوني معاتبين: ليش ما درســت بالجامعة وأخذت شــهادة على الأقل راح تفيدك لما ترجع للعراق! عيني العراقيين مو سهلين، ليش انت تعتقد أهل العراق الّلي بالداخل ما عندهم كوادر؟ تعتقد هم محتاجين لي أو إلك؟ انت غلطان وطول عمرك بطران وما تفكر إلا بالشيء السهل، إذا قلت لهم انت عاطل راح يقولون عليك ما بيك خير، لو عندك قدرة كان حصــلت على شغل في أوروبا، عفواً آني أقصد نفسي آني شخصيّاً أيضاً.

- ومن قال لك آني ما أشتغل؟

- انت تشتغل؟ إشتِشتغل؟

- صحفي.

- هذا كلام فارغ ما يمشــي لا عليَّ ولا عليهم. يا أخي انت طول عمرك شــاغل روحك بالأشــياء الفارغة، الشــغل الحقيقي يعني شــهادات وخبرة عمل ورواتب. عال العال إذا كنت تدفع ضريبة للدولة، يعني يحق لك أن تمتلك شقة أو بيت، المهم أن تعيل نفسك، هالمرّة تعوّل

على الأمريكان! انت من كل عقلك الأمريكان راح يبنون العراق؟ وليش يبنوه؟ شـــنو على ســـواد عيون العراقيين؟ وليش تفترض محبتهم للعراقيين؟ أصـلاً الأمريكان لو كانت نياتهم صـافية كان بنوا الدول العربية الّلي علاقتهم ماشـية ويّه حكوماتها، كان حلّوا القضـية الفلسطينية وخلصوا العالم منها!

- أهووو انت طول عمرك تحكي بالقضية الفلسطينية.
- نعم هي أهم مشكلة بالشرق الأوسط وبدونها لا هدوء فيه.
- طيب النقاش صعب وياك، مع السلامة.
- مع السلامة.

***

عَمّت المظاهراتُ المعاديةُ للحرب شوارعَ المدينة وانقسم المجتمع إلى قسمين، من الناس من قالوا إن هذه الحرب عملية سطو على منابع النفط ليس إلا، بينما اعتبرها آخرون إنقاذاً للمجتمع الدولي والعراقيين من هتلر جديد. نَشَطَ اليساريون نشاطاً كبيراً بحيث سيطروا على الشارع والرأي الشعبي العام وكان أغلب الناس الذين يلتقي بهم الفطحل من أهل البلد الأصليين والأجانب ومواطنيه يرفضون الحرب.

كان الفطحل يجلس مع البولونية بعد أن عادت إليه، متابعاً الأخبار أولاً بأول ويعيدُ ســـماعها عدة مرات ويطير فرحاً عندما يقرأ على شـــاشـــة التلفزيون: "خبر عاجل"، وكان لا يكف عن تغيير المحطات علّه يجد أخباراً جديدة ترتاح لها نفسه، وكان يشعر بالحسرة لعدم فهمه اللغات الأجنبية ولا يقدر على متابعة محطة سي أن أن أو بي بي سي.

كانت البولونية تشـغل نفسـها بدراسـة العربية كما كانت تقوم بذلك ســـابقاً وصـــارت تفهم الكثير عن تاريخها وقواعدها ولاحظت أن الفطحل لا يسـتطيع تعليمها باسـتثناء اللحظات العاطفية فيلقنها بعض كلمات الغزل التي صـارت تلفظها كما يلفظها العرب لكنه يصـر على

طريقته: مثل خبيبي، أنا أخبك، إلا أنها صارت تفهم الكثير من الكلمات أيضا بِسَبَبِ علاقاتها السابقة مع الطلبة العرب في بولونيا. كانت كثيراً ما تجلس قبالة الكومبيوتر وتجلب له المعلومات من خلال الشبكة العنكبوتية البولونية وتعارضه بكل شيء وكثيراً ما تقول له إن هذه الحرب لا تجلب إلا الدمار والخراب ولا خير فيها للعراقيين والأوروبيين وإن إزاحة الدكتاتور بهذه الطريقة سيكون له عواقب وخيمة على العالم كلّه ومن الأفضل للجميع رفع الحصار عن الشعب العراقي ليشبع أولاً ومن ثم ليتمكن من إزاحة طاغيته بنفسه وبدون تدخّل من الأجانب.

كان الفطحل يجد صعوبة في فهم كلامها، لا يدخل في نقاش عميق معها بل يكتفي بتكرار بعض المفردات التي يعرفها من البلغارية متصوراً إياها تفهمها كلها أو الإنجليزية أو إشارات اليد وكثيراً ما ينهي الحديث بهز رأسه مدخناً سيجارته نافخاً الدخان بوجهها بين الحين والآخر مثيراً بذلك حفيظتها مرات ومرات لكن دون جدوى، وقالت له في إحدى المرات ساخرة وهي تسرح شعرها الأشقر الطويل بأصابع يديها الطويلتين متكئة على الأريكة:

- إذا كنتَ تتصور أنك ستحصل على حصتك من الكعكة العراقية، أنت غلطان وحلمان فاللصوص الكبار لن يسألوا عنك لكنهم قد يستخدمونك لفترة قصيرة ويرمونك فيما بعد كأي خرقة، أنا المفروض أفرح فقد تحصل على منصب لكني أعرف أنك غير قادر على الحيتان الكبيرة.

كانت هذه البولونية متضايقة منه وتصرفاته، إلا أنها شعرت في هذه المرة بأن عليها أن تحتفظ بالجنين وبدأت الاقتراب أكثر من الفطحل فقد يكون أبًّا لوليدهما القادم. لكن هناك قوتين تتنازعان في دواخلها ومزاجها وتفقد السيطرة على نفسها في بعض الأحيان فتثور غضباً أو تنتقص منه مرات أخرى.

وكان فـــي بعض المرات يقتنع فـــي داخله بكلامها المنطقي الذي يكرره العديد من الناس إلا أنه تعب من الغربة وبقاء الدكتاتور فـــي الحكم، أما العراقيون فـــي الداخل فقد هلكوا من تصرفات هذا الطاغية السياسية الغبية، لكنه بدأ يشعر بأن عليه اقتناص فرصة تواجدها معه في بيت واحد وميلها إليه معتبراً إياها ذهبية كَلَونِ شعرها الجميل وكان يتطلع إلى بريق عينيها الخضـــراوين فيزداد إعجابه بها لكن الشـــكوك كانت دائماً تراوده فـــي ولائها أو حبها له متضايقاً من طلباتها المادية فـــي كل مرة تقترب منه وكان يفكر بمستقبل علاقتهما فيما إذا استمرت تسكن عنده وحافظت على الطفل، فيا ترى هل ستدفع له إيجار الغرفة كما كانت تقوم سابقاً أم أن العلاقة لا بد أن تتغير. كان هذا الأمر يحيره فعلاً. ومما كان يشـــعره بالحرج رغبته الجامحة لممارســـة الحب معها باستمرار والميل إليها فـــي بعض الأحيان لكنه لم يشعر بالحب الحقيقي لها ولم يحس بأن مشاعرها نحوه تغيرت فعلاً بحيث يستطيع أن يقول لنفســـه إنها تحبه، أجل كانت تتجاوب معه وتُلبي رغباتِه لكنه لاحظَ نظراتِها الحزينة أكثر من مرة وشـــرودها منه وانشـــغالها بأمورٍ أخرى كثيرة لا علاقة لها به. وكان انعدام إتقان اللغة بينهما حاجزاً كبيراً أعاق انســـجامهما وكانت هي عموماً تشـــعره بأنها أوروبية متفوقة عليه وأنه شـــرقي بدوي ارتبط ماضـــيه ببلدٍ متخلف بالنســـبة إليها مثل بلغاريا لا يشـــرفها كثيراً وكانت كثيراً ما تقارنه بمواطنيه خريجي بلغاريا وبلدها من المهندســـين والأطباء والصـــحفيين وتنظر إليه نظرة اســـتعلائية وتعتبره فارغاً وأجوفَ، بل لا شـــيء بالنســـبة لهؤلاء، ولاحظت أيضـــاً ســـخريتهم منه لكنها كما يبدو رضـــيت بقســـمتها ويبدو أنها تميل نحو ترتيب وضعها معه.

وكانت كثيراً ما تشغل نفسها بالاتصالات الهاتفية مع أهلها فـــي بولونيا وصـــارت تلاحظ انزعاجه رغم أنها تقوم بذلك من خلال خدمات الإنترنت المجانية، بينما كان هو أيضـــاً ينشـــغل عنها كثيراً

بالخروج لوحده يومياً لقضاء مشاغله كما كان يقول لها وعندما يعود إلى البيت يتناول غداءه لينام قيلولته المعتادة وعندما يستيقظ يأخذ زجاجة الجعة وبعدها تبدأ المكالمات الهاتفية والمحطات الفضائية العربية أو يزوره بعض معارفه الذين لا يتقنون كالعادة لغة يمكن لها أن تتفاهم بها معهم، أما أولئك المتعلمون والخريجون الذين كان يسميهم بالأكاديميين فكان يتحاشاهم ولا يدخلهم بيته أثناء وجودِها مما يثيرها كثيراً، هي تعرف عنه اهتمامه الكبير بهؤلاء الأكاديميين ويعجبه كثيراً أن يقول "اتصلَ بي الدكتور الفلاني أو المهندس العلاني" وإلخ من التصريحات فهي تعرف خير المعرفة أن هؤلاء المتعلمين لا يكنّون له الاحترام ولا يتصلون به إطلاقاً وهم متعالون عليه يسخرون منه.

كان الفطحلُ يَتَّصِلُ هاتفياً باستمرار ويبدو منشغلاً بتطور الأحداث متابعاً إياها ومتحمساً لها أيما تحمس وكانت هي تسمع مكالماتِه الهاتفيةَ وتتضايق كثيراً من هذا الاهتمام السياسي اليومي في كل الجلسات والمناسبات فكثيراً ما تسمع كلمات مثل أمريكا، صدام ولم يكن هو ليبالي بها.

اتصلَ الفطحل بسِكِرتير الدكتور المعارض العراقي أمجد.

- ألو، إشلونكم حانت ساعة الصفر؟

- ها؟ انتظرْ خلّيني أتّصل بالرئيس بوش وأسأله عن هذا الموضوع!! انتَ تتصورني أشتغل في البيت الأبيض!

- لا، عفواً هذا مو قصدي، عموماً حبيت أخبرك، راح أتصل بالمحطات كلها وأخبرهم وأوضح موقف المعارضة من الحرب، البارحة قلت لهم الشعب العراقي كله ما يريد الطاغية، ها إذا دخل الأمريكان.

- انتَ حَضِّرْ نفسَك، إذا دخل الأمريكان سنكون هناك وراح نأخذك ويّانا.

- آني حاضر، ولا يهمك آني حاضر، بَسْ خَبّرني.
- أكيد راح نخبرك ونتصل بكل جماعتنا.

وَضَعَ سماعة التلفون، توجه متهلّل الأسارير نحو البولونية، التي كانت ترتدي ملابِسَها لتخرج إلى الطبيب، قال لها بالعربية.

- تعالي يا خبيبي تعالي.

ثم أردف بالبلغارية:

- العراق مُلكٌ لنا، عراقنا، صار لنا.

ثم أشار بيده إلى نفسه قائلاً بالإنجليزية كأنه يلقي قصيدة بنبرة خطابية على طريقة الشعراء العرب:

- آي إراك، إراك آي! "أنا العراق والعراق أنا" وار فينيش آي جو تو إراك، نيو إراك، وار فينيش كويكلي، أمريكا جو، صدام جو، فينيش كويكلي، نو مشاكل نو دمار، فلوس في إراك كثير، نفط كثير، غاز كثير، إراك فيه موني، موني.

أرادَ أن يقترب منها كثيراً، أزاحته قليلاً عنها قائلة له:

- اسمعْ أنا اليوم سِك، لازم دكتور، فاهم، أنت وأنا سَوَه دكتور، أوكي؟
- ها؟ لا، أنتِ روحي وحدِك، انتِ سبيك إنجليش، دكتور هنا نو فار، مو بعيد، قريب، أنا مشغول، بِيزي، أوكي حبيبي انتِ روحي دكتور.

كانت مرتديةً معطفها، خارجة من الشقة، رمقته بنظرات شزر مستهجنة تصرفه قائلة له بغضب:

- أوكي، اللّي يخون وطنه يمكن أن تتوقع منه كل شيء.

بقي وحده، ضاق ذرعاً بها، تمنّى لو تخرج من حياته ولكنه شعر أنه سيطلب عودتها لو فعلت ذلك حقّاً، سيرجوها أن تعودَ إليه، صار متعلقًا بها قليلاً، لامَ نفسه قليلاً، لا يعرف ماذا يريد بالضبط، وشعر أنها أول مرّة يلوم نفسَه فيها بِسَبَبِ كائن آخر، هذه هي المرة الأولى،

التي بدأ يشعر فيها بما يسمى بتأنيب الضمير.

أخذ سيجارة، بدأ بالتدخين وهو واقف وسط الصالة مشاهداً التلفاز الذي راح يبث المظاهرات الكبيرة المنددة بالحرب، شَعرَ بالضيق والانزعاج، أخذ سماعة التلفون، اتصلَ بأحد الصحفيين المحليين وصار يتحدث بلغة متلعثمة:

- ألو، هاي "مرحباً"، أنا معارض عراقي وكاتب ومن المنفى، ممثل البرلمان العراقي في الشمال الأوروبي، أريدكم أن تعملوا مقابلة معي حتى نبدي رأينا بالأحداث.
- أوكَي، رائع، أعطني رقم هاتفك وعنوانك وسأتصل بك (سادَ صمت لبرهة ثم أردف)، في الحقيقة هل يمكنك أن تأتي إلى مكان المظاهرة الآن، أنا أقف وسط مظاهرة كبيرة جدّاً مُنَدّدَةً بالحرب ونحن نغطيها للمحطة الثانية، ما رأيك أن تأتي هنا؟
- هذه مظاهرة منافقين، لا يفهمون الوضع العراقي، هؤلاء يستلمون مبالغ مِنْ صدام، فلوس، فلوس.
- طيب، هذا يحتاج إلى نقاش طويل وأنا أكاد لا اسمعْك وقد أنقل رأيك إلى الآخرين، وسيردون عليك بأن المعارضة تموّل من أمريكا، سأتصل بك.

شَغَّلَ الفطحلُ التلفاز، بحث في المحطات الفضائية العربية حتى استقرَّ به الحال على محطة العرب، كانت هناك أخبار لا تهمه، نهض من كرسيه، تركه غير مبالٍ به، توجه نحو الهاتف واختار أحد الأرقام.

- ألو، آني حاضر بَسْ أرجوكم أن تكتبوا تحت اسمي وصورتي اللّي بعثتها لكم صفتي السياسية، أقصد موقعي السياسي: ممثل البرلمان العراقي في الشمال الأوروبي...ها؟.. راح تعطوني مداخلة واحدة؟ ليش؟ ما أنا مشارك في البرنامج؟.طيب بَسْ أرجوكم لا تنسوا وضع صورتي الشخصية لتوثيق الموضوع بَسْ، طيب أنا حاضر وراح أنتظر.

بدأ البرنامج بعد ساعة من المكالمة الهاتفية، ظهرت في هذه المرة صورته واضحة العيان، كانت قديمةً آثر أن يقدمها لهم، كان يبدو أجمل في شبابه وكانت تبدو كأنها لممثل سينمائي هندي أو سيريلانكي، كان شعره يبدو هذه المرّة مصفّفاً طويلاً من تسريحات السبعينيات يغطي قليلاً عينه اليسرى وكان يضع يده تحت حنكه، لم يرفع صوت التلفاز كما كان يعمل سابقاً بل التزم بنصيحة المحطة، بدأ يتحدث ممسكاً بسمّاعة الهاتف متطلعاً إلى صورته الواضحة على شاشة التلفاز وضغط على جهاز التسجيل مباشرةً، كان في هذه المرة أكثر استقراراً، رابطَ الجأش، لبقاً وبدأ حديثه بطريقة سهلة:

- أخي أنا أحب أن أوصل رسالة شرائح كثيرة وهامة من العراقيين، إنها وباختصار غير متحمسة للدفاع عن صدام، إحنه مع إزاحته عن الحكم لكن بدون احتلاله، لا أعتقد أن هناك من يريد بقاء هذا الدكتاتور، نحن ناضلنا من أجل العراق وسنبقى نناضل ضد الدكتاتورية وسنبني العراق الجديد، العراق الديموقراطي.

***

في مكانٍ آخر كان يجلس هناك مشاهدون جُلّهم من العراقيين المتململين والمهمشين، صاروا يطلقون على أنفسهم في هذه الأيام: الأغلبية الصامتة، كانوا يجلسون عند أحد أصدقائهم عدنان السمين في صالة شقته. قال عدنان السمين مشيراً إلى شاشة التلفاز، كان مرح المزاج كثيراً ما ينهي كلامه بضحكة:

- لَكْ، لَكْ، لَكْ هذا روني الفطحل، خَرَب عَرضَك صار اليوم قائد المعارضة، هنا والله هالمرّة كاتب اسمه القديم عبدالجبار، أعتقد هذا اسمه الصحيح، لا، لا، لا، اسمه الحقيقي طايع، نعم، أعتقد طايع، والناس كانوا يصيحون عليه طايح، يا طايح الحظ لأن هو كان دائماً يردد عن نفسه: "آني طايح الحظ"، بشرفي يمكن هذا هو اسمه الحقيقي، والله بيني وبينكم ضاعت عليّ، بعد ما أذكر

شنو اسمه الحقيقي، وهذه صورته القديمة أعرفها من قبل أكثر من عشرين سنة، صحيح كان دائماً يحط شعر كَذلته على عينه اليسرى حتى يغطّيها، خَرَب عَرضـــك طايع وعبد الجبار، يوم غوني وإلا روني وإلا محمد، وإلا عتبار لو قرندل، لَكْ انتَ بعرضي شخصية عجيبة، انتَ رهيب، والله رهيب وفعلاً فطحل زمانك.

وضحك الجميع متطلعين إلى شاشة التلفاز بانتباه بينما راح كرش السمين يهتز بقهقهاته وعيناه الزائغتان تبدوان أكثر صغراً مما زادَ من حجم أنفه الكبير!

قال الثاني كريم الأســوَد، كان ضــعيفاً شــاحب الوجه، يبدو عليه المرض والإرهاق:

- هذا طول عمره يدوّر شغلات فارغة ما بِها حظ، حياته كلها كلاوات.

علّق جليس ثالث، باسم الوجه أبيضه، يتحدث باللهجة الشامية:

- بالمناســبة شــو معنى كلاوات، عن جَدْ ســمعتها كثير من رفقاتنه العراقيين.

ضحك الجميع، سُمعت ردود مختلفة، أجابه الثالث:

- يعني (احتيال)، لكن اصــلها عَرقجين أو طاقية مثل مال اليهود بَسْ شويّة أكبر منه يحطّوه على الراس.

ضحك الشامي، قال متسائلاً:

- والعَرقجين شو هذا خيّو.

شرح له الجليس الرابع بهدوء:

- مثل الطاقية اللّي تُوضــع على الراس، والقصــد هنا أنه يدوّر قضــايا مو مضــبوطة فيها غش وكذب، وإحنه عندنا مَثَل يقول: اللّي يعيش بالحيلة يموت بالفقر، وراح تشوفون إشلون يصير مصيره لأنه بدأ يلعب بالنار وبشغلات كبار أكبر من حجمه بكثير.

- قال الخامس مدخناً ســيجارته، وهو يرتب من وضــع نظارته قليلاً،

متطلعاً إلى الشامي موجهاً حديثه إليه بالذات بلباقة المثقفين:

- شـــوف كلاواته هذا المحتال، مثلاً هو يقول حالياً كلام حق أريد به باطل، كلامه صـــحيح وممكن أكو عراقيين يتفقون وإياه لكن نيته باطلة وهو ما له علاقة بهذه الأمور لأن إحنه نعرفه حق المعرفة واحد فارغ وكذاب وطفيلي (كلاوچـــي)، بالمناسبة كلاوچـــي من كلمة كلاوات يعني يلبّس الآخرين كلاوات، يعني يضـــحك عليهم، يقال في زمن الدولة العثمانية كل شخص تبعية فارسية لازم يحط كلاو على رأســـه حتى يميّزوه عن الأتراك وما ياخذوه للجبهة لأنهم غير خاضـــعين للخدمة، فصـــار الناس يغشّـــون ويحطّون كلاوات على رؤوســـهم، ويجوز كانوا يقصـــدون بها اليهود لأنهم يُسَمّون طاقياتهم تقريباً بنفس الاسم، شوف الآن صاحبنا بدأ يستغل المواقف، كل يوم يقدم نفســـه بصـــفة معينة، يوم يقول إنه ممثل البرلمان الوطني العراقي فـــي الخارج ومرّة يدعي إنه ممثل حزب الأمة فـي الشمال الأوروبي وإلخ من الترهات.

ضحك الجميع ساخرين منه أعقبهم السمين قائلاً بسُخريته المعهودة:

- **بابا** إشـــبيكم أنتم مهتمين بـه؟ الرجّـال الّلي يعبّي بـالسِـــكلّـة رقّي: كلاوْجي، تافه، أجوف، فارغ، فطحل زمانه، كذاب، شـــتريدون ســـمّوه، المهم هو يأخذ الشـــيء الّلي يريده، الله يوفقه، يا معودين الباقين تَرَه مو أحسـن منه، قبل كم يوم شـفت واحد يقول لي "خلّينا نرجع للعراق وُنغرف بالفلوس، لَعَدْ بَسْ هُمَّه، إحنه هَمْ لازم نأخذ حصـــتنا، ســـألتُه مَنْ أنتم؟ قال لي: إحنه العراقيين الّلي عايشـــين بالخارج، المعارضـة، قلت له: أنت إشـوَقِتْ صـرت بالمعارضـة؟ طول عمرك كنت تشـــتغل موظف بالعراق وذاك اليوم طلعت من البلد، عمرك ما ســألت لا على الســياســة ولا على واحد، قال لي: هَسَّـه انتَ شَكو دَ تقطع رزقنا، خلينا ندبر أمورنا، قلت له: إي والله والنبي محمد كل العراقيين صـــاروا كذابين وكلاوجيه ورزق

البزازين على المعثرات.

وغرق الجميع في الضحك بينما قاطع ضحكاتهم الشامي متسائلاً:

- لَكْ شو هالحكي يا أبو زكي؟ شو هالكلام الما مفهوم يا عراقيين؟ شو يعني سِكَلّة رَقّي والبزازين شو هاي يعني؟ والله ما فاهم عليك.

وازدادت قهقهات الآخرين معلقين بعفوية مقاطعين بعضهم بعضاً بينما كان الشامي يلتفت إلى هذا وذاك مبتسماً كعادته، قال أحدهم: "هاي أنت ينراد لك معلم لهجة عراقية" بينما قال آخر: "سكلّة مكان يعبّون أو يعبّئون فيه، يعني يحطّون بيه البطيخ الأحمر وهذا يعني الشاطر هو اللّي يحصل على مراده، اللّي يحقق هدفه والغاية تبرّر الوسيلة"، عَلَّقَ آخر متشجعاً "والبزازين يعني القطط، تمشي تبحث عن أكل، وأي شيء تعثر به بالصدفة يكون طعام تاكله، وهذا صاحبنا رزقه على الأشياء اللّي يلقيها بلا تعب".

رَدَّ الشامي بشيء من العتاب والجدية والأسى:

- لَكْ هذا كيف يسمي نفسه عراقي؟ أنا عن جد كثير متألم لأن العراقيين اللّي عرفتهم وشفتهم قبضايات ورجال أبطال، لك أنتم شو صاير لكم العراقيين عَم تبيعوا وطنكم بلاش، صدقوني يا شباب هذا كله مش مضبوط وما بتصدقوا بوعود الأمريكان، شوفوا اللبنانيين شو عملوا فيهم لما دخلوا على لبنان، لقّنوهم درس ما بينسوه طول عمرهم وهذا اللّي راح يصير بالعراق لما يدخل الأمريكان.

قاطعوه كلهم مرة واحدة، كان السمين يمسك سيجارته واضعاً يده على ركبته اليمنى متطلعاً إلى الشامي بتعاطف وألم لا يقوي على الكلام الكثير غير الاختصار: "وَلَو، القضية مو بها لدرجه"، بينما قال كريم الأسوَد، شاحب الوجه: "ومَنْ قال لك إحنه نبيع الوطن؟ هَسَّه تشوف إشلون النتائج تصير وخيمة؟" وعقّبَ آخر: "أخي العراقيين ما يريدون يدافعوا عن صدام، بَسْ ما يتخلوا عن بلدهم، لا تصدق

بمبالغات الإعلام الأمريكي".

قاطعهم الشامي:

- والله يا جماعة سامحوني، المعارضة العراقية الحالية أنا عندي ما بتسوه شيء لأنها حطت إيدها بيد الأمريكان.

قاطعها السمين قائلاً:

- ليش هُمَّه الأمريكان مِنْ أين راح يهجمون على العراق؟ مِن المريّخ؟ أكيد من الدول المجاورة وبمباركتها وحتى إيران، بابا أنت إش تحكي؟ ليش الأمريكان إذا يريدون احتلال العراق يطلبون تأشيرة من المعارضة العراقية لو الدول العربية، لو يترجوّن هذا الفطحل الأبلة اللّي يطلع بالتلفزيون ممثل البرلمان العراقي، أي برلمان هذا؟ هذه مجرد دكاكين وأسماء فارغة.

قال ذلك مشيراً إلى التلفاز بيده وكانت السيجارة بين أصابعه المنتفخة، بينما نهض الشامي قائلاً "يَلّه شباب أستودعكم"، تشجع الآخرون هم أيضاً لينهضوا مودّعين بعضهم بعضاً.

كان الجو السائد في أوساط المسلمين والعرب محبطاً ومأساوياً باستثناء قسم من العراقيين ممّن استبشروا خيراً، لكن الغصة لتقهقر الجيش العراقي وعدم مقاومة بغداد كانت كبيرة لا توصف وازدادت عندما عبرت الدبابة الأمريكية الجسر العراقي.

كان الفطحل يجلس في مطعم شاورما متطلعاً إلى التلفاز، كانت هناك محطة فضائية عربية تبث أخباراً مناوئة للأمريكان، تطلع إلى الشاشة: خبر عاجل، خبر عن سقوط التمثال وظهور مجموعة من المتظاهرين المؤيدين في ساحة الفردوس، عبثاً حاول الفطحل وهو يقضم ساندويجة الشاورما أن يتذكر ساحة الفردوس، كاد أن يطير من الفرح لهذه الأخبار، تمتمَ بين نفسه "كلب، حقير، دمّر البلد بالحروب" بينما صار يسمع تعليقات بعض الجالسين باللغة العربية قال أحدهم:

"كل السبب من الدكتاتورية"، وقال آخر: "كلب ابن الكلب، رفض كل شـــيء وتالي مَتالي طلع فارغ ما عنده كل قوة"، وعلق آخر: "هذا متآمر، متفق مع الأمريكان"، وقال آخر باللهجة اللبنانية: "هذا كله ما يضبط مع الأمريكان هَلَّه تشوفوا شو يصير بهم لما يدخلوا العراق، حتى لَوْعندهم نية بناء العراق شعبنا ما بيخليهم، هيك حصل عندنا في لبنان"، وعلَّق آخر باللهجة المصرية:

"**آه طبعاً**، إزاي يخلوهم يخربوا العراق، دُول مِش حَيبنوا العراق، دُول حيســـرقوه، أنت فاكرهم عبيط يبنوا العراق، وليه حيبنوه؟ على ســـواد عيونا إحنه العرب، دول يهود حاقدين على قوة الشـــعب العراقي"، بينما علّق آخر باللهجة العراقية: "أخوان أنتم ما تعرفون إشصار بالعراقيين فـــي فترة الحصار، وقبلها حرب إيران ثماني سنوات، الشعب تعب وهلك، وهذا صدام طاغية قتل حتى أقرباءه، ويَتَّم أحفادَه، هو فـــي النهاية شيطان صغير أما أمريكا هي الشيطان الأكبر وخلّصت العراقيين منه، أيّدَه الآخرون مردّين: معلوم، معلوم، بينما كرَّرَ المصري قائلاً: معلوم، معلوم مضيفاً: "بَسْ مِش عشان سواد عيون العراقيين، دَه مصير كل طاغية، لكن إحنه لازم نفرق بين الحاكم المستبد والوطن، صدام سقط أهُو قدّامنه، نشوف الصنم يسقط لكن العراق باقٍ والشعب باقٍ وحَنشوف مين اللّي يضحك الآخر". قال آخر باللهجة السورية: "هَلَّه تشوفوا شو حَتِعمل فيهم المقاومة، إمبارح حكيت مع أهلي بالتلفون، عَمْ بيقولوا الشـــباب العرب كلّن دخلوا على العراق، راح تصـــير دم والأمريكان ســـقطوا بالوحل العراقي، هَلَّه بتشوفوا"، كان كث الشعر، واسع العينين يتكلم بثقة عالية بالنفس.

كان يبدو على الفطحل أنه عموماً مرتاح وغير مبال لتعليقات هؤلاء العرب لهم كثيراً، دفع ثمن الشاورما وخرج متجهاً إلى مسكنه.

***

كانت زوجتُه البولونية مستلقية على فراشها تقرأ بعض المجلات،

بعد أن تناولت فطورَها، استيقظ الفطحل فـــي هذا اليوم ليس كعادته مبكراً كأنه بدأ يستعد لأمور استجدت، قال لها بعد أن تناول فطوره ولبسَ ملابسه، بلغة مليئة بالإشارات والتمتمة:

- آي توموروا فوق (قالها مشـــيراً بيده إلى الأعلى) إراك، إراك، يو هَيْر، أوكَي، أوكَي؟

- أوكَي!

رنّ الهاتف.

- ألو، آني حاضر، اشتريت التذكرة، بعد كم ساعة أجيكم، كلها ساعات وتطلع طيارتي من هنا إلى الكويت، راح تلتقون بي هناك؟ طيب؟

- وضع السماعة مبتسماً، لا يصدق ما سيقدم عليه، متطلعاً فـــي أرجاء صالته و ثم استمر يكلم البولونية: مشيراً إلى غرفته والمفتاح:

- هذه الغرفة، ها، قفلتها، أنتِ تســـتعملين الصـــالة والغرفة الثانية، أرجوك لا تفتحيها، أوكي؟ أوكي؟ الرسائل، تحفظيها هنا.

قالها مشيراً إلى صندوق كارتون مستطيل الشكل.

- أوكي، أوكي؟ مع السلامة، سأتصل بك على رقم الموبايل وسأعطيك رقم موبايلي الجديد، موبايل أمريكي!

ودّعها الفطحل محتضـناً إياها، ثم خرج من باب شـقته يدفع حقيبة ســـفره بعد أن تأكد من جوازه وتذكرته وأوراقه الأخرى التي يحملها فـي حقيبة أخرى صغيرة.

***

صار الفطحل كثيرَ الحضور فـــي المحطات الفضائية، وأصبح يرتدي البدلات الأنيقة للغاية وأربطة العنق المورَّدة، المزركشـة، ذات الألوان المتنوعـة كـالأحمر والأرجواني، غـالبـاً مـا كـان يظهر حليق الذقن مصـفف الشـعر سبله ويبدو مزيتاً، أصـبح وجهه أكبر أو أسـمن وبدت وجنتاه متوردتين رغم سمار بشرته، وأن العز بدأ واضـحاً على

ملامح وجهه، قَدَّمَهُ المذيعُ باسم آخر غير الذي اعتادوا عليه سابقاً حيث أصبح اسمه وثّاب عنبر الناطق الرسمي لحزب البرلمان العراقي، تحدث في البداية قليلاً عن حياته وقال إن والده أسماه وثّابا تيمنًا بالوثبة، وكانَ مقدّم البرنامج الرجل الكبير في السن ذو الخبرة الإعلامية الواسعة يبدو عليه أنه لا يثق بهذه الادعاءات، ينظر إليه بريبة من طرف عينيه، قاطعه مبتسماً:

- لكن يا دكتور وثّاب هناك من يقول إن هذا ليس اسمك الحقيقي، يُقال إن اسمك الأصلي: طايع أو طايح، بل إنه عبد الجبار وهو الاسم الذي استخدمته مؤخراً قبل السقوط.

- في الحقيقة كلّ الأسماء الأخرى لم تكن حقيقية في فترة الاختفاء، وبالمناسبة آني أستغرب لهذا الاهتمام بالسماء عفواً أقصد بالأسماء، ولنفترض آني غيرت اسمي ما دخل الآخرين بالأمر أليست هي قضية شخصية.

- حدثنا قليلاً عن حياتك الشخصية.

- أنا عراقي مقيم في المنفى وهربت كأخوتي العراقيين الآخرين إلى المنفى حيث أقمت فيه ومن هناك لم أنقطع عن التحريض لإسقاط الطاغية وأنا صحيح متزوج من امرأة أجنبية لكنها تحب العراق وتجيد الطبخ العراقي مثل الدولمة والمحشي وتحب كل شيء له صلة بالعراق، وآني حصلت على الدكتوراه في الإعلام وَعندي شهادات أخرى وجوائز.

- ما هي مخططات المستقبل، كيف ستتعاملون مع الوضع الجديد؟

- سنحاسب كلّ من اقترف الجرائم في زمن الدكتاتور وسنجتث كلَّ من سوّلت له نفسه إبان عهد الطاغية وسنقتص من المفسدين والفاسدين ولا مكان لغير الديموقراطيين في العراق الجديد، وأنا أدعو من برنامجك الرائع هذا كل العراقيين الأكاديميين وأصحاب

الشـــهادات العليا أن يعودوا إلى عراقهم الجديد وســـنهتم بهم ونجد أعمالاً تليق بهم فبلدهم أحوج إليهم من الدول الأخرى التي يقيمون فيها، ويمكنهم الاتصـــال هاتفياً بي مباشـــرةً وأنا ســـأتركه عندك لتعطيه إلى أي شخص عراقي يتصل بك.

- طيب شـكراً لك أسـتاذ وثّاب والآن لو سـمحت جاءتنا مكالمة هاتفية من أحد المشاهدين.

- ألو، السـلام عليكم، والله الكلام حلو والمثل يقول اسـمعْك أصـدقك، أشـوفك أكذبك، وشـكراً على كلام الدكتور ضـيفك، لكن بصـراحة انت أستاذ مقدم البرنامج رجل محترم ونحن نشكرك، إشلون تسمح لنفسـك وتسـتضـيف مثل هذا الصـعلوك الكذَّاب الّلي يعتقد أنه فعلاً عنده سلطة؟

- لا، لا، يا أخوتي المشاهدين هذا أسلوب غير صحيح ونحن قلنا نقطع مكالمة كل من يتجاوز حدود الّلياقة، بالمناسـبة دكتور ما هو رأيك بهذه التساؤلات؟ أنا فـي الحقيقة وردتني أسئلة تقول إنك استخدمت أسماءَ مختلفة ونشرت بعض الكتب فما هي قصتها لو تفصل قليلاً؟

- كما قلت لك سابقاً أنا عشت فـــي مختلف البلدان واضطررت إلى الاختفاء والتنكر وتغيير الأسـماء وبعض المرات طواعية ومرات أخرى الناس المحبّون هم الذين أسموني على سبيل المثال فـي فترة من الفترات صـار بعض أصـحابي يسـموني عتبار وقرندل وهما اســمان لم يطولا كثيراً وبعدها أســموني روني وكان حرف الراء يلفظ غاءً فكانوا يدعوني غوني لكني عندما دخلت هذا البلد لغرض اللجوء بجواز مزور وكـان اســـمي فيـه محمد ومرة أخرى عبد الجبار لكن اسمي الحقيقي هو وثّاب وبالمناسبة آني أدعو المتصل قليل الّلياقة ولا أقول الأدب أن يتصـل بي كي أجد له عملاً فـــي بلاده بدلاً من التسكع فـي الخارج كما يبدو عليه يقيم هناك.

- هل تعرفه شخصيّاً من نبرة كلامه وصوته.

- هذا غير مهم، أتمنى له الخير وليكف عن حسـد الآخرين، هؤلاء لا يحبون الناجحين.

***

كانت الِشـلّة تجلس هذه المرة أيضـاً عند عدنان السـمين، الذي قال مبتسماً كعادته:

- شـفتم المقابلات ويّا صـاحبنا الفطحل وثّاب، الناطق الرسـمي باسـم البرلمان الوطني العراقي؟

قاطعه الثاني، صديقه الضعيف كريم الأسوَد.

- بالله عليكم إشـلون يتجرأ هذا الصـعلوك على هذا الكذب، يعني فعلاً لو قالوا: اكذِب، اكذِب حتى يصدقك الآخرون! صار دكتور واسمه وثّاب، على أساس تيمناً بوثبة كانون 1948.

قاطعه الثالث:

- هذه مو أوّل مقابلة، وهو فعلاً طلع أكثر من مرة، لا تسـتهينوا به، تَرَه هو وصل وصار يحكي بلغة نحن والظاهر عندهم سلطة، لكن بالمناسبة صار مدة ما أشوفه وانقطعَ عن الإعلام.

قالَ الرابع:

- أنتم فعلاً معلوماتكم قديمة، هذه مقابلات قديمة، الظاهر أنتم ما سمعتم بالّلي صار له، ومصيره وقصته الأخيرة!

قال السمين:

- إي والله بالله آني صار لي فترة ما اسمعْ عنه أي شيء، شنو قصته بالله عليك، انت تعرفها؟

وتابعَ الرابع متشـجعاً شـاعراً كما لو أن صـاحبَه السـمين أعطاه الفرصة ليكمل حديثَه:

- إي معلوم، آني سـمعت الناس يقولون إنه خبط له خبطة كبيرة

وتورط، الأمريكان شـــالوه وحطّوه بأبو زعبل، والله صـــحيح هذه القصـــة عندي من مصـــادر موثوقة، سـمعتها من الّلي جابَه أصـــلاً لهذه المجموعة، أعرفه شـخصـيّاً وهو حكا لي القصـــة، المهم يُقال إنّه اتصـــلَ بزوجته هذه البولونية وهي حامل وتريد تولد واتصـــلَ بالســـفارة البولونية وحكومتهم، وهذوله البولون توســـطوا له عند الأمريكان وأطلقوا ســـراحه بَسْ قالوا لزوجته: هذا زوجك تعالي وأخذيه، بَسْ بعد لا تخلّيه يجي هنا أبد، وفعلاً أخذته وراحت به إلى بولونيا وهَسَّـــه هو بالمناســـبة لحد الآن خاتل، مختبئ هناك عندها هذه البولونية، والله طلعت أصـيلة وأشـرف منه، يقولون بمدينة أو قرية بولونية صغيرة.

قاطعه الخامس باقتضاب ولكن بثقة عالية بالنفس:

- أنا ســـمعت أنه هرب من العراق إلى الأردن ومن هناك ســـافر إلى بولونيا، وهذه القصـــة فعلاً حقيقية وصـــحيحة، وفعلاً هو ما طلع على التلفزيون صار له مدة.

وأصرَّ الرابع صاحبُ الرواية الأولى على صحتها:

- مثل ما حكيت لكم القصة، هذه هي الحقيقة وهو حالياً فـي بولونيا وحتى ســـمعت أنه متورط مع البولون بقضـــية اختلاس وصـــفقة الســـلاح البولونية، هذا مصـير كل هذوله الدجالين والسـطحيين، والتاريخ راح يلفظهم ويسـميهم خونة لا أكثر ولا أقل، ولا تتصـوروا أن الأمريكان يعطوهم سلطة، أبد، أبد، هَسَّـه تشـوفون إشـلون يخلوهم يقتلوا بعض، فرّق تسد عيني، هاي قصص معروفة من التاريخ.

بدأ الخامس حديثه محاولاً جهده عرض قصـــته بمصـــداقية عالية، كان يتحدث ويجول بناظريه إلى جلســـائه، وكان وجهه تبدو عليه

السماحة والهدوء والثقة العالية بالنفس، كان واسع العينين سوداوين، حاجبان كثان وشفتان ورديتان، تبدو عليه علائم الثقافة والقراءة من خلال نظارته الطبية الأنيقة، كان يتحدث زامّاً شفتيه بين حين وآخر وكأنه يجلس في مقابلة رسمية.

- والله أنتم كلكم تعرفوني، آني حذر من الأقاويل وما أتناول سير الناس الشخصية، آني بصراحة استفسرت وسمعت عنه قصصاً مختلفة، هذا يا سيدي يقال عنه إن الأمريكان ضجروا منه لأنه باختصار صار فعلاً يتصور نفسه عنده سلطة، وهو بطبيعته دبق ويتجاوز حدوده، ما يعرف يتصرف، يعني بالعراقي ما بِنّطَه عين، والظاهر اشتكوا منه لأنه اختلس مبلغ مال بدون ما يشارك الآخرين ويّاه لأنه ما يعرف أصول اللعب، لا ومُو بَسْ هاي، صار بعد يحكي بلسان طويل بالثوريات والصدق والإخلاص، الأمريكان حطوه بأبو زعبل مثلما قال صديقنا، توسَّطَ له البولون وطلعوه من السجن، لكن عصابة مسلحة وخطفته وطالبوا بفدية 100 ألف دولار، ما دفعها ولا واحد رغم محاولات زوجته من خلال بلدها بولونيا، والله والحق يقال طلعت فعلاً إنسانة آدمية وأصيلة، لكن بدون جدوى ويقال العصابة اعتدوا عليه وباعوه لمجموعة أخرى طالبت بفدية بَسْ هذه المرة اعتدوا عليه وصوّروه وحذروه وقالوا له: إذا نشوفك مرّة ثانية في العراق ننشر الفيلم ونفضحك، ويقال إنه الآن مختفٍ في قريه بولونية يعيش هو وزوجته وطفلهما الصغير.

تابع الجليس الرابع قائلاً كأنه يؤكد صحة رواية الخامس:

- والله آني شفت أحد المواقع يصور اعتداء أحدهم، بَسْ بصراحة ما أذكر إذا كانوا كتبوا اسمه أو لا.

خَتَمَ السمينُ الحديثَ قائلاً:

- كلها قصص لا نعرف صحتها لكن هذا مصير الهوائيين والفارغين والكذّابين، والمثل العراقي يقول اللّي يعيش بالحيلة يموت بالفقر.

الدَنمَرك 2003-2006

زهير ياسين شليبه
آخر قصة قصيرة عن مصير الفطحل:

الفطحل في مغامرة بصراوية*

كان الفطحل يرتدي سترةً فوق دشداشةٍ بألوان مبهرجة مزركشة كأنه قرقوز !
قد تكون سترتُه "مقفّلةً" لكنها تبدو ملطخةً، متسخةً، بل قذرة! أو رماديةَ اللّون عند التمعن ببقايا لونِها الأساسي، تختلط الألوان هنا، القرمزي والأصفر والبنفسجي، مؤطّرةٌ بخيطٍ أخضر رفيع. دشداشتُة البيجيةُ لم يبقَ من لونها الأصلي شيء يُرى بالعين المجردة، فضفاضةٌ، متهرئةٌ .
صارت ملابسه خارطةً بفعل آثار الزيوت والسوائل وفضلات البهائم. الغريب، إنّ الدشداشة أيضاً تبدو فيها خطوط خضراء دقيقة تلمع في بعض الأماكن كأنها في الأصل سلك حريري لتكتمل صورة الفطحل كمهرج يسخر منه الآخرون .

كان الفطحل يتذكر وجوه بعض أعضاء عصابة، "عَلسته" كما يُقال في هذه الأيام، وحسب المعلومات القادمة لنا من حبيبتنا المنكوبة بغداد .
و"العلس"، وما أدراك ما العلس، مصطلح جديد كما يبدو يُطلقُ على أي مختطف أو بالأحرى مختطف تبيعه العصابة الخاطفة إلى نظيراتها الأخرى، يعني إلى "زملائهم" في المهنة والعمل، بزنيس! ليش لا؟ كل شيء مباح في البلد المستباح! كل ما تريد ممكن في العراق الجديد، ذي الدم المراق، المحرر من قبل الرفاق، كاوبوي النفاق .
تذكّرَ الفطحلُ المسكين كيف قال له مرّةً أحدُ التافهين "العَلّاسة"، ويبدو من هيئته ونظراته ولسانه أنه من أولاد الشوارع :
- لك أعور العين ابن النعال! زمال ابن الزمال! أخ ال... أنعل ابوك يا بو الجابك علينا هنا، هالمره كسرنا شرفك ون ... وصوّرنا كل شي بفيلم، دير بالك، حِسّك عينك ترجع هنا، روح لبولونيا، يقولون مَرتك البولونية توسلت بربعنا وراح يدفعون فلوس حتى نطلق سراحك . دير بالك وترجع للعراق بعد!
طبعا لا يمكن نقل كلِّ مفردات هذا المجرم بحذافيرها، قبيحة يندى لها الجبين !
لكن صاحبنا الفطحل غاسل وجهه ببوله! كعادته لم يُصغِ لكلامِ أصحابِه ونصائِحِهم، يُشاع، وحسب رواياتِ المقربين منه طبعًا، لم يُطق الغربة هناك وإهمال زوجته البولونيه له، يقال إنها رمت ملابسه أمام سكآن البناية البولونيين ساخرةً:

- فينوخا زمويغو دومو تي برودني آربوسه، مام جي دوشج، زامينجيويش منيه، يوش نيي موغيو فاس زنوشج دووشي، هيبوكريتسي، نيغوسي، كوامتسي، فينوخه زووجيو ز بغدادو ! يعني بالعراقي الفصيح: (اطلعْ من بيتي ايها العربي القذر، انا تعبت منك، لا أقدر بعد على تحملكم، منافقون، أفاقون، كذابون، اطلع حرامي بغداد!) **

لم يتحمل الفطحلُ بَردَ بولونيا وصعوبةَ لغتِها الغريبة عليه وإهانات زوجته وتهكّمها المتواصل به، وأغرته حياة "الجاه والسلطة"، تصوّرَ نفسه أنه يتمتّع بها في بلده العاق، كما كان يسميه بدلاً من العراق .
صحيح أن أهله قطعوا اتصالاتهم به وتنكّروا له خوفاً من "الإبادة الجماعية"، نعم، كان يمكن أن يتعرضوا لها بسبب حبّه للظهور في برامج بعض المحطات التلفزيونية والتباهي والادعاءات وإصدار التهديدات والتحذيرات والإنذارات هنا وهناك مؤشراً بسبّابته متهماً كل معارضي الاحتلال الأميركي بالإرهاب والتكفير، كما فعل في بداية السطو متصوراً نفسه بأنه يملك سلطة حقيقية في البلد، إلا أنه اقتنعَ أخيراً بتحذير أحد "السياسيين" من القادة الجدد واستجاب لإغرائه بأن يسافرَ معه لفترة قد تطول إلى بولونيا كعضو في وفده. وكان للفطحل ذلك، وصار يخدمه خير خدمة ويوفر له السندرلّات الجميلات لاسيما أنَّ زوجتَه تقبلته على مضض أو ببرود في البداية، لكن الأمور تغيرت من سيء إلى أسوء إلى أن ضاقت به ذرعاً، وساءت أحواله .

عاد الفطحلُ إلى بلده متصوراً أنّ جيبَه المليء بالدولارات سيجلب له الجاه والاحترام. اتّصلَ بوالدته، قالت له نائحةً في الحال :

- يُمّه الله يخليك ارجعْ لا تبقَ هنا، ما إلك مكان هنا بديرتنا، العراق صعب، الناس هنا مو سهلين، قبل كان عندنا حصار وكنّا فقراء، وصدّام فَرك خشومنا! هسّه تغيرت أحوال الناس، دخل الأميركان وصدّام راح! قبل كم سنة، كان أي واحد يقدر يضحك عليهم، يقشمرهم بورقه وورقتين، مستعدين يقتلون ابوهم ويفجّرون بناية إذا تدفع لهم ورقة، يعني ١٠٠ دونار امريكي! هسّه صاروا يطلبون الملايين!! صار عندنا ألف صدّام! ابني! بعد من يقدر يگحمهم هذول العراقيين، صايرين نار كبره، يمّه! لا تتّصلْ بينا، تَره كلهم انقتلوا بسببك، انتقلنا لغير مكان بسببك، ما نريدك بعد هنا، خلّيك بعيد وسعيد .

وصار الفطحل الإنسان المسالم يبكي ويلقي شعراً :

بصقة إثر بصقه
على البلد العاق!
بصقة على تلك الصفقه!
الكذب والنفاق !
يخيرونك بين الآلام
والنعيم
نحن لها رغم النعاق

في البراري نهيم
بالعناق
وفي الوديان والصحاري نقيم
والبلد المعاق
حتى نقض مضاجع الإرهابي اللئيم !

اتّصلَ الفطحل بأحد محرّري الصحف الجديدة المدعومة من لوردات الحرب والأمريكان، لا يقرأها أحد، قال له:
- عندي قصيده عن الإرهابيين أريدك أن تنشرها .

نُشرتْ القصيدةُ العصماء في اليوم الثاني مع صورته الكبيرة وهو يؤشّر بإصبعه قائلاً:
- لا مكان للإرهابيين في بلاد الموسوپاتاميين!
اخرجوا من بلاد الرافدين!
لكن يا خسارة "ماعمّرت الحاره"، بعدها بأيام وَجَدَ الفطحلُ نفسَه في صريفةٍ وزريبةٍ مليئة بالقاذورات والدواب وجها لوجه مع مجموعة من العتاة أولاد الشوارع السفلة يوجّهون له أقذع الإهانات والازدراءات "أمُّداك! ما تجوز من سوالفك؟! راح تبقى هنا، هذا مكانك، حالك حال الغنم إلى أن تجينا الفلوس .
مَسَكَهُ "الضابط" كما يسمونه، من زيق دشداشته الممزقة المتهدلة هازاً جسده، سقطَ شماغه القذر :
-اسمعْ، انت الظاهر كل شيء ما يفيد وياك، المَرّه السابقه بترنا لسانك، المَرّه الجايّه نقطعه كله ونكسر رجلك وناخذك نجدّي بيك، بس نقتلك؟ لا، مستحيل، لازم نخليك على هالحال الى أن نستلم الفدية، طلبنا 100 ألف

دولار! وإلا نخلي حتى الدواب تن... وياكلك الدود وتموت، يَلّه، قمْ من مكانك، تحركْ !
كان أفراد الحماية يقهقهون بوجوههم القاسية المشوهة قائلين بأصوات عالية كأنهم دمى أو ببغاوات متأرجحة يهزون رؤوسَهم "أحسنت سيدي! عاشت إيدك سيدي!" كلما سنحت لهم الفرصة، لكن سيّدَهم أدار وجهه إليهم، كما يبدو مشمئّزاً صارخا بهم:

- كم مرّه قلت لكم ما تضحكون لما أتكلم؟ بهايم!
- عفواً سيدي! قالوا بصوت واحدٍ
- انصراف! روحوا شوفوا شغلكم! خلّوني أدخّن!

جلسَ زعيمُهم على كرسي متحرك قديم، لكنه لا يزال مريحاً، يبدو أنه من مخلفات "الحواسم" مسروق من مؤسسات الدولة بعد السطو الأمريكاني على العراق، لم يستطع الضابط أن يمنعَ ابتسامةً صغيرةً أن تظهر من بين شاربين منسدلين على شفتيه عندما جاء أفراد حمايته واحداً تلو الآخر يسألونه "سيدي! سيدي! محتاج شيء؟"، أحدُهم قالَ له "سيدي، عفواً ضحكنا شويّه لماكنتَ تتكلم مع هذا الجرو!" أشار لهم بيده أن يغربوا عن وجهه. قرّرَ الضابطُ أن يسترخي قليلاً بعد أن تركوه لوحده حتى غلبه النعاس.

- لَك وين رحت؟ إبن الق... ليش خلّيت الدواب تسرح وحدها، آني كم مره قلت لك ما تتركها! جراب إبن الجراب! يلّه قُمْ !

بهذه الكلمات خاطبَ "الضابطُ" المتسلطُ صاحبَنا الفطحلَ بينما كان زبانيتُه أفرادُ "حمايته" يقفون وراءه بوجوه عابسة يتلفتون يمينا ويسارا. ما كان من الفطحل الا أن نهض قائلا كأنه يتمتم بلسانه الألثغ محاولاً استرضاء عنجهية هذا القائد :

- شمعاً وتاعاً، شَمعاً وتاعاً، شيّدي (يقصد سمعاً وطاعةً)

مَسَكَهُ الضابط هذه المرّة من "خوانيقه" وهو يدفعه إلى الوراء :

- حِسّك، عينك، تروح بعيد من هذا المكان، مفهوم !

وصرخَ به بصوت عالٍ وبكل ما أوتي من قوة بلسان سليط والرذاذ يتطاير من فَمِه:

- يَلّه! فوت منّا! دير بالك عالحلال! وخّر من قدّامي!

- أمرك شيّدي، الله يخليك لا تخنقني، آني إشْشَوّيتْ؟ آني ماقتلت ولا ضربت أحد، والله آني مشكين والله مشكين !

وانهارَ الفطحلُ في البكاء بينما راح "يَهشُّ ويَبشُّ" الدوابَ يركض وراءهم و"حادَهم" نحو الحظيره. وبقي هناك خائفا مذعوراً من نظراتِ الحرّاس يبحلقون فيه ساخرين منه .

أشار "الزعيم" إلى حارسين طويلي القامة أن يأتيا اليه، وراح يهمس بإذنيهما، يبدو أنَّ أحدَهما تَململَ، قالَ له بصوت خافت معاتباً متوسلاً به بخنوع "سيدي والله صعب عليّ، مادَ أقدر، ريحته تعط، ماتقلّي إشلون أسوّي هاي الشغله؟ ". رد عليه الضابط " لَك كلب إبن الكلب،

تريدني أسويلك اجواء شاعريه؟ هذا شغل آني جبتك من الرعيان وسوّيتك حمايتي، بعد شتريد؟ أحسن أرجعك للحلال؟ تريد أخليك تسرح بالغنم؟ كلب!" ردَّ الحارس مطأطأ الرأس:

- أمرك سيدي، اللي تريده يصير .

بدت علائم الارتياح على وجه قائدهم "الضابط"، بينما أمر الحارس الثالث أن يصور كلّ شيء بكامرته الصغيرة .

وجلس حاكمهم الأوحد على أحد الكراسي يدخّنُ سيجارتَه مستمعاً لصراخ الفطحل وتأوهاته وبكائه وأنينه بهستيرية .

كان الفطحل يجلس لوحده يعاني من الجوع حائرا بين تنظيف الدم من ملابسه والقذارة، أرادَ أن يأكل كسرةَ خبز إلا أنّ شهيته كانت مسدودةً، وصار ينحب ويصرخ ويأنُّ باكيا مغمغماً يلفظ الكاف تاءً والقاف دالاً والراء والذال لاماً ومن لايعرف حاله لايفهم من كلامه شيئاً، لكن اللبيب تكفيه الإشارة:

"لِج يُمّه ليش عفتيني؟ وينكم أهلي؟ أهل الحموله؟ مو آني تِنتْ داعد ببولونيا، ليش لِجعتْ ملّه تانيه لهالبلد، هلوله قتالين قتله، مدرمين(محرمين)، تِلهم مدرمينن البولون حكراء والعراقيين مدرمين .

وكان لسان حاله يقول "يا ريت لو أقطع لساني كله وأفقس عيني الثانيه كي ابدو أبكمَ وأعمى، فإلى متى سأتحمل هذه الحياة المُمِلّة، ياليتني أعود الى القرية البولونية وأتصالح مع زوجتي، لكن إشلون؟ إشلون؟ فانا اليوم لا جواز سفر

ولا هويه، منعزل بهذا البستان، لا أعرف مكانه، يقولون إنه في أطراف البصره، وأخدم هؤلاء الساقطين شذاذ الآفاق الذين يهددوني بأن يسلّموني إلى عصابة أخرى أو المجهول، لكنهم يَعِدوني بأن يطلقوا سراحي إذا استلموا الفدية، وبعدين يهرّبوني الى الكويت لكنهم لم يَفوا بوعودهم، "ماكو شيء، لا فدية ولا هم يحزنون، ولهذا "ضباطهم" السَرسَريّة يعاملوني أسوء معامله، أخدمهم بكل شيء لكنهم يشتموني دائما، يارب ماذا أفعل لهم؟" ويردّد بين نفسه مقطعاً من اغنية كانت جدّته ترنّمها، مستوحاة من حكاية قديمة عن "أم صنكور"، امرأة عجوز نرجسية متعالية "شايفه نفسها شوفه"، تعشقُ الدنيا، ذات طموحات ورغبات وأمانٍ وأحلام كبيرة بأن تبقى على قيد الحياة أبد الدهر، كانت تضغط على ابنها صنكور بأن يجد لها مكاناً يعيشون فيه لا يدفنون موتاهم في القبور ! أجل، لم تُرد أم صنكور العجوز أن ترضى بالواقع وأن تكف عن التطلع إلى الأعلى، وأنّ عليها أن تتعايشَ مع فكرة الدفن، وأن يكونَ مصيرُها القبر عندما تحين منيّتها وتنشب أظفارها كبقية الناس العاديين، وطبعًا لا تريد والدته تقبّلَ هذه المصير أو النهاية أبداً، وتهللت أساريرها وفرحت بالمكان الجديد الذي انتقلت إليه مع ابنها حيث سمعوا أن الموتى لا يدفنون فيه كما أخبروهم، إلاّ أن النهاية لم تكن سعيدةً كما هو الحال في الحكايات الشعبية وكما توقعت هي وابنها طيب القلب وصافي النوايا، وأنَّ المطاف انتهى بها عند آكلي لحوم البشر حيث طبخوها بدلاً من دفنها حسب تقاليد سكّان هذه المنطقة الجديدة، عبثاً حاول ابنها صنكور أن يردّهم عن ذلك، لكن سبق

السيف العذل وانتهى الأمر فلا مناص، عندها صار ابنها يردّد متأسفاً باكياً، و الدموعُ تُرقرقُ من عينيه، تسيل منهمرةً "رباع ربا :"

"يا أم صنكور يا أم صنكور
ماردتِ دفن بقبور
أخذي طبخ بقدور !!

أيلول 2009-2006

*تصميم الرسم: الكاتب عدنان المبارك.
**تعليق عدنان المبارك على هذه القصة بعد قراءته لها في موقع "القصة العراقية": "يبدو أن شخصية "الفطحل"رواية لمؤلفها زهير ياسين شليبه ألهمتني فكتبتُ عنه قصةً ضمّنَتها أشعاراً جديدةً من استلهاماته. وسأروي ما تبقّى من مغامرة الفطحل البصراوية وعموما مغامرة عودته الى ربوع الوطن" .

غوني الملاّخ

أشعار فطحلية

الإهداء

إلى أولئك الراقدين في مستشفيات المجانين.
إلى أولئك الذين ماتوا ضحايا أحلامهم.
يا مجانين العالم اتحدوا !

القصيدة الأولـى

عشرون عاماً،
مَرّت كلمح البَصر،
كان شاباً فتيّاً يافعاً صغيراً
يعشقُ الخيار المملّح،
وأنواع المخللات،
والفودكا،
والفتياتِ الريفياتِ،
لم يعرفْ الهزيمةَ مرةً،
لم يخضْ الحربَ مرةً،
كانت أمُّه شابَّةً،
تركتُه يَرحلُ عنها بعيداً بعيداً.

يجوبُ الطرقاتِ،
والمحطاتِ،
والمطاراتِ،
يَرحلُ من مدن صغيرة ضائعة حالمة،
إلى مدن الكوابيس،
فيها العماراتُ والمتاحفُ،
والحبُ والمراقصُ،
والأمطارُ والمعاطفُ،
والمرابعُ الخضراءُ،

يملّ البناياتِ والمواعيدَ والإداراتِ والإشاراتِ،
والفتياتِ وزمنَ القنصِ،
والثلوجَ والملاحفَ،
يَرحلُ إلى الجبال والوديان،
يجتازُ الجزرَ والبحارَ والمحيطاتِ،
يعودُ من مدن جميلة مغلفة بالجليد،
إلى مدن رملية خائبة،
فيها الحرُّ والموتُ والخرابُ،
الخرابُ اليبابُ،
والأسواقُ المحليةُ الشعبيةُ، تَتناثرُ فيها الأوراقُ والقاذوراتُ،
والرجالُ الحفاةُ، والنساءُ الفاطساتُ،
حيث التجّار والفُجّار،
والسماسرة يَعبرون الحدودَ البحريةَ والبريةَ،
يحلفون أغلظَ الأيمانِ وعباراتِ العتابِ،
عن أشياء وهمية،
التاجرُ فاجرٌ حتى يتَفقَّه. **1994**

القصيدة الثانية

تسقط الطائرات،
تتفجر الحافلات،
والقطارات،
لم يبقَ غير الجِمال،
السُيّاح فرحون بها،
والحزن يأكل قلبه،
لهذه العودة،
لهذا العصر . **1992**

القصيدة الثالثة

يَنبهرُ الجميعُ بهؤلاء البيض،
والشقر،
والغيد الحسان،
يركبون الدراجات،
يتحدثون بهدوء المخصيين،
إلا هو،
يرى ما لا يرونه،
يشعر ما لا يشعرونه،
يتكلم عن أمورٍ لا يفقهونها،
يحزن لأشياء لا صنعة لهم بها،
يسمع الأخبار من مصادرها،
ماذا يقول بوش؟
ماذا يقول ميتران؟
ماذا يقول ميجر؟
ماذا يقول غورباتشوف؟
ماذا يقول صدام والملوك والأمراء والرؤساء؟
ماذا يقول الجرس ماذا يقول الجرس؟
احتار لهذا الزحام،
أين يضع نفسه فيه؟
جرّبَ الصمتَ مراتٍ،
جرّبَ الموتَ مراتٍ ومراتٍ.

جرّبَ حباتٍ صغيراتٍ،
كان يأخذها كلما يدق الجرس،
كلما ينشب اليأس أظفاره،
وهل لليأس أظفار؟
هذا غير مهم الآن،
بل المهم هو أن جسده،
كان يئن ويئن،
لكنه كان أقوى،
وكانت سيارة الإسعاف،
أسرع من المنيّة.

1993

من على سطح القمر

شِعر على الطريقة الشمالية

مَحنيُّ الظهر،
يَجلسُ على كنبة في صالة الجلوس المقبرة،
يسمونها الهول أو غرفة الضيوف،
لا بد أنه يشاهد التلفاز،
أُراقِبُه من شبّاكي في ليالي الأرق،
يُنير أضواءَه،
أطفئُ مصابيحي،
ألمحُ رأساً أنثوياً هناك،
لابد أنها امرأة تجلس قربه، على الكنبة الأخرى،
آلاف الكيلو مترات تبعد عنه،
لا تُكلّمُهُ بشيء،
لا تَقولُ له شيئاً،
يَنظرُ إليها نظراتٍ مختلفةً،
يَملُّ التطلعَ إليها،
يضجر من حركاتِها،
يسأمُ من التلفازِ، يَملُّهُ التلفازُ،
أراه يتحرك، ينهضُ كالغول،
كالمارد، المارد الجبار،
يا تُرى إلى أين ذاهب هذا العملاق الغوريللا؟
بعد برهة،
أراه من خلال الشباك الآخر يَفتحُ الثلاجة،

طبعاً يفتح الثلاجة، فماذا عساه يفتح؟
هل تتوقعه سيفتح أشياءً أخرى لا وجود لها؟
هل سيفتح الأندلس مرة أخرى نيابة عن العرب؟
أَم هل سيكتشف أمريكا مرة ثانية نيابة عن كولومبِسْ؟
يقفُ جنب الثلاجة العالية،
رأسه أعلى منها،
متران ونيّف من السنتمترات،
يَرفعُ يَدَهُ،
يا لها من قامة،
يا لها من عضلات،
يأخذ قنينةً صغيرةً،
لا بد أنها قنينة جعّة،
إذن فهو كان فـي التواليت،
قبل أن يأتي إلى المطبخ،
يعود إلى قاعدته،
سالماً،
"سالماً منعماً"،
"سالماً منعماً"،
"موطني، موطني"،
والرأس الخنثوي الأنثوي هناك لا يحرك ساكناً،
أية امرأة جبارة هذه؟
أخيراً تنهض،
كأنها تظهر من عمق البحر،

حورية تظهر من البحر،
تتساقط القطرات على فراش الأرض،
ينظر إليها بعينين...
يغض النظر،
يا إلهي، لِمَ كل هذا الاستفزاز؟
تظهر بِسرعه،
أراها من خلال الشباك الثاني،
لا بد أنها فـي المطبخ،
لكنها لم تفتح الثلاجة،
إلى غرفة نومها دون عودة،
تدخل إلى مخدعها،
والرجل الفحل ينتظر،
يبقى جالساً فـي قاعدته،
يحرّك يدَه اليمنى مرة،
واليسرى مرة أخرى،
ودوائر الدخان لا ألمحها،
ملَّ الرجل جلسته،
نهضَ مرة أخرى،
عسى ولعله يعود بها تلك الجبارة،
فعاد بقنينة الجعّة،
أبى أن يرجع بخُفـي حُنين
منذ خمسة أعوام،
وأنا أراقبُ هذين الجبارين،

المنهارين،
الرافضين السقوط،
يستيقظان فـي السادسة صباحاً،
يسوقان دراجتيهما،
ويعودان فـي السادسة،
يكرران نفس المشاهد كما فـي مأساة يومية شائعة.

1994

رأس الرجاء الصالح

هلوسات اللّيل

جدي مات قبل عشرين عاماً،
مات وأذنه على "هنا لندن"،
أبي في السبعين،
يعشق الموجاتِ القصار،
سقط بوش، كلينتون يهز بذيله،
أين الوعود لأولئك القرود؟
أمي في الستين، تنتظر وتنتظر،
التحليلاتِ وملفاتِ الأخبار،
وسقوط الجبار،
أُختي فوق الأربعين،
ابنها يناديني في الهاتف"خالو"،
صارَ عليَّ أن أعرف هذه النبرة،
والأخرى صارت أمّاً لولدين،
وأصغرهن مطلّقة لاثنين،
لن تفلت هذه المَرَّة،
أبي يَقلقُ ويَقلقُ،
وأنا لَقلَق!
أمي تبحثُ وتبحثُ،
ماذا يريد هذان العجوزان؟
جدّتي ما زالت تَحتَضرُ وتَحتَضرُ،
أبي يأكل بِسرعه، بِسرعه عجيبة،

يأكل ويتحدث: اليوم التقى أحد أصدقائه وأخذه بالأحضان ووو
يأكل بِنَهم، يا إلهي أي نهم ذلك؟
لستُ بأحسن منه، كلنا سبحنا فـي النهرين الطافحين،
وشربنا من مياههما.
والأوروبيات الجميلات، والأوروبيون الجميلون يشربون بهدوء،
يتناولون سندويجاتهم وجباتٍ غذائيةً كاملةً،
أين طناجرك يا أختي؟ أين قدورك يا أمي؟
هلاّ عرضتموها فـي معرض الصناعة الثقيلة الدولي؟

جزيرة الواق واق،

ليلة 28-2-1993

عباس المستعجل

أنتَ تأكلُ بعجلةٍ، مُسرعٌ دوماً، تُحب بعجلةٍ، تَهربُ بعجلةٍ،
أنتَ عجلةٌ، أنتَ إطارٌ منفوخٌ، إطارٌ دراجةٍ، دراجةٍ مكسورةٍ،
مكسورة من شدة الريح، ريح الشمال،
تَسخرُ بسُرعةٍ، تَستنتجُ بِسرعه،
تَستَنسخُ بسُرعةٍ، تَعملُ الواجبَ بِسرعة،
تقضي حاجتَك بسُرعة،
طول عمرك مسرِع، تعمل كل شيء بسُرعةٍ،
تَنسى كلَّ شيء بسُرعةٍ، تَنسى الأماناتِ،

وتنسى أيضاً: "المستعجل يُضحّكُ حتى الدَجاجَ"! هل رأيت دجاجةً تضحك؟ نعم! أعرفُ أنك سمعتَ بالبقرة الضاحكة، لكنك لم تفهم الدجاجة الضاحكة بعد. ألَمْ ترَ الدجاجَ يسخر منك؟ ها؟ لَمْ تسمع بهذا المثل؟

إذن، إليك مثلاً آخر، أقوى منه لكنه قبيح وأخشى أن تتهمني بالسوقية: المستعجل يتغوط مرتين، على أية حال إليك إياه مترجماً إلى الفصحى:"المستعجل يقضي حاجتَه مرتين"، ومع ذلك انزعجتَ من هذا التعبيرأو بالأحرى المثل العراقي الشعبي؟ لكنه مهم لمعرفة العراقيين! تعتبرني غير مؤدب أو مهذّب، أليس كذلك؟ هل تريدني أن أقول على طريقة الحداثة: المسرِع يدخل الدبليوسي مرتين!؟ ولكن هل يغيّر هذا الأسلوب الجديد من حقيقتك وجوهرك الجهنمي العجائبي الغرائبي، ألم تقله أكثرمن مرةٍ على مائدة الطعام بحضور الضيوف؟

هكذا أنت، دائماً تتحدث بكل صلافة عندما يحرجك الآخرون ويواجهونك بالقضايا الجدية أو بفظائعك.

ولكن، دعني أقول لك على أية حال كلمةَ شرف:

إن ما يشفع لك ليس كونك أفضل ولا أقوى أو أصلح منهم، بل وهنا الطامة الكبرى، إنهم ليسوا بأحسن ولا أقوى منك، وقوّتك الهشّه فـــي ضعفهم، هذا إذا كان لك حقّاً قوة، فأنت "فاشوشي"

والآخر هاشوشي وكلا الأخوين ضَرّاط.

جزيرة الواق واق 1990

مقطع غير جدي من رسالة جدية للغاية

المهم لدي، يا عزيزي، أن أحلم،
المهم يا أبو العلم والفهم أن أعلم،
"أتعلم أم أنت لا تعلم، بأن جراح الضحايا فم"،
وليس المهم تاريخ النشر،
ولا تاريخ البشر،
بل المهم عندي الآن، "الآن الآن وليس غداً"،
"أجراس العودة فلتقرع، أنا لا أنساك فلسطين"،
وهل هناك من ينسى رقم هاتفه الشخصي؟
ويقول لك: أعطني رقم هاتفك،
سأتصل بك خصيصاً لأعطيك رقم هاتفي!
منقار،
ينقر صلعة السبّاح في عمق البحر،
نقرة، نقرتين،
لن يبالي،
يغطس، يغوص في عمق الماء
غطسة، غطستين،
نقرة، نقرتين،
تطير العنقاء،
يطير النسر،
يحط من جديد على الصلعة،
الغطاس لا يبالي،

أين المنقار؟
يا إلهي ما أمتع تلك النقرات!
أبهى ما فـي تلك الحياة أن تُنقر صلعتك أيها الغواص،
فتشم رائحة الدنيا،
والديمومة ومياه البحر.

شمال شرقي جزر المريخ 1994

نرمين والبنفسج *

إلى نرمين،
هل تبكين حزنك؟
هل مِنْ عودةٍ إلى زمان ِالوصل
فيه فرحة الروح
الطائر المهاجر
فـي الصباح
تحت الغيوم
هل سيبقى يُراقِبُ حزنَها من بعيد؟
وأنتِ هل ستبقين صامتة وحزينة؟
يا
ن
ر
م
ي ن ن ن ن ن

جزر القمر 1993

(*) هذه قصيدة حقيقية لـ"الفطحل" الحقيقي. عدنان المبارك.

التفاحة والرأس

أنا تفاحةٌ،
سَقَطْ
تُ،
على رأسه،
هل يَتألّمُ الرأسُ،
مِنّي؟
هل تتألم التفاحة،
من رأسه، أم يتألم رأسه منها
يا لها من أشياء جميلة،
تلك البذور المتناثرة،
على الأرض،
هل تلتقطينها،
تعالي وانهمري،
اخلطيها مع الماء،
وخذيها جرعةً واحدةً،
ساعتها ستغادرين القوم،
صاعدة نحو السماء،
ستُحسَدين على هذا التحليق،
ورجفاته.

جزر المريخ 1992

النازحُ

أنتَ النازحُ،
كم كنتَ متفهماً أنتَ أنا،
وجمعتَ أشياءَك الكبيرةَ والصغيرةَ،
أحصيتها واحدةً واحدةً،
حتى الألف،
لم تقصمْ ظهرَك حاجاتُك،
غير تلك الخفيفة،
إنها القشةُ،
التي قصمت ظهرك.

كل الجزر الفيليبينية 1991

من رسالة ملخبطة أو مخلبطة أو مخربطة أو مخربقة إلـى صديق حميم

إلى صديقي الصحفي أحمد البوسطة أبو فهد

وهل هناك يا عزيزي أجمل من بياضات المغرب،
والدار البيضاء،
والأندلس،
والملاّيات،
والجلاّبيات والفوقيّات والبَرَانِص،
والحمّامات وروائح الأفران والخبز،
والماشيات الهُوَينا،
يا أبا الفهود كالغزلان،
ونحن كنا نحتقن بالتاريخ،
ونحقنه،
علنا نهزم الملح فـي العيون،
وهل هناك "بطران"،
يحلم فـي "دِيايامات" المادية الديالكتيكية،
و"إيستمات" المادية التاريخية،
فـي ثلوج أذابتها الدموع المالحة،
وهل هناك أسخف،
من هذه السخافات والتفاهات،
ونقول عنها،

علوم الفلسفة،
ذابت فينا، وذبنا فيها،
رمزية الشعر هذه،
نكررها، وتكررنا،
كما كنا صغاراً نلهو فـي الحمّامات،
والأنهارِ والجداولِ حيث كان آباؤنا يخافون علينا من الرجال الكبار،
لكن،
قد يسقط البندول،
على رأسي يا أبا الفهود،
وأدخل الغيبوبة الجميلة وأذكر مقهى المعقّدين،
والروضةَ، والجَندولَ،
ومقهى الســـلام، والبنايةَ العاليةَ الجديدةَ على شـــارع أبو نؤاس، المزيّتةُ زجاجاتُ نوافذها، لم يســـكنها أحدٌ بعد، ولم يمر منها أحد بعد غير أولئك الحالمين "المارقين" من ذوي الشعور الطويلة والسراويل الكاوبوي القذرة، كلّهم أربع عيون وعدسـات مقعّرة وكراسـات وكتب وأوراق مسـتنسـخة من كتب ثمينة بالنسـبة إليهم، لم يسـأل عنها أحد سواهم،
والمصورين المخبرين والدجالين، والمنافقين،
والمتهورين والمزاودين،
والمعتوهين،
والمتطرفين،
اليمينيين واليساريين، واليمساريين
والفأس يقع بالرأس،

يموت مضرجاً،
مضرجاً بدماء العيون،
لن أزعجك كثيراً،
بشِعر بلا جنيّات،
وقلبٍ محروق الجنبات،
وطفلة صغيرة،
عمرها خمس سنوات،
تعذّبُ أباها،
منذ خمس ساعات،
أُكتبْ لي يا بابا رسالات،
إلى عمّي والجدات،
وكان كلامها كله بالآت،
وهل هناك أجمل،
مِن شَعر امرأة حنطاوية،
ومِن شِعرصعلوك،
يدّعي الحداثة،
ويشتكي عصفورة صغيرة،
عذبته فـي خمس سنوات،
وخمسَ ساعاتٍ،
ويدّعي ويدّعي الحداثة وأشياء كثيرة،
أين الجواهري منه؟
أين البردوني منه؟
أين أدونيس، أين أنسي الحاج ولا توفيق صايغ،

كل هذا يحدث قبل الطاسة الأولى،
أو الكأس الأول كما يحلو له،
ويغني بعد طاستين،
ولا خوف عليه من ثلاث طاسات.
حافظ عليها يا أبا الفهود،
هذه الرسالة العظيمة،
فقد يأتيك نوبل بعينه،
قد ينهض من لحده،
ويسأل عن الحنطاوية،
اهتم بها أيها الصديق الغالي،
فقد يشتاق الرجل إلى شَعرها،
وإلى شِعرها،
وإلى بابل،
صُنْها فقد يسأل عن الصعلوك البابلي العنود،
يوم خرّفها قصيدةً جهنميةً،
أعتذرُ يا صاحبي على هذا الغيض من الفيض،
و"طِيحان الحظ"،

فـــــي عالم قطع فيه أحد الطيبين الحالمين رقبته بسِكّين حادة، أحدّ من ســكاكين الجزارين المشــهورين، كان ذلك قبل يومين، قطع رقبته الطويلة بنفسه وسقط الرأس فـــي براغ التي لم يبقَ فيها شيء دون أن يُشترى أو يُباع.

فأين أنت يا أنكيدو؟
أين أنت يا جلجامش؟

وأين بلادك الجميلة؟
وعاهراتها الطيبات؟
وغيرهن من غير الطاهرات المنافقات والأفاقات؟
وأين الخصب واللزوجة؟
هل ضاعتْ كلها فـي الرمال؟
أم أكلتها الأسماك؟ والحيتان؟
أم جرفتها البحار بعيداً إلى هناك حيث الرمال الذهبية؟
أنقِذْها بالله عليك يا صاحبي،
قد تكون هدية لأنكيدو،
قد يفرح بها عندما يخرج من قبره يوماً ما،
أو لنوبل،
أو لزبانيته، أو
للصعلوك،
أو للحالم السرحان، الشاعر الولهان،
ينافس الفطحل بشعره،
وبأشياءَ أخرى كثيرة
وقليلة
كبيرة
وصغيرة، يكتب الأشعار تِلو الأشعار
تَلويه القصيدة ولا يلويها، فما عساه يفعل؟
قد تطمئنه هديتك عندما تصبح ورقةً صفراءَ،
سيظنها مخطوطةً تتجاوز قيمتُها الأسعار،
وَقَدْ يكفُّ عن اللعب بالنار،

والعبث بالأشعار،
عسى أن يبقى شيء فـي هذا العالم
فيه طُهرٌ وعبادة،
قد ينتهي الكذبُ والبغاءُ؟
والظلمُ
وهذا الجاثم على صدور الملايين؟!

جزر المشتري 1994

إلى الأستاذ الهندي القلق سودانشو "عن قصة الخلق"*

بيضةٌ تُكسر
منقارٌ وردي...
دفءٌ جديد...
رائحةٌ نورانيةٌ،
لستُ شاعراً ولكني أحببتُ الرسمَ والتصويرَ،
هل لكل ذلك معنى؟
هل من معنى لكل ذلك ما دمنا نمارس الحزن؟

على الأقل أن صديقنا الطيب كُنُوذْ السكيّر المجنون المختفي خلف لحيته القذرة، قد اكتشفَ مؤخراً، بعد نصف قرن من الوجود والعيش في غرفة وسط أقذر الأشياء، بأن لحياته معنى، فهو يصلح أن يكون مثالاً سلبياً يجب أن تتجنب الأجيال القادمة هفواته ونزواته وصعلكته.

أمله الآن بعد خمسين سنة من مرارة الحياة ألا يُحتذى به من قِبَل الشباب أو يكرّره أحد ويبقى هو شخصيةً فريدةً من نوعها في البؤس والفوضى فقد يحوز على جائزة نوبل للفوضى.

أما المعلم الهندي الملتحي فهو يقيم في بلاد يخاف أهلها الذقون السوداء، ولا يثقون بعلومهم ومع ذلك فقد علّمهم أشياءَ كثيرةً، مثل الكتابة عن الخلق وخروج المنقار من البيضة المتكسرة وشمّ رائحة الحياة ومضار غلاف زجاجة النبيذ الأحمر، إذن فهذا الصداع الذي يعاني منه المدمنون في الصباح ليس بِسَبَبِ النبيذ حقّاً.

يقول كُنُوذْ المدمن والمريض نفسياً سابقاً والمجنون عمداً ومع سبق الإصرار حالياً ولاحقًا، بأنه جميل أن تعرف بأنك تعاني من الصداع!

(*) سودانشو أستاذ جامعي وكاتب هندي عَمَلَ محاضرًا زائرًا في الدول الإسكندنافية.

على الأقل أنك ســـتُقنعُ نفسَـــك بأنك تعرف شـــيئاً! عن هذا العالم المنتهي لا محالة.

هذا إذا كانت المعرفة بحد ذاتها بهجة ولا تزال فعلاً تعني شـــيئاً بالنسبة لسكان هذا العصر.

.....

ويقول كنوذ المهووس أيضـــاً بأنه نفســـه عانى ولا يزال يعاني من آلام الرأس الدائمي ولم يشعر به ولم يعلم بأن ما كان وما سيبقى يعاني منه هو الصداع نفسه.

كان يتصور الصداع أمراً آخر،

ويكرر كنوذ بأنه كان ولا يزال يعتقد أن قلبه يقع فـــي الجهة اليمنى وليس اليسرى، يبرر ذلك بأنه رغم إحساساته المرهفة بالأشياء إلا أنه لم يشعر بوجود قلبه فـي الجهة اليسرى،

يبرّرُ كنوذ ذلك بأنه قد يكون حصـــــل لتعاطفه مع الطبقة العاملة والمدمنين الطيبين،

كنوذ أسطورة،

كنوذ قصيدة شعر ملحمية فريدة من نوعها.

لامثيل لها، هذا ما قاله عنه أحد معارفه فـي إحدى المرات،

سأله مندهشاً لماذا؟ ثم قهقه ضحكته المعهودة الطويلة والتي غالباً ما تنتهي بضيق تنفسه أو اختناقه بدخان سيجارةٍ لا تفارقه أبداً.

يخرج منقار الكتكوت من البيضة،

أمي كانت تجلس وتصب الشاي والدي يتابعها وينظر،

إلى تقاطيع وجهها متحسراً،

ألا ليت الشباب يعود يوماً،

تسقط تفاحةٌ على رأسي،

تسقط تفاحة أخرى،
فـي هذه المرة ليس على رأسي،
بل على يد أمي،
تكسر أقداح الشاي الجميلة فتصرخ،
يدق جرس البيت، منقار، تفاحة، أمي، أبي،
أفيقُ يا وفيق من حلمٍ موفّقٍ قد يصلح مادةً لموضوع كتابةٍ جميلةٍ.

إلى سودانشو مرةً أخرى وطالِبَتِه وِينِي السويدية التي تكبر أمه بعشرة أعوام وتبدو أصغر منها بعشرين !

قصيدةٌ بالأسوَد،
أُخرى بالأحمر،
وِينِي السويدية تحضرُ حفلةَ الوداع،
طفلة فرحة بالخيوط،
والشفافيات،
كنوذ الاشتراكي السابق المحطم لم ينسَ فلسفته،
الأستاذ الهندي سودانشو يتوسل،
كُورْتْ النرويجي المعوّق مشغولٌ بنظرياتِه وأسئلته الرهيبة،
كَيْفن الأمريكي الضال،
كْرَيْزي كعادته،
طلبوا من كورت المعتوه،
أن يكتب عن كَيْفِن ومن الأفضـــل له أن يكتبَ عن كُورت، ذلك المتظاهر بالبلاهة والبلادة والأمراض النفســـية كما تظن كارولين الزنجية الامريكية.
مَنْ يكتب عمَّنْ؟
"عصفور كَفَل زرزور واثنينهم طيارة"،
بالأحمر زوّقناك،
بالأخضر لوّناك،
بالأصفر زيّناك، يا ليتكَ لو تعرف العربية يا كورت،

يا ليتكِ لو تقرئين التوراة والإنجيل والقرآن يا وِيني،
فقد تكتبين لِسودانشو الطيب،
عن قصة الخلق وخيوطك الذهبية والفضية والمشعة الألوان،
يحلم كنوذ المريض المزمن بها ويحلم كُوُرْتْ أيضاً،
يسقط الخيط الأول وينقطع الآخر،
كْنُوُذْ عصبي المزاج في مثل هذه الحالات،
يكسر الروح والمرمر والآجر،
على عكسك يا وِيني فأنت تحلمين بهدوء،
أنتِ تحلمين ولا تحملين، أنت السيدة الأولى،
سيدة العالم وملكة زمانك والجزر الشمالية،
ملكة إسكندنافيا، والعالم بين راحتي يديك،
تسافرين حيث تشائين وتمارسين ما تريدين،
تسافرين إلى الكيبوتيزات في إسرائيل والمخيمات في لبنان،
في اليونان تتزوجين يونانياً وفي الهند هندياً،
تتزوجين عربياً أصغر من حفيدك،
تشترين لأمه الفقيرة غسّالة ملابسٍ،
تتحدثين عن بؤسها بصدق،
لن تغسل الملابسَ بيديها،
ستذكرك بالخير كلما تغسل وجبات الملابسَ،
سيصيبك الأجر والثواب عند الله،
تشترين لأخوته الصغار حلويات ولُعَباً،
لأبيه أكثر وأكثر، ويسكي وتبغاً أصفر،
يتحول الرجال إلى لُعَبٍ،

تدفعين نقداً، بالأقســـاط، لا يهم ذلك ما دمت تقترضـــين لتقرضـــي الجياع،

تموتين وتبقى ديونك من بعدك،

من سيدفع عنك الأقساط، ومن سيستلم ديونك؟

هذا ما لم أفكر به حتى الآن،

والعمر...العمر كلّه،

لا تبالين له،

مرات ومرات ومرات تجربين،

الجمر والبرد وتنافسين الحلو والمُرَّ،

والبحر والبَرَّ،

فهل تقنعين يا مدلّلَة الأروقة والمحافل.

شمال شرقي عطارد 1994

الشاعر العربي الكبير غوني الملاخ في سطور

وُلد الشاعر الشاب غوني الملاخ صدفةً في قرية من قرى الجنوب وتلقى تعليمه في قرى الشمال متنقلاً بين الشرق والغرب حتى أنهى دراسته الإبداعية وليس التقليدية.

يُقال إن اسمه الحقيقي طايع وتغيّر فيما بعد إلى طايح إلا أنه نشر ملاحمه بأسماء مستعارة كثيرة ليس جرّاء التنكر كما يتوقع بعضهم، بل لعشقه الحرية ورغبته في الانصهار بالموضوع الفني للعمل الأدبي. معلوم!

أما اسمه الحالي: غوني الملاخ فإن اختياره يعود إلى الجماهير، رغبت في أن "تدلعه"، حوّرتْ اسمه المستعار روني إلى غوني. أما الملاخ فهو لقب أطلقه عليه الناس أيضاً، حيث كان الناس يقولون عنه يملخ الشعر لا ينظمه وكانوا يدعونه الملاخ سخرية، فما كان منه إلا أن يفاجئَهم باستخدامه هذا الاسم واللقب علناً نزولاً عند رغبتهم.

عُرف منذ نعومة أظفاره بحبه للحرية وملخ الشعر وبدأ النشر مبكراً ناهلاً من خياله الخصب وتراث الحداثة أجملَ الصور وأروعها رافضًا الأساليب التقليدية البالية.

انشغلَ بالأدب وتعبد في محرابه غير مبالٍ بالتعليم المنهجي السقيم، الذي لا يغني ولا يسمن.

نشر عشرين ديواناً وعشرين مجموعة قصصية، وقام بترجمة قصائد عديدة من عشرين لغة حية وميتة وعتيدة لشعراء لا يُعدّون بعدد أصابع اليدين والقدمين.

أعدَّ سيناريوهات العديد بل العديد والعديد وأكثر من العديد من الأفلام المسرحية والتمثيليات السينمائية، وكتب الأغاني والأماني بالعربي والهندي والروماني ويعمل على دمج لغات الهوسا بالفلاني

غير مبالٍ بالزمان والمكان. هيك بالعانِي (يعني عن قصد).

دُعي الشـاعر الفطحلُ إلى أمسـيات أدبيةٍ كثيرةٍ أقامتها جمعيات مختلفه فـــي الشرق والغرب والشمال والجنوب، فـــي سيبيريا والتبت والهاواي وجزيرة الواق واق وبروناي وطبعاً مونت كارلو، وكل جزر العالم وقد حاز على جوائز عديدة يرفض الإعلان عنها شعورًا منه بالتواضع.

ونكتفـي هنا بهذه الكلمات فـي الحديث عن حياته نزولاً عند رغبته لتواضـعه وتصـوفه وزهده ورفضـه الدعاية لأدبه، فتصـوّر أنه يكتب ويتكوّر بوجهٍ منوّر فـي عالم مبعثر ومدوّر!

الناشر

الدكتور زهير ياسين شليبة

- حائز على جائزة الثقافة لعام 2002 في مدينة روسكيلدة الدَنمركية.
- ولد في العراق عام 1954، درس في مدارس بغداد والجامعة المستنصرية ولم ينهِها.
- سافر إلى الاتحاد السوفييتي لغرض الدراسة.
- درس الإعلام والآدابَ في روسيا ونال شهادتي الماجستير في الإعلام والأدب عام 1980.
- حصل عام 1984 على الدكتوراه في الأدب الحديث من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية في موسكو.
- عمل باحثاً وأستاذاً جامعياً بعد تخرجه مباشرة.
- درس الترجمة دراسة أكاديمية جامعية في كلية التجارة كوبنهاجن ونال شهادة الترجمة الأكاديمية.
- درس أساليب العمل الاجتماعي والتربوي في المدرسة العليا للعمل الاجتماعي في كوبنهاجن.
- حصل على شهادة مدرس لغة دَنمَركية للمغتربين.
- عمل مستشاراً في بلدية روسكيلده لأكثر من عقدين فضلاً عن الترجمة من الدنمركية والروسية والكتابة والبحث في مجال الرواية.

*** صدر للكاتب:**

- غائب طعمه فرمان. دراســة نقدية مقارنة عن الرواية العراقية، دار الكنوز الأدبية، 1996.
- مختارات من الشعر الدَنمَركي، دار شرق – غرب، 2000
- ميخائيل باختين ودراسات أخرى عن الرواية، 2001
- كوابيس المنفى. مجموعة قصــص قصــيرة. مركز الحضــارة العربية، القاهرة 2004
- أنطولوجيا الشـعر الدَنمَركي الحديث، مركز الحضـارة العربية، القاهرة 2004
- الفطحل. محاكاة وقصــص ســاخرة. مركز الحضــارة العربية، القاهرة 2009
- في الأدب العربي. دراسات وحوارات في التنويرية، دار الأنام، بيروت 2025
- جودليّه. رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول. سردية عابرة للأجناس، مركز الحضارة العربية، القاهره 2025

قالوا عن كتاب الفطحل:

خبر عن إصدار الفطحل للدكتور زهير ياسين شليبه

صدر عن مركز الحضارة العربية في القاهرة كتاب "الفطحل" محاكاة ساخرة ونصوص مفتوحة للدكتور زهير ياسين شليبه.

والدكتور زهير ياسين شليبه باحثٌ أكاديمي في الرواية العراقية ومترجم يقيم في الدنمرك وسبق له وأن اصدر عدة كتب مثل كتابه عن الروائي العراقي الراحل **غائب طعمه فرمان** ومجموعته القصصية "كوابيس المنفى" وترجم أول وأكبر انطولوجيا الشعر الدنمركي الحديث، إضافة إلى كتابه عن ميخائيل باختين.

سردية "الفطحل" الساخرة تقع بين الرواية والمحاكاة، تدور أحداثها في أوساط العراقيين المقيمين في الخارج منذ السبعينات حتى احتلال العراق من قبل الأميركان.

وقد كتب الروائي العراقي الراحل **فؤاد التكرلي** عنها " يجب أن أعترف لك بأنك تملك قدرة حقيقية على السخرية والتهكّم بِنَفَس عراقي صميم لم أواجهه مع أي كاتب آخر.

إنها سخرية "مطلقة"، إذا أمكن أن نسميها، لأنها لا تترك أحداً ولا تقف عند حد، ولقد ضحكتُ بصوتٍ عالٍ وأنا أقرأ بعض الفقرات التي لن يفهم دلالتها إلا العراقي".

وقال عنها الكاتب والروائي العراقي المعروف **عدنان المبارك** " يقوم زهير شليبة بخلطٍ عجيب للحقيقة بالاختلاق فيما يخص سيرة الفطحل. أكيد أن لكلمتي الحقيقة والاختلاق ثقلهما النوعي أي التأريخي قبل كل شيء، لكن خارج الفن عامة والروائي

خاصة. فالكاتب يفعل كما الراوية حامل الربابة الذي يزيّن صورة بطله بشتى الإضافات: برواز شعري، مقرنصات بلاغية إلخ، بل يقودنا المؤلف بنفسه إلى شتى التخيّلات التي تحتمل أكثر من تفسير واحد.

إن زهير ياسين شليبة مسلح هنا ليس بالمروّيات العربية القديمة فحسب بل الأخرى كالروسية والفرنسية والإنكليزية خاصة. وهناك ملامح تلمس باليد، في فطحله، من أولئك الأبطال التشيخوفيين والغوغوليين والرابيليين والفولتيريين والديدروبين وغيرهم. ولا أجدني مبالغاً إذا قلت بأني عثرت على لمحة هنا وهناك في الفطحل مستعارة من رجال إليوت الجوف".

وقال عنه الروائي المغربي **إسماعيل غزالي**:
"فمن جهة يبدو زهير شليبة كساخر كبير (سخرية قائمة على المزج الحاذق بين علم الاجتماع وعلم النفس)، يرصد العالم من زاوية حادة مندلعا بالقهقهات التي تفخخ متن الكتاب من أوله حتى آخره. ومن جهة ثانية يتمرأى ناقدا للشعر وهو يتوجه بخطاب انتقادي مضمر وجسور، معريا زيف الحداثة وانحطاط الذائقة.
وعبر الجهتين معا ينجح زهير شليبة في روايته بصنع كوميديا الهوائيين، موجها حزمة ضوئه الكاشف إلى منطقة البهلوانيين في مسرح اليومي، وفاضحا بكل أصالة جسورة وبسالة مرحة للصخب الأجوف الذي يعكر به الفطاحلة مزاج العصر".

وقال **الأستاذ الجامعي الدكتور عمر ظاهر** عن الفطحل " اهنئك على هذا العمل الذي اعتبره وثائقيا، بمعنى أنه يوثق للهجة شعب في مرحلة من تاريخه. واتمنى عليك ثلنيا أن تجمع التعابير الشعبية التي اوردتها، وهي جامعه وشامله ...".

وقالت **الشاعرة رُلى اللحام** كلما أقرأ للدكتور زهير ياسين شليبه يلفت انتباهي مابين السطور حيث هناك شيء يجذبني

ويدعوني للتفكير بتأنٍ لمعرفة اســـرار المفردات وتلميحاته. وفي كل مرة أقرأ مقطعا أفاجيء بمفردات معينة تجعلني ابتســـم او اضـــحك واشـــعر بالتعلق بقراءة القصـــة والرغبة في انهائها. لغة هزلية وجدية في الوقت نفســـه تأخذ القاريء الى اعماق الواقع. العامية العراقيه تصـــبح مفهومة رغم الصـــعوبة بعض المرات، وفي احيان اخرى اقارنها بمرادفاتها باللهجة الفلسطينية او الشامية عموما.

وقال **الأستاذ جمال جودة** "هناك الكثير من الأعمال الأدبية التي تتناول شخصية تبدو فردية بمعنى أنها لا تشكل ظاهرة عامة لكنها بعد إمعان النظر فيها تبدو "عامة" أيضا مثل "الأبله" و"المقامر" لدوستويفسكي و"دون كيشوتي" لسيرفانتيس الخ. لاحظ هنا استعمال الصفات بدلا من الأسماء المحددة الفردية أو أسماء العلم في العناوين أعلاه كما هو الحال في "الفطحل"، ويبدو أن اختيار المؤلف لمفهوم "المحاكاة parody" كتصنيف أدبي لكتابه مصدره مثل هذا الاعتبار".

وقال عن الفطحل أحد أهم قراء الدكتور زهير ياســـين شـــليبه **الأستاذ المهندس شيركو أحمد** ســـامي المفتي " لقد عرّى فطحلك بعض الأفراد من قشورهم وأظهرهم على حقيقتهم بطريقة ساخرة رابطا بخيط رفيع بين قفشـــات وتخيلات الفطحل وزهوه وتلك اللمحات الإنسـانية في داخله وما حوله. هذه الرواية كتبت لإنسـان مثقف واســـع المخيلة واعتقد ســـيأتي يوم تؤخذ بالدراســـة والنقد وستحتل مكانها اللائق في الأدب العراقي المغترب".

عدنان المبارك

قراءة في رواية "الفطحل" لمؤلفها زهير ياسين شليبة

رصد ساخر لنموذج بشري دائم

تذكرنا رواية "الفطحل" لزهير ياسين شليبة بالسِيَر القديمة. لا يشرك المؤلف هنا مع صوت السخرية أيَّ صوت آخر في روايته. ولا أظنها سخرية تقليدية، فثمة تعاطف خفي، رغم كل المواقف التي يتخذها المؤلف من بطله. ويخال إليَّ أن زهير شليبة يروي حياة بطله على الطريقة الشعبية: بمرافقة الربابة واللهجة العراقية.

قَسّمَ الراوي مرويته إلى فصول لا تجمعها أيٌّ من أدوات الرواية التقليدية لكن ظاهرياً فحسب. فثمة خيط متين، رغم دقته، يمسك بكل ما حدث لهذا البطل. ولا أظن أنه، أي الكاتب، قد عنوَن عن طريق المصادفة، فصولَ الرواية وأعطاها مثل هذا التسلسل الذي يذكرنا بأبرز الأعمال الأدبية المكرسة لمثل هذا النموذج البشري. فالفصول اعتمدت، بشكلٍ بيّن، على تقنية الفلاش باك.

يقوم زهير شليبة بخلطٍ عجيب للحقيقة بالاختلاق فيما يخص سيرة الفطحل. أكيد أن لكلمتي الحقيقة والاختلاق ثقلهما النوعي أي التأريخي قبل كل شيء، لكن خارج الفن عامة والروائي خاصة. فالكاتب يفعل كما الراوية حامل الربابة الذي يزّين صورة بطله بشتى الإضافات: برواز شعري، مقرنصات بلاغية إلخ، بل يقودنا المؤلف بنفسه إلى شتى التخيّلات التي تحتمل أكثر من تفسير واحد.

إن زهير شليبة مسلح هنا ليس بالمروّيات العربية القديمة فحسب بل الأخرى كالروسية والفرنسية والإنكليزية خاصة. وهناك ملامح تلمس باليد، في فطحله، من أولئك الأبطال التشيخوفيين والغوغوليين والرابيليين والفولتيريين والديدرويين وغيرهم. ولا أجدني مبالغاً إذا قلت بأني عثرت على لمحة هنا وهناك في الفطحل مستعارة من رجال الجوف لإليوت. وعليَّ أن

أستدرك هنا: نحن لا نعثر، بالطبع، لدى فطحل زهير شليبة على ذات النسغ الفلسفي الإليوتي. ف "فطحله" مثال تقليدي لشتى الأنوات التي يعرفها كل مجتمع يعاني من صعود وهبوط مفاجئين، أي محرومين من الإيقاع والوتيرة، في بارومتر الحضارة المادية.

وقبل كل شيء يكون الفطحل عينة مخيفة لنبتة خرجت من أرض يصعب تحديد موقعها، فهي في تنقل شبه أبدي بين قحولةٍ ومشروع نماءٍ. وفي الحقيقة لا يمثل بطل زهير شليبة أيَّ فئة اجتماعية محددة. فالمؤلف تعمد تعليقه في فراغات عدة وليس في فراغ واحد.

أعودُ إلى رجال إليوت الذي جعل منهم نموذجاً شمولياً لإنسان هذا العصر الذي روّضت مشاعره وتلافيف مخه أقانيم هذه الحضارة المادية. فإليوت الذي صار كاثوليكيّاً وتقبّلَ الكثيرَ من دوغماها، وجد أن القدح المعلى في حضارتنا ل"الفطاحلة" الذين هم ليسوا بحاجة إلى إيمان وأيّ كان. وكما قلت فـ"الفطحل" يحشر نفسه وبحركات بالغة الطبيعية بين رجال إليوت خاصةً أنه مثلهم لا يعرف الابتسام:

نحن الرجال الجوف
نحن الرجال المحشوين
يتّكئ أحدنا على الآخر
الرؤوس حُشيت بالقش، وا حسرتاه!
أصواتنا التي جُفّت
حين نهمس لبعضنا بعضاً،
هادئة و بلا معنى
كالريح على غصنٍ يابِس
أو قائمة جرذي على هشيم زجاج

فـي قبونا الجاف. (الأبيات من ترجمتي).

بالطبع لا يمكن إطالة "فطحل" زهير شليبة ولا تضخيمه كي يصبح رمزاً يتخطى حدودَ محليته، أي على العكس من رجال إليوت (الشاملين). وقد تبدو المقارنة بين الفطحل ورجال إليوت قسرية أو مفتعلةً لكن حجتي هنا تشابك جذور كل الظواهر فـي عصرنا بشكلٍ خاص (ربما كان الكاتب قد قرأ إليوت) ومن ثم عثر رجاله الجوف على حيّزٍ ما فـي لا وعيه). ومرة قرأتُ كتاباً عن إليوت بَحَثَ مؤلفه عن منحدر عنوان قصيدة إليوت الشهيرة هذه. وظاهريّاً يبدو هذا موضوعاً آخر لكن ليس تماماً. فلقد جرى البحث عن أصل "الرجال الجوف" وتبين أن من المحتمل أن يكون للعنوان ثلاثة أصول: مقال وليم موريس W. Morris بالعنوان نفسه، وقصيدة لروديارد كيبلينغ R. Kipling بعنوان The Broken Men

أو من "يوليوس قيصر" لشكسبير الذي استخدم النعت نفسه فـي مسرحيته هذه. وفـي الحقيقة توائم الأوصاف الشكسبيرية الأخرى الإليوتية. فشكسبير يقول:

الرجال الجوف

هم مثل الخيل الناري فـي الظاهر:

مظهر رائع

يعلن عن النار.

لكن أعطها مهمازاً،

سترى كيف

يسقط هذا الحيوان

مثل حصانٍ عجوز. (هذه ترجمتي أيضاً).

لا أظن أن تأثيرات مباشرة فـي تكوين شخصية الفطحل جاءت

من الأدب الروسي لكن من الصعب أن نطرد هنا بعض الروائح التشيخوفية والغوغولية خاصةً. المهم أنها لم تترك بصماتها اللحوحة على أصالة "الفطحل". لكن هل بقي هناك كلام عن التأثيرات؟

أكيد أنها مسالة مفتوحة. إذ لا شيء أصيل تماماً في الأدب والخلق الفني عامةً بل في كل خلق.

في الختام لا بد من التنبيه إلى نفور زهير شليبة من الأقنعة ونرفزته مما نسميه في العراق ب"الكلام المصفّط". وواضح أنه لا يلجأ هنا إلى أيّ قانون للسرد الأدبي سواءً أكان تقليديّاً أو"محدّثاً".

كما بوسعي القول إن "فطحله" قد مدَّ جذوره في أكثر من تربة. ولو كنت ناقداً متفرغاً أو أفخر بمؤهلات نقدية ما، لأخذتُ بالبحث الأكاديمي عن جميع أزمنة وأمكنة هذه الجذور. لكني مجرد قارئ تمتع كثيراً بقراءة "الفطحل" الذي ذكرني بعبقرية الأدب الروسي أيضاً.

لقد قام زهير ياسين شليبة في "الفطحل" بتدوير عدد من عللنا العراقية، (وفي الواقع هي ليست عراقية فقط) ورشَّ خليطاً مدهشاً من توابله عليها!

لقد جاءت "الفطحل"محاولة جريئة لتعرية أكثر من بعد نفسي بل هي، بالأحرى، تعرية لذوي البعد الواحد. وأكرر مرة أخرى تهنئتي للصديق المؤلف على هذا العمل المتميز في حصيلتنا الأدبية.

عدنان المبارك، نيكيوبينغ، 15 تشرين الثاني 2005

إسماعيل غزالي

الصّخب الأجوف:
حول رواية الفطحل للكاتب العراقي زهير شليبة .

"أنا كاطالوك ضخم من الشوائب" تقول بطلة مسرحية يوليوس قيصر في حوار فيلم " أنا وأورسن ويلز " للمخرج ريتشاردلينكلايتر، الفيلم المستند إلى رواية بنفس العنوان للكاتب روبرت كابلوا. يمكن تحوير هذه الجملة اللاذعة بصدد رواية الفطحل لزهير شليبة كالتالي: " أنا كاطالوك ضخم من الانسانية الجوفاء".
تلك هي الفكرة الحادة لكتاب الفطحل الذي يعنى بتوثيق سيرة رجل معتوه يراكم رصيدا هائلا من الأوهام الصفيقة اللاتتناسب ومقدرته الفكرية الساذجة والانعدام الكاسح لموهبته المفقودة.
رجل أبله هو نموذج شاسع لظاهرة من الشعراء الرديئين والمثقفين المعوزين معرفيا يضج بهم المشهد الأدبي محليا وكونيّا.

في الظاهر المعلن تبدو القصص الثلاث في كتاب الفطحل: الاستباحة – الكلب والسيدة القتيلة – توزن تاك، امتدادا طبيعيا وموضوعيا لقصص مجموعة كوابيس المنفى عبر تيمة مركزية مشتركة هي (الأحلام)، فتوحي بانفصالها عن المتن السردي الموالي الخاص برواية الفطحل (محاكاة ساخرة).
في المضمر الخفي تستبطن القصص الثلاث موضوعا رئيسا ممهدا لرواية الفطحل فيما يشبه مقدمة سردية تومئ بمسعى الرواية إلى تشخيص التكوين العراقي والقبض على اللحظة الاجتماعية الجوهرية. ثم تستطرد فتنوه بالأشياء الممحوة داخل فعل الكلام أو الأشياء المحتشدة ما وراء السرد كمبرر وظيفي لأسلوب الانقطاعات الحكائية المقصودة والقفزات والفراغات التي يزدهر بها النص ككل.

القصـــص الثلاث تلمع عبر خطاب إيمائي منذ البداية إلى نموذج الشخصية الفطحلية العراقية (والعربية عموما) المغتربة الموسومة بالفراغ الفادح، كظاهرة ثقافية سـطحية واجتماعية مختلة ونفسـية متوترة.
هذه الظاهرة تتمثلها شخصية "الفطحل" في المحاكاة الساخرة التي تلي القصص الثلاث، وهي عبارة عن متوالية سردية ترصد سيرة الشـــاعر الأجوف الملقب بالفطحل، عبر لوحات متعاقبة وحالات متواترة تتأرجح بين تجربته الكاريكاتورية في شـــمال أوروبا وذكرياته المؤرقة في العراق.
تكاد شخصية الفطحل هنا تحقق ما يسميه جيل دولوز بالشخصية المفهومية، فهي تذكرنا بشـكل من الأشـكال بأبله دوسـتوفسـكي ويمكن أن ترقى لتصير استعارة حول الرجل الأجوف الذي يطمح للوصـول بأسـرع ما يكون عبر أدوار موهومة لكي يصـنع لحظة تاريخية صـــاعقة دون أن تنز منه في طريق ذلك قطرة عرق واحدة. فالفطحل نموذج عملي للأحلام المتضـخمة ذات البصـمة الدونكيشوتية التي تستند إلى قاعدة هشة بل منعدمة أساسا.
الهوس بإنجاز الشـــيء الفني العظيم انطلاقا من الفراغ المعرفي المهول والجهل الفاحش والبلادة الجســورة يغدو عند البعض هاجسا مرضيا وهستيريا فيتحول إلى ظاهرة مع طفوهم كطفيليات في النتاج الثقافي والســياســي والاجتماعي، بل وينجحون عبر وسـائط في خلق أسـمائهم الأدبية الوضـيعة ويزحفون كفطريات على صـــفحات الجرائد والمجلات وشـــاشـــات التلفزيون الخ فيمارسـون التمويه ويسـتوطنون الضـوء العام ويؤثثون المشـهد زعيقا عبر بهلوانيات لا تنطلي إلا على المجوفين مثلهم.

الفطحل الذي كان مذموما خلقة وخلقا في العراق، سـيحاول أن يبحث عن نموذج نقيض لشخصيته في أوروبا وتتحول مذماته إلى محاسـن بقدرة قادر في البلاد الشـقراء. فككل العراقيين الهاربين من جحيم الدكتاتورية وفوضـــى البلاد الأم، ينجح في أن يهاجر بذريعة إجراء عملية حول عينه العمياء ويخفي ذلك فيما يصـــرح

بأنه يسافر من أجل الدراسة ببلغاريا ويطلّق السمراء السومرية ويتزوج من بلغارية، ثم يسارع إلى ترجمة الشعر البلغاري ليلفت الانتباه وهو الذي لا يتكلم البلغارية أصلا، ثم يغادر بلغاريا ويختار له أمّاَ شماليةً الخ

و إذ تطغى السخرية اللاذعة لنبرة السارد وهو يدون حالات الفطحل المتعاقبة، فلا يعني هذا أن الخطاب يلتزم هنا بهذه النبرة الفاضحة التي تعري الشخصية بشكل مبرح يتخلق عنه نوع من الكوميديا السوداء و روح الدعابة (الباروديا تحديدا). ففي ثنايا الخطاب يتوارى حس درامي ينتزع منا لحظة للتعاطف مع هذه الشخصية على سبيل الشفقة انطلاقا من افصاح السرد عن الندوب والكدمات والجراح التي تتقعر ذاكرة ووجدان هذه الشخصية ذات النزوع المسالم. الشخصية المعرضة للهزء ذات الخلقة الاجتماعية المشوهة من الداخل.

فبحثا عن تجميل هذا التشوه الجواني تهافت الفطحل في البلاد الشمالية من أجل خلق مجد واهم عبر طرق وصولية وأساليب واهنة لم تكلفه حتى هدر قدر صغير جدا من الطاقة أو الجهد. وكان الطموح المتلهف هو تشييد رأسمال معنوي ضخم عبر قناع الشاعر وقناع المترجم وقناع المشرقي الذي يعود إلى البلاد مع زوجة شابة شقراء ... ثم قناع المثقف الموسوعي الذي يفقه في كل شيء وقناع السياسي أخيرا (فصل: عودة الفطحل إلى ربوع الوطن الشامخ) ...

و لا تنجح أي من هذه الأقنعة في تلميع وجهه، فيظل لاهثا وراء تسلقاته الوضيعة و تلفيقاته المفضوحة و ادعاءاته المكشوفة وترهاته الفاقعة الشبيهة بضراط في منام كابوسي إلى أن ينتهي نهاية مأساوية (تضارب الشهادات حول سجنه من طرف الأمريكان و اختفائه بقرية في بولونيا بعدما اغتصب من طرف عصابة الخ) .

بعد المتواليات السردية، يفرد المؤلف ملحقا لأشعار الفطحل في مختتم الكتاب، بمنزلة ديوان للشاعر الفطحلي المدعو غوني الملاخ، وفيها يتقمص المؤلف ظواهر شعرية مما ينشر في

الملاحق الثقافية والمجلات وعبرها يواصل السخرية اللاذعة من هذه القصائد الزائفة والساذجة ويبدع لها أشكالا تدعي العمق الأنطولوجي وخلق الأبعاد الرمزية والفلسفية موقعة في أكثر من مكان جغرافي للكرة الأرضية كجزيرة الواق واق بل وحتى الكواكب المجاورة كعطارد الخ.

هكذا يسلك المؤلف في رسم ملامح الشخصية الفطحلية ذات الصدى الروسي البعيد (نيقولاي غوغول) استراتيجية سردية قائمة على المتواليات الحكائية سواء المتعاقبة أو المبعثرة، وينجح في القبض على تلاوين النموذج الانساني الأجوف من زوايا مختلفة عبر لغة تنحاز للمحكي العراقي العامي دون أن تلغي الفصيح الرصين فيما يشبه تعالقا لغويا بحسب تعبير (ميخائيل باختين). فمن جهة يبدو زهير شليبة كساخر كبير (سخرية قائمة على المزج الحاذق بين علم الاجتماع وعلم النفس)، يرصد العالم من زاوية حادة مندلعا بالقهقهات التي تفخخ متن الكتاب من أوله حتى آخره. ومن جهة ثانية يتمرأى ناقدا للشعر وهو يتوجه بخطاب انتقادي مضمر وجسور، معريا زيف الحداثة وانحطاط الذائقة.

وعبر الجهتين معا ينجح زهير شليبة في روايته بصنع كوميديا الهوائيين، موجها حزمة ضوئه الكاشف إلى منطقة البهلوانيين في مسرح اليومي، وفاضحا بكل أصالة جسورة وبسالة مرحة للصخب الأجوف الذي يعكر به الفطاحلة مزاج العصر.

جمال جودة*

قراءة في رواية "الفطحل" للدكتور زهير ياسين شليبة
تشـخيص أدبي لأزمة نفسـية عانت منها عدة أجيال بسـبب خلل في النهضة العربية الحديثة.

تدور أحداث هذه الرواية حول شـــخصـــية الفطحل وادعاءاته ومغامراته وفضائحه في الوطن وفي المهجر. وهي شخصية بلهاء وصـــولية تعيش في عالم من الأوهام حول عبقريتها المزعومة، ولهذا أصـــبحت بؤرة النميمة لدى عراقيي الخارج. للفطحل هذا أسماء مستعارة كثيرة تختلف حسب مزاجه وتقلباته وأفضلها كان غوني الملاخ! يترك الفطحل المدرسـة ليتفرغ لشـعره، يهاجر مع زوجته العراقية الى بلغاريا ليطلقها ويتزوج من بلغارية، فيسـارع الى ترجمة بعض القصـائد البلغارية دون اي علم بلغتها الأصـلية أو تـاريخ أدبهـا، ثم يطلق زوجتـه الثـانيـة مهـاجرا هـذه المرة الى شـــمال أوروبا ليبدأ ســـلســـلة جديدة من الادعاءات والفتوحات الخيالية، وعند بداية الغزو الأمريكي للعراق يحاول الفطحل أن يقحم نفسه في الحرب بصفته "معارض عراقي وكاتب من المنفى، ممثل البرلمان العراقي في الشـــمال الأوروبي"، وينتهي به الأمر في مصـــير مجهول، إذ تكثر الإشـــاعات حوله فمنهم من يقول إنه أُغتُصـبَ وأهين، ومنهم من ادعى أن صديقته البولندية أنقذته وأنه الآن يعيش في بولندا، الخ. مصير الفطحل مجهول.
ولعلـه من الطريف والمفيد أن الأديب العراقي المعروف عدنـان المبـارك نشـــر قصـــة بعنوان تقلبات الفطحل، هي عبـارة عن تشـخيص لما آلت له حياة هذا المدّعي الصـغير حيث يعمل خادما في إحدى قرى البصـــرة ويتعرض لمختلف أنواع الإســـاءة! أنظر موقع القصة العراقية.
والفطحل هذا ينشد الاستحسان والشفقة من الآخرين، فيدعي مثلا أن أهله هلكوا جميعا في العراق الدكتاتوري، بما في ذلك أمه التي كانت حية ترزق، فاصـــطنع قصـــة من المعاناة والأســـى التي قد

تناسب صورة الشاعر المرهف الإحساس الذي عانى الأمرّين والذي يتكلم عن معاناة عميقة، والطامة الكبرى أنه يصدق كذبته. ورغم هذا كله شعرت أكثر من مرة بالأسف تجاه هذا المسكين الأبله "على قد نيته"، كلما سمح لي الراوي بالدخول الى مجالس النميمة، حيث يجتمع عراقيو المهجر وبعض العرب ممن يعيشون على برامج المساعدة الأوروبية، لا ينفكون عن السخرية منه ونهش لحمه حيا، فموضوع "الفطحل" مُسكِّن للآلام يشفي غليل فشلهم وألم غربتهم، والأنكى من هذا كله أن لهؤلاء آراءَهم النقدية والفنية الخاصة بهم! إن ردود فعلهم على سفاهة الفطحل هي الجزء الأكبر من المشكلة! بل يمكن القول إن الناس من حوله هم من يزيدون شأنه، ولا يقلون عنه جهلاً.

من عادتي أن أفكّر في التأثير الكلي نفسيا وفكريا لأي كتاب بعد قراءته مرة أو مرتين، وهذا التفكير بحد ذاته جهد أو عمل نقدي له شرعيته ولا يحتاج لأي تبرير، و"الفطحل" كتاب يستحق التفكير لتأثيره الغريب علي، فكما سبق بيانه اختلطت المشاعر بين الاستهزاء والسخرية من جهة، والشفقة والألم من ناحية أخرى، وبين الإفراط بالضحك والتهكم من شخصية هي في الحقيقة مسكينة لا تضر ولأنتفع، عدا عن أن عنصر التشويق لم يختفِ ولو لحظة!

هناك الكثير من الجوانب المهمة في الكتاب التي استحوذت على انتباهي كدور الأحلام مثلا والتي لا تقتصر أهميتها على الأسلوب السردي من ناحية تقنية، بل يتعداها الى الجانب الرمزي أيضا، إضافة الى علاقة الراوي بالفطحل والشكل الأدبي، هي كذلك جوانب مثيرة للاهتمام في هذه الرواية التي يصر كاتبها أن يصنفها كمحاكاة. ولا يمكنني أن أعطي كل هذه الجوانب حقها في هذا المقال، ولهذا سأركز أولا هنا على المسألة الأكثر إلحاحا بالنسبة لي شخصيا وهي الشكل الأدبي في المقام الأول ومن ثمة شخصية الفطحل نفسه.

- العام والخاص:

هناك في رأيي ازدواجية مهمة في شـــخصـــية الفطحل التي نجح الكاتب في بنائها، وتلك هي ثنائية العام والخاص. لقد نجح المؤلف في بناء شخصية مركبة، أو بعبارة أخرى، "عامة" يعرفها الكثير من الناس في المهجر والوطن. أي أن الفطحل هذا يوحي بنزعة يعرفها الكثير من القراء في العالم العربي، فهو يشـــير ويذكر القارئ بتلك النزعة، فشـــعوره بأن الفطحل نوعية أو صـــنف من الناس قد مرَّ عليه ســـابقا يزيد من حيويته على الرغم من فرديته. فكم تذكرت فلاناً وعلاناً من أيام الدراســـة في المدرســـة الابتدائية والثانوية،

وكم تذكرت أشـــخاصـــا قابلتهم في الجامعة والمهجر بين العرب، حيث يزدحم الفطاحلة من كل مذهب ومشـــرب، من الفطحل "الإســـلامي" الذي لا يتوقف عند تكفير داروين ونظريته دون أن يقرأ سطرا واحدا في الكتاب المشؤوم بنفسه فيعمل فكره فيه، إلى "الماركسي" الذي يتحدث عن ماركس وإنجلز صباحا مساء دون أن يقرأ أي كتاب لهما، وإلى الفطحل الأدبي الذي لم يكتشفه أحد، إلى الناقد "العبقري" الذي يشتم إمرأ القيس "المنحط" دون أن يقرأ معلقته وهلم جرا!

يمكن القول إن الفطحل في هذه الرواية تشـــخيص أدبي لحالة أو أزمة نفسية وعقلية أصابت أكثر من جيل في العالم العربي، تعود بدايتها إلى خلل أساسي في النهضة العربية الحديثة.

أرفض اختزال النص الأدبي في نية الكاتب، حيث يبرز المعنى من تفاعل القارئ مع النص، ولهذا تختلف القراءات والمعاني. بكلمات أخرى، لا يهمنا هنا فيما إذا كان الفطحل شخصا "حقيقيا" مســـتمدا من حياة الكاتب أو العكس. المهم هنا هو الازدواجية بين فردية الفطحل كشخصية أدبية عراقية محددة من جهة، وعموميّته من حيث هو ظاهرة اجتماعية بامتياز. وهنا تكمن في رأيي فاعلية هذه الشـــخصـــية الأدبية، فهي في المقام الأول محددة وفريدة، وليست شخصا "حقيقيا" بدَّل الكاتب اسمه ب"غوني الملاخ". لكنه أحد أعراض "المرض العربي" المزمن إن صـــح التعبير، وهو ما ســـأوضـــحه لاحقا. أظن إن أغلب القراء العرب ســـيشـــعرون أنهم

قابلوا أو مروا على هذه "النوعية" في حياتهم أكثر من مرة. وهنا تكمن الازدواجية أو أوجه الشبه بين الشخصية "العراقية" ذات الاسم والهوية المحددتين من جهة والتشخيصية العامة التي تطال وتصور أكثر من شخص أو "نوعية" في أغلب أنحاء العالم العربي. أشعر أن هذا التشخيص العام هو السبب الرئيس خلف ضحكي المستمر، إذ عرفت هذه "النوعية" وتفاعلت كقارىء معها أو الحالة المرضية ومع كيفية تعامل الآخرين معها.
- " عروبة " الفطحل

وتُعد الظاهرة الفطحلية أو "الفطحليزم" كما يحلو للكاتب ان يسميها ساخراً مرضا مزمنا في البلاد العربية. إنها ظاهرة عربية بإمتياز حيث لدينا العديد من المدّعين ممن يريدون أن يكونوا مفكرين وفلاسفة وقادة سياسيين عباقرة باي ثمن. وأود أن أشدد هنا على "عروبة" الفطحل حتى النخاع! يشدد ويؤكد بعض النقاد على "عراقية" النص من حيث اللغة وشخصية الفطحل ذاته، وصحيح أن لغة النص عراقية أحيانا وأن عددا من الأمثال الشعبية أو التشبيهات استعصت علي كقارئ فلسطيني، لكن لابد في رأيي المتواضع من التأكيد على عروبة الفطحل التي أثرت في قراءتي للكتاب رغم عدم "عراقيتي". إن تفاعلي الحي مع النص ومع شخصيته الرئيسة وفهمي لمعضلات الإنسان العراقي فيه رغم الفارق بيني وبينه دليلٌ يؤكد انتشار هذه الظاهرة.

غوني الملاخ "الطايح الحظ"، "ذو العين الكريمة" مصاب بمرض "الفطحلة" هذا في الميدانين السياسي والأدبي، همه الأول والأخير النجومية والشهرة باي ثمن كان، فهو إذ لم يتمكن من تحقيق هذا كله كأديب فذ، انقلب الى السياسة منتهزا فرصة الاجتياح الأمريكي للعراق. ولا أعرف بالتحديد أسباب انتشار هذه الظاهرة في العالم العربي، لكن يبدو لي من حيث المبدأ أنها نتيجة تشابه الظروف فيه.

يبدو لي أن جذور "الفطحلة" أو الوصولية السياسية تعود الى الاختراق الغربي للعالم العربي خصوصا عقب انهيار الإتحاد السوفيتي التي تمثلت بسلسلة أحداث متشابهة مثل الاجتياح الأمريكي للعراق، اتفاقية أوسلو وسياسة الانفتاح في مصر، فكثرت المشاريع الديموقراطية السطحية التي تمولها الدول المانحة، وتفجر عدد "الخبراء" الذين صاروا يجيدون اللغة السياسية "المربحة" التي أضحت تجارة.

- الشكل الأدبي

هناك الكثير من الأعمال الأدبية التي تتناول شخصية تبدو فردية بمعنى أنها لا تشكل ظاهرة عامة لكنها بعد إمعان النظر فيها تبدو "عامة" أيضا مثل "الأبله" و"المقامر" لدوستويفسكي و"دون كيشوتي" لسيرفانتيس الخ. لاحظ هنا استعمال الصفات بدلا من الأسماء المحددة الفردية أو أسماء العلم في العناوين أعلاه كما هو الحال في "الفطحل"، ويبدو أن اختيار المؤلف لمفهوم "المحاكاة parody" كتصنيف أدبي لكتابه مصدره مثل هذا الاعتبار.

لا أرى من حيث المبدأ أي تعارض بين الرواية كصنف أدبي والمحاكاة عموما، سواء أكانت ساخرة أو جدية، لسببين رئيسين. يجدر بنا هنا أن نتذكر، أولا وقبل كل شيء، أن المحاكاة الساخرة ليست شكلا أو صنفا أدبيا بحد ذاتها. لا بدّ هنا أولا أن نوضح المفاهيم كما أستعملها هنا. يمكن ترجمة كلمة "محاكاة" بالمعنى الاصطلاحي الأدبي الى "mimesis" أو "parody" بالإنجليزية، وهي كلمات من أصل إغريقي. المعنى الأول هو مفهوم عام فلسفي وأدبي يدور حول أهمية "التقليد" أو "المحاكاة" في عملية التربية والنضوج في المجتمع وفي الفنون والأدب. ليس هذا المفهوم المقصود في موضوعنا الحالي، بل هو المعنى الثاني، أي "parody"، وهي أسلوب أدبي وفني ذو معنى محدود على العكس من الأول، حيث يقلد الكاتب، الشاعر أو الفنان عملا معينا إما بغرض نقده، أو نقض الذوق الأدبي في العصر الذي ينتمي اليه العمل المعني.

أما السـبب الثاني لرأيي أعلاه في انعدام التعارض بين الرواية والمحاكاة، فهو أن الرواية كشـكل أدبي وبالمعنى الحديث كلها مبني أصـلا وتاريخيا على المحاكاة، وبالذات المحاكاة السـاخرة. يحاكي سـيرفانتيس مثلا في رائعته "دون كيشـوته" التي نشـرت لأول مرة في العام 1605 تراثا أدبيا طويلا طغى على أوروبا في العصـور الوسـطى يدعى بالأدب الفروسـي " chivalric romance" والتي تناولت بطولات أسـطورية لفرسـان كثر خصـوصـا "مغامرات أماديس الغاليْ" إضـافة الى "إنجازات إيسـبلانديان" وغيرهما من الأبطال الحقيقيين والوهميين على السواء، فإما كانوا جزءا من الحملات الصليبية أو فرسانا تصدوا أو قاوموا جيوش المسلمين في إسبانيا.

فكان الأدب الفروسـي الديني هذا طاغيا تسلطت على كل محاولة إبداعية تجديدية، وانكسرت شوكتها بصدور "دون كيشوته"، ومع أن الراوي يسخر بطريقة لاذعة مؤلمة من بطله، إلا أن القارئ قد يبكي على موت دون كيشـوته في نهاية الكتاب. لكن وعلى الرغم من هذا كله فلا تعتبر جمهرة النقاد هذا العمل محاكاة، بل على العكس من هذا تماما، إذ ترى الأغلبية أن "دون كيشـوته" أول رواية في العالم بالمعنى الحديث للكلمة.
لا أرى للأسباب أعلاه خاصية تميز المحاكاة عن الرواية. إن ما يميز رواية "الفطحل" هو كونها مبنية على أجزاء متقطعة إن صح التعبير، فالسرد فيها يبدو لأول وهلة وكأنه مكون من شظايا fragments، أي تبدو لأول وهلة وكأنها تفتقد إلى حبكة وبنية سـردية narrativeبالمعنى التقليدي للكلمة، من حيث إن تسلسل الأحداث لا يتبع في هذه الرواية "ثم كذا ثم كذا"، من بداية واضحة لحبكة محددة تُتَوَّج في ذروة تنحل عقدتها في النهاية، لكن هناك عوامل جامعة من حيث الشكل، فإضافة الى وحدة الموضوع ووحدة الشخصية المتمثلة في الفطحل، وهي بديهية في رأيي، إلا أن هناك عوامل شـكلية أهم، ف"الفطحل" عمل نثري ذو امتداد

زمني واضـــح منذ العام 1990 إلى 2006 تحديدا. هناك أيضـــا صوت الراوي، وهو العمل الأساسي في وحدة السرد والشكل.
يتابعنا صـوت الراوي في رواية "الفطحل" من البداية الى النهاية، وقد يتناسى القارئ هنا دوره بسبب شخصية الفطحل. لكن لابد في رأيي من مناقشـة دور هذا الراوي المشـاكس الذي يعرف تماما أن القارئ تحت رحمته! ليس ســـهلا أن نحدد علاقة هذا الراوي بالأشخاص الأخرين في الرواية لاسيما الفطحل ذاته، لكن أظن أن الراوي هنا كان زميله منذ أيام الدراسة وأنه رافقه في الغربة حتى اختفائه.
وراوي "الفطحل" هنا بالمناســبة مشـــاكس محترف، لأنه يحجب عن القارئ مصـير البطل الفطحل، فهو لاريب يعلم بعاقبته ويتلذذ في تخمينات الجهلة من أصـحاب النميمة. كيف لا يعرف بمصـير الفطحل وهو يعلم ســريرة كل أشــخاصـــه بل حتى أحلام الفطحل وكوابيســـه في الليل؟ هذا الراوي الذي ينصـــح الفطحل بالزواج والعمل، متعاطفاً معه رغم علمه بتفاهته، ما علاقته بالفطحل؟
لا شـــك في أن الراوي يتعاطف مع الفطحل الأبله، على الأرجح شفقةً.
ناهيك عن أن الراوي يغير أسلوبه السردي ووجهة النظر بين عدة شــخصــيات، بما في ذلك الفطحل نفســه. يســتهل الراوي ســرده بضـمير الغائب "هو" في الفصـلين الأول والثاني، فيحدثنا هنا عن كل كبيرة وصـــغيرة من أحلام الفطحل وكوابيســـه، ثم ينقلب فجأة في الباب الثالث إلى ضـمير المخاطب "أنت" وكأنه يتكلم مباشـرة إلى الفطحل والقارء بشكل غير مباشر، ثم يعود الى ضمير الغائب في الفصول اللاحقة.

كذلك تتبدل وجهـة النظر، فتـارة نرى الأحـداث بعيني الراوي، وأخرى بعيون الآخرين، لكن الراوي هو نفســـه الراوي لايتبدل. الراوي هنـا لا يكتفي بـالمراقبـة من بعيد، أو يتظـاهر بذلك كي لا يبدو مباشرا وتقليديا ولكي يجمع بين السرد والدراما مطلا برأسه بين فترة واخرى، فيحس القـارئ بوجوده عـدة مرات. يـذكرني

الراوي هنـا بنظيره في روايـة العجوز والبحر Moby Dick للكاتب الأمريكي Herman Melville.
فالراوي يطل فجأة من المحيط السـردي ليعلق على الأحداث مثل الحوت في الرواية، والحوت هنا ليس شـخصـية فردية بل هي نمطية ورمزية الى حد بعيد.
ولا يمكنني في هذا المقال أن أعطي مسألة الشكل الأدبي في هذه الرواية حقها من النقاش، وأضـيف الى هذا الكثير من الجوانب المهمة في الكتاب الجديرة بالانتباه كدور الأحلام وعلاقة الراوي بأشخاصه.
لقد نجح الكاتب في بلورة شـخصـية مدّعية ووصـولية "عربية" بامتياز بعيون نقدية ولغة لاذعة، سنحت لي أن أرى بعض الأفراد والإشـكاليات بعيون مختلفة، شـخصـية عامة وفردية في آن معا، أضحكتني من "شر البلية" لساعات طوال ممتعة ومؤلمة!

• جمال جودة، ماجسـتير في الألسـنيات من جامعة كوبنهاجن، اسـتـاذ اللغتين الـدنمركيـه والإنجليزيـة في كوبنهـاجن

محمد السنباطي

الفطحل: محاكاة ساخرة، كتاب جديد للدكتور زهير ياسين شليبه، إصدار مركز الحضارة العربية في القاهره

عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة صدر كتاب الفطحل للدكتور زهير ياسين شليبة في مئتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط.

والكتاب، كما وصفه صاحبه، محاكاة ساخرة ونصوص سردية مفتوحة. ويطالعك الغلاف الخارجي الأول بلوحة كاريكاتورية ساخرة للفنان المغربي مصطفى جباري، وفي صفحة تالية إهداء اللوحة بخط الفنان الذي كتب: "أرجو أن تكون اللوحة مناسبة لشخصية الفطحل."

تأتي بعد ذلك صفحات بقلم الأستاذ عدنان المبارك عنوانها: قراءة في رواية زهير ياسين شليبة "الفطحل"، رصد ساخر لنموذج بشري دائم. ويعلن المبارك أن رواية الفطحل " تذكرنا بالسير القديمة. لا يشرك المؤلف هنا مع صوت السخرية أي صوت آخر في روايته ."

لقد أكد المبارك تأكيداً جازماً على أن هذا العمل الأدبي رواية وإن كان المؤلف غير مهتم بـ"التصنيف الأدبي لهذا الكتاب محاكاة أم رواية أم مجموعة قصص"، ويقول مؤلف الكتاب: صورت المجتمع العراقي وظواهره الاجتماعية السلبية من خلال أبطال القصص وشخصية الفطحل السطحية المسالمة والآخرين الذين لا هم لهم غير تهميشه والسخرية منه. هذا هو موضوع هذه القصص". المؤلف هنا يعتبرها قصصا كما تلاحظ. ليس هذا أهم ما في المقدمة التي كتبها المؤلف عام 2008 وهو في الدنمرك، ولكن: " هذه المحاكاة الساخرة مكرسة لشخصية نموذج لأولئك

الذين يرسمون لأنفسهم أدوارا دونكيشوتية كبيرة فيبدون بهلوانيين، وللطريقة القاسية، العراقية بامتياز في التعامل معه."

ندلف بعد ذلك إلى عنوان: الاستباحة.

تحت هذ العنوان نبدأ في التعرف على تلك الشخصية، "كان قلقا تلك الليلة. سمع كما هائلا من الأخبار الزفت كما يقولون". "أدار رأسه إلى حيث الجدار والظلام". "مرت في خياله صورة تلك الفتاة العراقية الشابة التي عبثت فيها الأيادي القاسية". "قابعة تحت الغول". "إنها صورة الذل والهوان والعدوانية والاستباحة."

ثم ينتقل بنا إلى فتاة أخرى كانت تلهو. "لم تدم اللعبة طويلا حتى اكتشفها زوجها". "طلق هذا الرجل العصبي شريكة حياته على الفور"، لكن الحقيقة تبدت له، فلم يكن ذلك حقيقيا! يقول الكاتب صراحة: "إذن كان كل ذلك حلماً"، وسنرى لاحقا أحلاما أخرى تختلط بالواقع وسيطالعنا الكاتب كل مرة منبها أن تلك كانت أضغاث أحلام. وبطل القصة أو بطل الحلم يصر كل مرة أن يسترجع كل صغيرة وكبيرة في الحلم أو في الرؤيا كما يسميها المؤلف. هناك قتل وتنكيل، ثم هناك العراق المضرج بالمآسي: "هل هناك في هذا العالم الشقي أكثر أهمية من المخلوقة العراقية وصوتها الرهيف الحزين؟"

حتى السلة القديمة قال عنها: "سلتك عمرها آلاف السنين العراقية"! أرأيتم؟ حتى سنين العراق لها أطوالها المختلفة.

حتى اللوحة المرسومة فيها ما فيها من القسوة والمواجع: "كانت هناك لوحة بانورامية قوية معبرة، فيها أجساد بشرية نحيفة ترتدي ملابس ممزقة ووجوه ناحلة ناتئة العظام بينهم فتاة في مقتبل العمر لم يعد هناك شيء من ملابسها المتهرئة يستر جسدها،

كانت نظرات الشرطة مصوبة نحو صدرها العاري، تتعرض للضرب بسياط خيالة يقفون حول هذه الكومة البشرية العراقية."

أتابع وأنا واثق أن الكاتب سيقول إن ذلك كان حلما، ولعلك لو راجعته في هذا لقال لك: " يا إلهي، حتى الحلم ممنوع علينا، حتى الحلم لم يخلص منا نحن العراقيين**!**". العراق مرة أخرى: "نحن شعب عريق مولع بالصفعات، حكمته المرفوعة ليلا نهارا: اضرب أخاك ظالما أو مظلوما. أو اصفع، اصفع حتى يرهبك الآخرون". وبعد أن قرأت: "هذه هي دورة العنف العراقي مصممة بدقة منذ آلاف السنين".... بعدها بسطور فاجأني الكاتب وكنت قد نسيت: "أفاق من نومه.**!**"

النوم والحلم لهما ما لهما في هذا الكتاب حتى إن الفطحل في قصيدته عندما يدعو حورية البحر يدعوها هكذا: "فتعالي

يا حورية البحر

إلى منامي**!**

ننتقل من تلك الاستباحات إلى "الكلب والسيدة القتيلة". وكما كان الكاتب ينبهك في القصة الأولى إلى أن ذلك كان حلما فهو هنا ينبهنا إلى شيء آخر: "لكن سرعان ما ابتلعه عالم الذكريات". وفيها نطالع المقارنة بين حالتين متناقضتين مختلفتين كل الاختلاف: "كانت الأوروبية تنظر ساهمة إلى الأفق مبتسمة، بينما كانت أصابعها تعبث بشعره الأسود سارحة بذاكرتها إلى عوالم الفيلة والقردة والأسود وزئيرهم واللون الأسود والقوة والدفء والحياة. لم يكن الولهان يدرك ما في خلد هذه الجميلة وإلهامها وحبها لبلاده المشوقة الغريبة، التي لم ينم فيها يوما وهو مرتاح البال. أي تناقض هذا؟ بلادي وإن جارت علي عزيزة. أخبر يوسف زوجته الخياطة السلاّطة الزلاّطة الطبّاخة النفّاخة بقصة

هذه الأوروبية الرومانتيكية، ردت عليه ببرود خيالي: ُرح لها، يجوز تسمع أشعارك.". لا نكاد نخرج من ذلك الجو حتى ندخل في عالم الجريمة: "امرأة رائعة الجمال والبهاء، في متوسط العمر، وكلب كبير مثل كلاب الشرطة مقتولان بالرصاص والدماء تسيل منهما. لكننا وقد مضينا في تقصي خيوط الجريمة نصحو على الجملة العتيدة: "إذن كان ذلك مجرد حلم."

والعجيب أن الدكتور شليبة يأخذنا ليس إلى الحلم فقط وإنما إلى الحلم داخل الحلم: "واستسلم يوسف للرقاد بعد سيل الذكريات التي شرحت صدره. في النوم حلم أنه نائم ويحلم، وأنه ذهب في الرؤيا إلى البريد ليرسل طردا بريديا مليئا بغداء المعلبات إلى الرجل المقولب بونامارييف.".

وابتداء من (توزن تاك) ينهمر الحكي عن الفطحل، الفطحل الوحيد في نظر نفسه. ""هناك فطاحلة مثلك أيضا ويجب أن تعطيهم حقهم"، لكنه لا يفعل.

ها هو ومن معه تائهين في مدينة غربية بعيدة، يتصدى هو للمارة ويسألهم عن المكان الذي يقصدونه، صار يؤنبه زميله: "ولم يبق شارع إلا دخلناه، ولا زقاق صغير إلا وسلكناه، لم تبق امرأة إلا وسألتَها، ومع ذلك لم نعثر على المكان. الناس يقولون لك إن المكان المنشود قريب من هنا. وأنت تصر على إلقاء القصائد عليّ بخطابيّتك المعهودة". ثم ينهال عليه سخرية: " مقطوع من كل العالم، تعيش على هامشه ولا يشغلك غير أمسيتك وإلقاء الشعر. والله حقك! فهل هناك شيء في الحياة أجمل من تحقيق الذات. أنت جميل. أنا والله سعيد بك. أنت فرحي الدائم والمفروض مني أن أكرس وقتي لك". وفي العنوان التالي نقف علي مطلع قصيدة للفطحل: اسألوا عنا في كل مكان نحن جهابذة هذا الزمان

وينقلب عليه صديقه: "لو كنت فطحلا حقيقيا لعرفت ذلك، ولكن ألم أقل لك دائما وأبدا بأنك ماركة مزورة!

ولقد تغير الفطحل ولم يعد كما كان..... صار يتطلع في المرآة ليرى نفسه في النيو لوك فإذا هو: "شاب طويل القامة فاحم الشعر، أسمر البشرة بمعطف مطري طويل ونظارة شمسية، كانوا في العراق الصعب يسمونك (ساخرين منه): كعيبِر، كعيبري! لكنك الآن والحق يقال شاب وسيم في نظر هؤلاء الأوروبيين لا محالة."

فما الذي تغير في حياة الفطحل؟

نقرأ: "لكن هناك أمورا كثيرة تغيرت في حياة الفطحل فقد تعلم تنفس الهواء الطلق ونسيم الحرية في البلدان الجميلة، وصار له مسكن خاص به له حرمته لا يدخله الغرباء بدون دعوة منه لهم، ولا يزوره إنسان أينما كان بدون اتفاق أو دعوة مسبقة. وله عنوان ثابت وصندوق بريد خاص به. لم يعد أحد يسخر من شكله أو شعره الفاحم أو سمار بشرته أو كبر أنفه وغلاظة شفتيه بل صار هذا ملاذا لشفاه الأوروبيات الجميلات، وما كان يعد قبحا صار مبعثا للإلهام والخيال والجاذبية بالنسبة للفتيات المهووسات، بينما صارت البلاهة والشرود وعدم التركيز واللباقة سببا للتعاطف والمودة والمحبة ورمزا للمسالمة.

تغيرت ملامح شكل الفطحل نحو الأجمل والأفضل إلا عينه الكريمة بقيت كما هي عليه مختفية خلف النظارة المعتمة وخصلة من خصلات شعره."

وها هو في بلاد الشمال يتوق لاستلام الرسائل، يطلب ذلك من ساعي البريد ويحفزه ليتأكد من خلو جعبته من رسائل له. وتأكد له عدم وجود رسائل باسمه فإذا به.... "ينظر إلى الأشجار العالية

والغيوم، كادت تسقط من عينه دمعة". حتى الاتصالات الهاتفية لا يوجد. دب اليأس في صدره فقال لصديقه: "إذا أهلك اتصلوا بك مرة ثانية وسألوك عني فقل لهم آني فعلا مت بكردستان."

والفطحل مولع بشيئين: المكتب الفيزيت كارد، فأما بطاقة الزيارة فمكتوب فيها اسمه ولقبه وعنوانه ورقم هاتفه" وتنزوي هناك بخجل كلمتان: كاتب/إعلامي. يتفحصها الفطحل بإعجاب صباح مساء، كان بوده أن يكتب عليها كلمة شاعر". وأما المكتب فلابد منه لأنه الجاه والسمعة.

ويسخر الكاتب: "الناس في هذه البلاد أساتذة في الشكوى من الفقر والقحط والضرائب والمساعدات الاجتماعية بينما يبحث هو العاطل عن العمل عن مكتب يتفاخر به وسط المهمشين والمهشمين المنبوذين."

ليس فقط يتوق إلى البطاقة والمكتب وإنما يتوق أيضا إلى أم بديلة. "كانت والدته القصيرة البطينة، واقفة ترتدي ثوبا مهلهلا تنظر إليه بتوسل وتقول له بسخرية ضاحكة مغطية أسنانها بكف يدها اليمنى: عاشق ومفلس."!

وها هو يتذكر قولها هذا ويتملكه الأسى ويتذمر: "المفلس لا يحق له حتى العشق، أي ظلم هذا؟ معلوم! الفلوس تجيب العروس والمعطف المطري والنظارات السوداء."

ها هو صار يلبس النظارة الشمسية رغم الجو الغائم المضبب. فأما أمه فألقاها عن ذاكرته إلى حين مفكرا في أم بديلة، وأما زوجته التي كانت تسهر الليالي تستنسخ له أشعاره فطلقها!!: "لازم أغير العالم!!"

ونراه في شقته يسخن أرزا ومرقا كانا عنده من يوم أمس، وبعد أن أكل لبس دشداشته ونام منهكا. "في النوم رأى حلما سيفرح به

كثيرا عندما يستيقظ وسيحكيه لمعارفه وأصدقائه رغم ندرتهم أو انتفائهم:."

أمه في الشارع في عباءتها السوداء الطويلة. طلبوا منه التوجه إلى العراق. اتصل بها ليخبرها "أنه سيأتي محملا بالهدايا والدولارات وما عليها وأخواته إلا انتظاره في البيت وأن تدعو الجميع."

ها هم أهله في استقباله كبطل عائد. خروف يذبح أمام عتبة الدار. العيون الصغيرة والكبيرة ترمقه وترمق الهدايا المرتقبة. المشكلة أنه رغم تغيير اسمه إلا أن الاسم القديم يلاحقه الآن.

أخذ يوزع الهدايا لكن أحد الأطفال طلب منه هاتف جوال لجدته، وآخر طلب نفس الشيء لأمه وخالاته. أخته الصغرى تشكو من "تعبها مع ابنها المريض، وتمنت عليه أن يساعدها في المستقبل، أما أخته فشكت له سمعها الثقيل، أما أخواه اللذان يكبرانه فظهرا له وكأنهما في سباق نحو القبر.

كان أخوه الثاني يبدو أكبر من عمره بكثير؛ بسبب الرصاصة التي أصابته في شبابه ومرضه؛ إذن فهو ما يزال حيا يرزق ولم يمت منذ أكثر من عقدين من الزمان...

تساءل الجميع لماذا لم يدرس الفطحل الطب هناك...

"سألته أخته الصغرى بإلحاح وعفوية: عيني عيونك إشكد حلوة، كأنما حاطط عدسات. لكزتها أختها الكبرى كي تصمت، بينما حاولت الكبرى الطرشاء أن تسأله عن سمّاعة أذن ."

وطبعا بعد هذا لن ينسى الكاتب أن يذكرنا أن الفطحل كان نائما: "هسه قعدت من النوم وحلمت كأني مسافر للعراق..."

وفي قناة فضائية يشاهد الفطحل مشدوها حوارا سياسيا لا يعجبه فيقوم بمداخلة ثم يلتفت إلى جليسه ويسأله: "بالمناسبة أريد أسألك كان اسمي واضح على شاشة التلفزيون(...) كتبوا اسمي بوضوح؟ كتبوا موقفي الشخصي؟ كتبوا اسمي المنسق العام؟"

ويعرض المؤلف علينا حيرة الفطحل مع زوجته البولونية، وزوجته الأخرى، هو الذي "يعاني من سلب الذات منذ طفولته"، وكان قد طلق امرأته العراقية، وصار يرزح تحت أنقاض اختياراته، البولونية فارغة، ثلاثينية تصغره بعقدين. "عسى ولعلها فعلا حامل مني مو من شخص آخر غيري، يا رب تكون حبلى مني".

ويتذكر امرأته الأولى العراقية التي كثيرا ما طلبت منه أن يعرض نفسه على طبيب لأنه عاقر!. هل يقدر أن يسأل البولونية إن كان فعلا أبا للجنين. "راح تثور وتزعل وتقول إني عربي متخلف."

وها هو حلم آخر يجيء ويسقط الفطحل من مكان شاهق لكنه يفتح "عينيه مبتسما: عايش! اطمئن آني عايش، آني بزونة (قطه) أم سبع أرواح."

وها هي البولونية تهاتفه: "ألا زلت نائما أيها الأمير؟ إلى متى تبقى على هذا الحال؟ أَفِقْ لنفسك أيها الطفيلي؟ أُخرُجْ يا فارغ وإبحثْ لك عن عمل يفيدك، ستصبح أبًا عما قريب، هل تفهم؟ حاول أن تفهم قليلاً ولو أنا يائسة منك يا أبلة لأنك طول عمرك هائم ونائم كأنك محنّط."

وينتفض عليها "ها ها، ها؟ ماذا تقولين؟ أي شغل هذا؟ أنا سياسي! أي شغل؟ أنا شاعر! أي شغل هذا؟ أنا معارض للنظام! أنا ضد صدام! هذا شغلي! أنا شاعر! أنا كاتب."!

وتدور رحى الحرب وتلتهب المظاهرات المناوئة لها "صار الفطحل كثيرَ الحضور في المحطات الفضائية، وأصبح يرتدي البدلات الأنيقة للغاية وأربطة العنق المورَّدة، المزركشة، ذات الألوان المتنوعة كالأحمر والأرجواني، غالباً ما كان يظهر حليق الذقن مصفف الشعر سبله ويبدو مزيتاً، أصبح وجهه أكبر أو أسمَن وبدت وجنتاه متوردتين رغم سمار بشرته، وأن العز بدأ واضحاً على ملامح وجهه، قَدَّمَهُ المذيعُ باسم آخر غير الذي اعتادوا عليه سابقاً حيث أصبح اسمه وثّاب عنبر الناطق الرسمي باسم حزب البرلمان العراقي، تحدث في البداية قليلاً عن حياته وقال إن والده اسماه وثّابا تيمنًا بوثبة كانون الثاني، وكانَ مقدّم البرنامج الرجل الكبير في السن ذو الخبرة الإعلامية الواسعة يبدو عليه أنه لا يثق بهذه الادعاءات، ينظر إليه بريبة من طرف عينيه، قاطعه مبتسماً:

- ولكن يا دكتور وثّاب هناك من يقول إن هذا ليس اسمك الحقيقي، يُقال إن اسمك الأصلي: طايع أو طايح، بل إنه عبدالجبار وهو الاسم الذي استخدمته مؤخراً قبل السقوط."

بعد هذا "الموجز" الذي أتمنى ألا يكون قد سلب هذا العمل حيويته واندفاعه، والذي أرجو به أن أكون قد قدمت للقارئ فكرة عامة وافية، فإنني أرى أن الأمر يتطلب ذكر بعض الملاحظات:

1- نبدأ بالإهداء، "إلى زوجتي فريدة"، فنستشعر الحميمية المطلقة، والوطن المثالي الذي اصطحبه الكاتب معه إلى بلاد الغربة. لكأنه يهدي الكتاب إلى العراق! العراق الفريد!

لذلك أصر على ذكر اسم الزوجة، وهل هناك متفرد كالعراق، ونخل العراق، وسماء العراق!

2 - ومازلنا في الإهداء الذي يوجهه الكاتب إلى أبطال قصصه... وليس هناك ما هو أجمل ولا أرقى ولا أنقى من قول هذه الكلمة: "معكم أسخر لا منكم."

3- ومن الذين يوجه لهم إهداءه، الشعراء على اختلاف أنواعهم، فمنهم من يستحق التكريم، ومنهم من يستحق الصفع كما قال شاعر.

- نخرج من الإهداء لنقرأ باستمتاع ونجد أن الكاتب يمزج بين الخاص والعام؛ فكما صور الفطحلَ صور معه المجتمع العراقي في أدنى صوره السلبية.

4- تركيز الكاتب على استخدام الحلم وإن كان ينبه القارئ دائما قبل الدخول في مملكة النوم وإلا فبعد مغادرتها، ويصر على هذا الوضوح ولعل معه أسبابه.

5- لا شك أن الكاتب قصد أيضا تعرية المجتمع العراقي وفضح الشخصية الوصولية

وتعاونها مع الاحتلال، وعندما وصف ظهور الفطحل في الفضائيات

فقد كان يعني مجموعة من العراقيين لفظتهم المنافي فعادوا ينتهزون أية فرصة للشهرة

فوقعوا في فخ نصبوه لأنفسهم. هؤلاء فقاعات ليس لهم في نظره أي دور في العراق .

كذلك الجو العربي العام من خلال استخدام اللهجات المصرية والسورية وغيرها لكي يؤكد على أننا: كلنا في الفخ شرق!!

6 - وأخيراً فيجب التنويه على أن مؤلف الفطحل كاتب له أسلوبه المتميز الذي يعبر بصدق عن شخصيته وانتماءاته. يكتب القصة كأنما يكتب سيرة ذاتية لمؤلف. إن أبطال قصصه يتماهون معه

في اغترابه وتشوفه إلى وطنه: "يا ترى هل ستبقى رائحة جريد النخل وسعفه بعيدة المنال؟"

أقول إن مؤلف الفطحل له أسلوبه الساخر المحبب حيث خفة الظل، واللمحات الذكية، كل ذلك لا يخفى على أحد .

محمد السنباطي

Zouhair Yassin Shlaiba

The Genius

Den Geni

Sharq Gharb forlaget, Danmark

1. udgave

Danmark 2009

Copyright: Zouhair Shlaiba

Omslag: Mustafa Jabbari

Produktion: Markez al-Hadharate al-Arabiate

Kairo, Ægypten

ISBN 978-87-985964-7-9

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy-Dan aftaler.

حقوق النشر للمؤلِّف

لا يُسمح بإعادة الإصدار التصويري أو الإليكتروني أو أي شكل من الاستنساخ والنشر والاقتباسات الطويلة والتوزيع بدون أخذ الموافقة الخطية من المؤلف الدكتور زهير ياسين الشليبه بموجب اتفاقات Copy-Dan دان كوبي السارية.

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy-Dan aftaler.

The Genius

Den Geni

Sharq Gharb forlaget, Danmark

شرق غرب للنشر

الطبعة الأولى 2009

1. udgave

Danmark 2009

Copyright: Zouhair Shlaiba

Omslag: Mustafa Jabbari

ISBN 978-87-985964-7-9

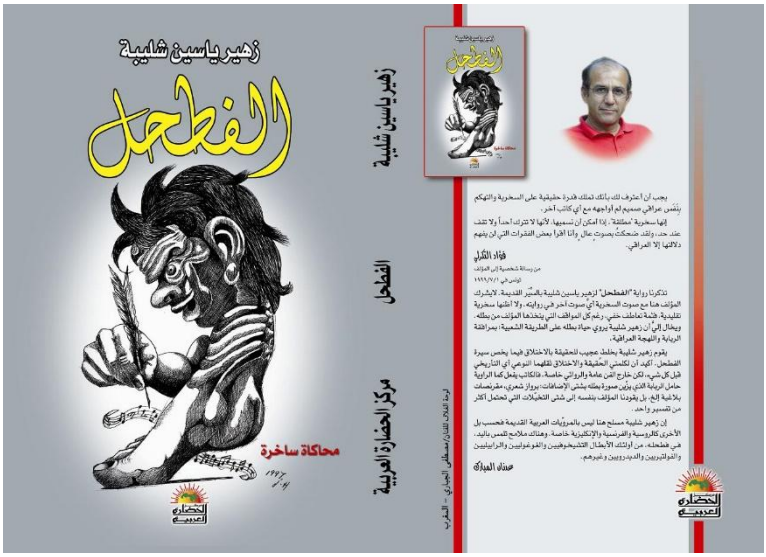

زهير ياسين شليبة
الفطحل
محاكاة ساخرة
زهير ياسين شليبة
الفطحل
مركز الحضارة العربية
لوحة الغلاف للفنان/مصطفى العباري - المغرب
يجب أن أعترف لك بأنك تملك قدرة حقيقية على السخرية والتهكم بِنَفَس عراقي صميم لم أواجهه مع أي كاتب آخر.
إنها سخرية "مطلقة"، إذا أمكن أن نسميها، لأنها لا تترك أحداً ولا تقف عند حد، ولقد ضحكتُ بصوتٍ عالٍ وأنا أقرأ بعض الفقرات التي لن يفهم دلالتها إلا العراقي.
فؤاد التكرلي
من رسالة شخصية إلى المؤلف
تونس في ١٩٩٩/٧/١
تذكرنا رواية "الفطحل" لزهير ياسين شليبة بالسِّيَر القديمة. لايشرك المؤلف هنا مع صوت السخرية أيَّ صوت آخر في روايته. ولا أظنها سخرية تقليدية. فثمة تعاطف خفي، رغم كل المواقف التي يتخذها المؤلف من بطله. ويخال إليَّ أن زهير شليبة يروي حياة بطله على الطريقة الشعبية: بمرافقة الربابة واللهجة العراقية.
يقوم زهير شليبة بخلط عجيب للحقيقة بالاختلاق فيما يخص سيرة الفطحل. أكيد أن لكلمتي الحقيقة والاختلاق ثقلهما النوعي أي التاريخي قبل كل شيء، لكن خارج الفن عامة والروائي خاصة. فالكاتب يفعل كما الراوية حامل الربابة الذي يزيِّن صورة بطله بشتى الإضافات: برواز شعري، مقرنصات بلاغية إلخ. بل يقودنا المؤلف بنفسه إلى شتى التخيّلات التي تحتمل أكثر من تفسير واحد.
إن زهير شليبة مسلح هنا ليس بالمرويّات العربية القديمة فحسب بل الأخرى كالروسية والفرنسية والإنكليزية خاصة. وهناك ملامح تلمس باليد، في فطحله، من أولئك الأبطال التشيخوفيين والغوغوليين والرابليين والفولتيريين والديدروويين وغيرهم.
عدنان المبارك